فازت بجائزة كتارا للرواية العربية 2018

عمر فضل الله

رواية

أنفاس صليحة

دار البشير



رواية

أَنفَاسُ صُلَيْحَة

فازت بجائزة كتارا للرواية العربية ٢٠١٨

رواية

أَنفَاسُ صُلَيْحَة

عُمَرْ فَضْل الله

دار البشير للثقافة والعلوم

رواية

أَنفَاسُ صُلَيْحَة

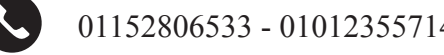
الطبعة الأولى
1441 هـ
2020 م

اسم الكتاب: أَنفَاسُ صُلَيْحَة
التأليف: عُمَرْ فَضْل الله
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 232 صفحة
عدد الملازم: 14.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2019/ 28025
الترقيم الدولي: 978-977-278-802-6







elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

01152806533 - 01012355714



إهداء

إلى أمي الحاضرة في عقلي وقلبي وروحي كلما كتبتُ عن امرأةٍ صالحةٍ.

وإلى أبي الذي حاولتُ تقليدَه في شخصه فما بلغتُ عُشْرَ مِعْشَارِ ما أُوتي

أشتاق للقائكما فَقَدْ فَاضَ بِيَ الحَنِين.



الغراب

مِثْلَ سُيول (البُطَانَة) الغاضبة الهائجة المندفعة نحو (النيل الأخضر) تدفقوا. لا شيءَ يقف أمامهم ولا بناءَ يصمد لصفوفهم الزاحفة الهادرة. لم تكن جموعهم بتلك الكثرة الغالبة، لكنهم كانوا في عزمهم كأقوى جيشٍ جَرَّار. على ظهور الإبل وصَهْوَات الخيل جاءوا. وعند الفجر هجموا رجالاً ورُكباناً، زُرافاتٍ ووُحداناً. انْقَضُّوا مِثْلَ النسور الكاسرة، فدخلوها من كل حدب وصوب ، وهرب أهلها إلى كل وجهة، رغم أنَّهم كانوا يترقبون مجيء أولئك الغزاة.

اعتلى الفاتحون البيوت وصعدوا فوق أسقفها دون توانٍ ولا تأخير. مثل جِنِّ الجبال تقافزوا فوق الأسطح والعرائش المسقوفة، كأنَّهم من السماء هبطوا. يتنقلون من مبنى إلى آخر. لا شيء يصمد أمامهم، فلم يعد هناك ثمة مدافع يتصدى لهم، أو مقاتل يناجزهم. لا ترى المدينة منهم غير القوة والبأس الشديد، ونشوة الظَّفَر على وجوههم المصقولة. أعينهم مثل أعين الصقور الكاسرة فوق سماء المدينة، التي حين رأت جموعهم المتدفقة طارت إليها فسبقتهم محلقةً، وقد علمت أنَّها ستهنأ اليوم بنهش لحوم الفرائس البشرية التي مزقتها سيوف المقاتلين، وستملأ حواصلها بأشلاء من سقط

من جيش الكنيسة الذي آثر الفرار على الصمود والقتال، فهربت جموعهم مذعورة لا تلوي على شيء. لا يلتفت منهم أحد للوراء ليلتقط شيئاً سقط، أويعود ليساعد طفلاً وقع، أوشيخاً تعثر أو امرأة تخلفت.

أصوات النساء المذعورات كانت تجني عليهن فتدل المطاردين على مواقعهن. لكن هؤلاء المقاتلين ما كانت تعنيهم مطاردةُ النساء الصارخات رعباً، ولا الرجال المندحرين الهاربين فزعاً. كان همهم هو هدم كل بناء قائم وتسويته بالأرض، والإطاحة بكل جدار شاخص، وتدمير كل تمثال منصوب. كان الغُزَاة من عرب (القَوَاسْمَةْ)، جنود «القِرِيناتي»، قد أصابتهم لَوْثَةُ الهدم والتدمير، فظلوا يَعْتَلُونَ أسطح البيوت والكنائس وأديرة الرهبان. يهدمون كل لَبِنَةٍ وينْقُضُون كل طُوبَة، ويُسْقِطون كل حَجَر، ولا ينزلون منها حتى يسوونها جميعها بالأرض. وانضم إليهم كثير من سكان (سُوبَا) من عرب (جهينة) و(المَحَسْ). وحتى (النوبة) انضموا إليهم وساندوهم واشتركوا معهم في الهدم.. كُنْتِ أنتِ يا جَدّتي لا تسمعين سوى غمغمات الرجال تصدر من أفواههم، وصيحات النصر تصل إلى سمعك مختلطة بأصوات المعاول وهدير انهيار الجدران حين يتصاعد عنها الغبار الأسْحَمُ قبل شروق الشمس في ذلك الصباح المَهِيب.

هكذا عند الفجر سقطت (سُوبَا) العاصمة. وحين أشرقت شمس النهار في ذاك اليوم غربت شمس (عَلَوَة) كلها وانتقض





مُلْكُها، ولم تبق منها إلا الأطلال والأنقاض لتشهد على مجدٍ غابرٍ مضى ولن يعود مثلما كان بالأمس. لقد هرب جنود جيش الكنيسة تاركين وراءهم كل شيء. كثيرون اتجهوا جنوباً ميممين شطر (بُتْرِي الشرقية) ليحتموا بـ(المَحَسْ) و(الحَمدْلاب) سكان المنطقة الأقدمين.

نعم. لقد دخلها الغزاة القادمون. دخلوها فجراً فدمَّرُوها، ثم رحلوا عنها سريعاً، كأن لم تعن لهم شيئاً. لم يرحلوا وحدهم بل رحل معهم بعض سكان (سُوبَا) من (العَنَج) المسيحيين والعرب المسلمين. ذهبوا قبل مغيب شمس ذلك اليوم. لم يلبثوا فيها غير يوم أو بعض يوم، بعد أن استيقنوا من دمار كل شيء حتى لا تقوم له قائمة بعدهم.

لم يأخذوا غنائم (سُوبَا) ولم يستولوا على ذهب الكنيسة ولم يحفلوا به، بل دمَّروا كل كنيسة قائمة وطمروا تحتها كنوزها وذهبها وذخائرها. تعلمين يا جدّتي أنَّهم دفنوها تحت التراب، ثم ساروا مع النيل ميممين شطر الجنوب الشرقي بعد أن تأكدوا أنَّهُ لم يَعُدْ في تلك المنطقة جيش اسمه جيش الكنيسة ولا مدينة اسمها (سُوبَا) ولا دولة اسمها (عَلَوَة). ولو كانوا يملكون مَحْوَ اسمها من ذاكرة أهلها لفعلوا. نَعَم علَوَة. الدولة العجوز التي أوهنتها المؤامرات الداخلية باسم الكنيسة التي بقيت مباني بلا ديانة، وأَعْيَتْهَا الفوضى، وأكلتها الحروب، سقطت في يوم أو بعض يوم بعد أن ازدهرت حضارتها مئات السنين.

هناك كُنْتِ تَقِفِينَ ياجدَّتي. ترين ملكاً عظيماً قد توارى. رأيْتِ كل شيء وشَهِدْتِ كل شيء. لقد أضحت (سُوبَا) خاليةً أو كالخالية قبل أن يدخلها هؤلاء الغزاة، فقد هجرها معظمُ أهلها من (العَنَج) المتوجسين خوفاً من بطش القادمين، بعد أن قَتَلَ (القَوَاسْمَةْ) البَطْرِيَرْك «دِيرِين» أمام أعين الجميع، وهرب جيش الكنيسة فلم يبق شيء يقاتلون من أجله بعد مقتل حامي حمى الكنيسة.

لقد هرب الملك وأعوانه يطلبون ملجأً أو ملاذاً، ولم يبق إلا قليل من الرهبان الذين احتموا بالكنائس حين لم يتمكنوا من الفرار فبقوا ينتظرون مصيرهم. لكن لم يتعرض العرب القادمون لهم بسوء بعد مطاردة الجنود المقاتلين من فلول الجيش الهارب. كان همهم هدم المباني وتسويتها مع الأرض.

وحين أكمل (القَوَاسْمَةْ) الغزاة مهامهم غادروا حطام تلك المدينة بعد أن قضوا على آخر جندي تصدى لهم. هناك وقفتِ يا جدَّتي، على الآثار والأطلال، وسط الغبار والدخان وبقايا الحرائق المشتعلة. لا ترين في الأرجاء حولك إلا الأرض الخراب ساكنة صامتة، والجثث قد ملأت المكان، والصقور تُحَوِّمُ في سمائها، ثم تَنْقَضُّ فتشتجر فوق أجساد الموتى الذين مزقتهم سيوف المقاتلين الغزاة. ولم يعد في أطلال (سُوبَا) إلا البوم ينعق ليلاً ، يحكي عن مجدٍ غبر، لكن لا أحد هناك ليسمعه فالمكان قد خلا من كل حي.

النيل اختبأ في مجراه وغطى وجهه بأجساد أولئك الموتى، كأنه يخشى أن تنال منه سيوف المقاتلين ورماحهم، بعد أن جرى





ماؤه دماً أحمر، والتماسيح شبعت من الجثث الطافية على وجه الماء. وأشرعة القوارب والسفن اشتعلت ناراً، ودخانها المتصاعد تراقص فبلغ عنان السماء، وسحبه الكثيفة غطت الأرجاء، فقد أحرقوا أسطول الملك وسفنه والمراكب الشراعية الراسية غربي قصره، قُبَالَةَ الطرف الشمالي التي طالما شهدت مجونه ولياليه العابثة.

لقد طارد المقاتلون الجنود المندحرين حتى وصلوا المزارع على شاطيء النيل، بعد أن دمَّروا السواقي التي يجلب بها الماء إلى المزارع جنوب قصر الملك. وفي طريقهم إلى هناك لم يتركوا بناء قائماً. دخلوا حي المسلمين الكبير الذي كان أهله قد هجروه من قبل واتجهوا جنوباً حتى وصلوا (بُتْرِي) ليحتموا بها فدمروه تدميراً. وأصبح رباط المسلمين خالياً ومرابط الخيل وثُكْنَات الجنود أضحت خاوية على عروشها قبل أن تشتعل فيها الحرائق. دخل الغزاة الغاضبون تلك المزارع يبحثون عن الجنود المختبئين خوفاً، وفي طريقهم إلى هناك قاموا بتدمير مزارع الشَّعِير والذُّرَة والسَّلْجَم والبَصَل والفِجْل والقِثَّاء والبَطِّيخ. اقتلعوها من جذورها وألقوا بها في النيل أو أشعلوا فيها النيران.

جدتي. هل تذكرين؟ هناك كنت واقفة تنظرين. لم تهربي مع الهاربين، فقد اعتدت رؤية الدماء والقتلى. لا شيء يخيفك ولا حرب ترعبك. لقد رأيتِ من الأهوال ما يكفي لأن يشيب له شعرك الأسود الجميل فيصير مثل الملح الذي رأيت الرجال في صحراء (أَزْوَاد) المقفرة ينقلونه على ظهور الإبل القادمة من

الشمال، في مُنْحَدَرِهِمْ شرقاً إلى مدينة (تِيمْبُكْتُو) منطلق الحجاج إلى بلاد (النوبة) و(العَنَج) و(الهَمَج) وأرض (المَحَسْ)، في رحلة العمر إلى بيت الله الحرام. أيتها الغريبة الوحيدة القادمة من بلاد المغرب، التي ألقت بها الأيام وسط الحروب والأهوال، وقذفت بها الرواحل إلى هذه البلاد على مشارف أرض (البُطَانَة) الشرقية لتقف على نهاية دولة (عَلَوَة) وخاتمة أيامها.

ها أنت تشهدين غروب شمس (سُوبَا) بأم عينيكِ بعد ما كان أهلها يَقُصُّونَ عليكِ من قبلُ أساطيرَ البدايات، ويقرأون في ساحة المدينة كل ليلة أخبارَ الحروب القديمة وصمودَ أسوار (سُوبَا) في وجه الغزاة في جميع الأزمنة الماضية. يقرأونها في فخر. يتغنى بها الفتيان وترقص الفتيات في دلال. هاهي (إلِيَاذَةُ هُومِيرُوس) القديمة، وحكاياتُ حصار (طَرْوَادَة) وسقوطِها تتكرر بتفاصيلها في (سُوبَا)، المدينةِ العَصِيَّةِ التي صمدت بأسوارها في وجه المهاجمين من الجنوب والشرق والشمال، وكان أهلها يفخرون بأنَّها لا تسقط أبداً، هاهي قد سقطت أخيراً ومن داخل الأسوار، تماماً مثلما سقطت (طَرْوَادَةُ) في وجه المقاتلين الإغريق في ذلك الزمان القديم.

جدتي.. لقد أخبركِ من قصَّ عليكِ حكاياتِ (سُوبَا) قبل مجيئكِ إلى هذه الأرض، أنَّه عند الخراب الأول جاء «حُمَيْدَان» بجيوشه من الغرب ومعه أمراء (قَحْطَان)، فحاربوا (العَنَج) و(النُّوبَة) أياماً، وقتلوا الملك «عَفَايِق» ومن معه، وقتلوا المقاتلة وأحرقوا مساكنهم إلى منطقة كنيسة المُرَبَّعَات، وهرب البَطْرِيَرْك «دِيرِين» قبل أن





يجيءَ «القِرِين» قائد عرب (القَوَاسْمَةْ) في هذه المَرَّة الأخيرة بخيله ورَجِلِهِ فيدخل المدينة. أخبروك أن القادمين في تلك المَرَّة الأولى احترموا الكنائس الأربعمائة المنتشرة في دولة (عَلَوَة) فلم يتعرضوا لها بأذى بل تركوها على حالها، رغم أنَّهم كانوا يعلمون أنَّه من بين سُرَادِقَاتِها خرجت المصائب والمؤامرات والفتن.

حين دخلوا (سُوبَا) في أول الأمر، قبل هذه المَرَّة تركوا الكنيسة الكبيرة – كنيسة مَارِيَّا – التي كانت في وسط المدينة موفورة الكرامة فلم يمسوها ولم يتعرضوا لها بأذى، وتركوا كنيسة مِنْبَالي والكنائس الأخرى كلها قائمة آنذاك. الكنيسة التي على الشاطيء، وكنيسة العهد بأبوابها ذات الأغشية الذهبية، وكنيسة المربعات. بقيت جميعها منتصبة بعد الدخول الأول. والمهاجمون لم يتعرضوا للرهبان المتبتلين في الأديرة، ولا للكهنة المصطفين عند أبواب الكنائس بأكفهم المرتجفة، وأصواتهم الخائفة المرتعشة تهمهم بالصلاة في وجل للقديسة مريم:

"يا أُمَّ العَزَاءِ، يا أُمَّ النورِ، نحن ضعفاءٌ وحَزَانَى ومملوءون من الأسى والظلمة، نرجوك أن تذكرينا أمام عرش النِّعْمَةِ في وقت الضيق، حتى تَرُدِّي أحزانَنَا إلى فرحٍ، وتملأي قلوبنا من البهجة والسلام. صلاتك مقبولة أيتها العذراء القديسة مريم، ومعونتك أكيدة لكل من يلتجيء إليك. لا تَرُدِّينا فارغين، ولا ترفضي طلباتِنَا، بل كوني معنا كل حين، وخصوصاً وقت الضيق. أنت أمنا، فلا تتركي أولادك، ولا تنسيْ بنيكِ، لأننا نحتاج إليك لكيْ

تفتحي لنا باب الدَّالَّةِ عند ابنك، حتى نرتمي تحت الصليب فنأخذ العَزَاءَ والفرح والرجاء والشكر بصلواتك المقبولة أمام الرب، يا أم الفرح وأم المعونة. آمــين".

كان الكهنة والرهبان يقطعون صلواتهم كلما اقتربت الخيل أو مَرَّتْ بجانب الكنيسة. ينظرون في فزع، ويَرْقُبُونَ الخيل كلما جاءت راكضة عند مُنْعَطَفِ الطريق وعلى ظهورها الفرسان الغاضبون. تتبعها أعين المصلين الوَجِلَة حتى تغيبَ أو يغطيها الغبار. المقاتلون على صهوات الخيول وظهور الجمال يطاردون الجنود الفارِّين يتبعونهم أينما ذهبوا فَيَنْحَرُونَهُمْ نَحْرَ الإبل ويعقِرونهم عَقْرَ الثيران ثم يذبحونهم ذَبْحَ الخِراف في عيد الفداء.

لقد سبق أن أخبروك أيضاً أن البَطْرِيَرْك «دِيرين» حين هرب من بطش الغزاة قبل هذا اليوم ذهب فجمع الجيوش من (المَكَادَة الأحباش) و(البِجَة) وأطلق على جيشه اسم جيش الكنيسة ثم عاد إلى (سُوبَا) وحارب عرب (القَوَاسْمَةْ) وطردهم من المدينة مستعيناً بالمرتزقة وبالأموال.

ولقد أخبروك أيضاً أن «القِرين» جمع القبائل العربية وعلى رأسهم عرب (القَوَاسْمَةْ)، وجَرَّد جيشاً جراراً وأعادوا الكَرَّة مجتمعين على المدينة الصامدة التي تجمع فيها جنود (العَنَج) و(النوبة) وسكان (سُوبَا) وغيرهم باسم الكنيسة بعد أن غادرها العرب. وقام البَطْرِيَرْك يُحَرِّضُ أصحابه ويبشرهم أن المسيح وعدهم بالنصر. فكانت حرباً باسم الدين في هذه المرَّة. لكن





«القِرِين» بحنكته الحربية وشجاعته الفائقة كان سبباً في كسب المعركة. فقد حاصر المدينة وقطع عنها المؤونة. وكرَّتْ خيلُه على البَطْرِيَرْك فقتلته، فَفَتَّ ذلك في عَضُدِ (النُّوبَة) من جيش الكنيسة فانهزموا، وتبعتهم جيوش العرب قتلاً وفتكاً ذريعاً.

دالت الأيام ياجدَّتي. لقد تغير كل شيء، فحين دخلها الغزاة الغاضبون دخلوها أيضاً باسم الدين، تماماً مثلما حاربهم البَطْرِيَرْك باسم الدين. وعندما دخلوها دمَّروا كل تمثال وجدوه. بدأوا برأسيْ الأسدين الزجاجيين الرابضين عند مدخل قصر الملك قُبَالَةَ ساحة المدينة، ثم دمَّروا تمثال الكَبْشِ المَرَوِيّ الذي كان منتصباً أمام مدخل كنيسة ماريا الكبيرة التي قامت شامخة قبل ذلك مئات السنين في وسط المدينة بجدرانها الحجرية، وأعمدتها المَرَوِيَّةِ القديمة، وأبوابها المصنوعة من الذهب الخالص، ونقوشها ومنمنماتها الدقيقة، وتصاويرها الجميلة. حين هدموا الكنيسة انهارت جدرانُها الحجريةُ فوق سقف المعبد المَرَوِيِّ القديم الذي كان في المُنْحَدَرِ أسْفَلَ منها بأبوابه الحجرية الضخمة، ثم انقلبوا يهدمون قصر الملك وكل ما حوله من المباني المشيدة بالطوب المحروق. ثم هدموا الكاتدرائية وبقية الكنائس بالمدينة. كانوا يتنادون كلما وجدوا بناءً قائماً، أو تمثالاً منصوباً، يَنْقَضُّونَ عليه كالكواسر، فيدمرونه تدميراً. وبعد أن فرغوا من كل ذلك انقلبوا يهدمون بيوت (سُوبَا) الجميلة المبنية من الآجُرِّ الأحمر، يُخربون حدائقها وبساتينها الغَنَّاءَ ودورها الواسعة. وكانوا قد بدأوا بمقارِّ الجيش، وثُكْنَات الجنود، ومرابط الخيل

خارج أسوار المدينة، فاستولوا على عدة الجيش الهارب وعتاده، قبل هدم الأسوار نفسها.

نعم. في ذلك اليوم كنتِ يتيمةً ووحيدةً في مدينة لم تعرفِ السكينة إليها درباً، ولا الأمن طريقاً. شهدتِ آخر أيامها، وحضرتِ نهايَتَها وانهيارَها، ووقفتِ على خاتمة دولتها التي دَالَتْ وسقطت سقوط النسر العجوز الذي لم يَقْوَ جناحاه على حمله، فَخَرَّ وسط الصقور الكاسرة تتخطفه وتمزقه شر ممزق.

«دُوَانَة» اختفت عن الأعين. ومثلما ظهرت للناس فجأة ذهبت فجأة. لا أحد يدري من أين جاءت ولا إلى أين ذهبت. لكنك دون غيرك تعرفين حكايتها الحقيقية، فقد أفضت إليك في يوم من الأيام بمكنونات فؤادها المكلوم، وقصت عليك مأساتها التي تقطع نياط القلوب. لقد أفشت إليك يومها بسرها الذي حملته في صدرها على مدار الأعوام وكَرِّ السنين.

أنت لا تدرين حتى الآن لماذا وثقت بك كل هذه الثقة، وقد كانت تعلم أن ما أفضت به إليك كافٍ لأن يجعلهم يصلبونها مائة مرَّة، أو يمثلون بجثتها ثم يعلقونها على أبواب (سُوبَا)، أو في أسواقها ليراها النّاس. فقط لو كشفوا أمرها أو قدروا عليها قبل سقوط المدينة. لكن «دُوَانَة» نجت منهم. وربما وثقت بك لأنك غريبة عن المدينة، وقادمة من مكان بعيد ولا يعرفك أحد. وبالطبع لا أحد لتحكي له حكايتها. ولو حكيتِ فلن يصدقك إنسان أيتها البائسة الغريبة. لكن «دُوَانَة» غادرت المدينة عند السَّحَر قبل





طلوع الفجر، وقبل سقوط المدينة. وحراس المدينة عند الأبواب لم يتعرضوا لها، فقد كانوا يعلمون منزلتها في المدينة. وحينما رأوا هَوْدَجها فوق تلك الناقة الضخمة تتجه نحوهم عرفوها، فتنحوا وأفسحوا لها الطريق. لكنها لم تكن هناك وحدها داخل ذلك الهَوْدَج النوبي العتيق، فقد كانت معها ابنتها الرقيقة الفاتنة «أُونتِّي». كلتاهما غادرتا المدينة في ذلك الوقت من الليل. وفي الطريق رأتا جموع الغزاة تتدفق نحو المدينة في حذر. وأرسل الأمير «عبد الله» معهما من يحرسهما ويحميهما. رغم أن «دُوَانَة» ما كانت تحتاج جيشاً للحماية، فهي بمثابة جيش جبار، فقد فعلت وحدها ما لاتقدر الجيوش مجتمعة على فعله. «دُوَانَة» أدت مهمتها بنجاح وسط أمراء (عَلَوَة) وكبارها ونبلائها، وتمكنت من تفكيك واحدة من أقوى الدول في المنطقة فخربتها، ثم خرجت سالمة بل ظافرة منتصرة. وربما تعود لترقص فوق أطلالها، وتشفي غليلها، وتطفيء حرّ كبدها المكلومة على زوجها المقتول غدراً، وكرامتها المهدرة، ومجدها المعتدى عليه.

نسج النّاس حولها الحكايات والأساطير، لأن قصتها هي أشبه بالأساطير. رغم أن مأساتها حقيقية وقصتها واقعية لا خيال فيها. والنّاس دائماً يميلون لتأليف الأقاصيص والحكايات حينما لا تتوفر الحقيقة. فطالما تناقل أهل (سُوبَا) الأساطير القديمة حول الساحرة «سِيمُونَة» التي عاشت في الزمان القديم أيام النجاشي العظيم «الأبجر» وابنه «أصحمة» منذ خمسمائة عام من زمانك هذا أو

تزيد، فنسبوا إليها كل عجيب. ومثلما أن «سِيمُونَة» تم طردها من أسوار المدينة لتعيش هناك في حي السحرة داخل (جزيرة التمساح) في الشمال الغربي من (سُوبَا)، فإن «دُوَانَة» لجأت إلى منحنى النيل في منطقة (شِبِيْش) إلى الجنوب الشرقي من (بُتْرِي الشرقية). كانت تقيم عند تلك الساقية المهجورة التي يهابها النّاس ويخشون الاقتراب منها ويعتقدون أنَّها مأوى العفاريت، وأن بها غولاً شيطاناً قبيح الخلقة عظيم الهامة ضخم الأنف، يسكن في تلك الجروف شديدة الانحدار التي تحيط بها أشجار الصفصاف.

أعرف أنَّك تعلمين القصة التي روتها لك، وأنَّها كانت من أميرات البلاط الملكي في (عَلَوَة)، وزوجها الأمير «أُونْدِي» كان أحد الأمراء المقربين للملك فقد كان ولي العهد. لكن بقية الأمراء وكعادة نبلاء هذه الدولة وقساوستها لم يعجبهم الأمر فسعوا للتخلص منه. لأن رأيه عند الملك كان هو الأرجح دائماً، وكلمته هي المسموعة، وكانت بيده مفاتح قوة الدولة وسطوتها وأموالها. والملك كان يوليه ثقته ويأتمنه على أسراره، وما كان يرضى أن يستبدله بكل الأمراء مجتمعين، ولا بالنبلاء ولا بالكنيسة، رغم أموالها وذخائرها وذهبها وسطوتها.

«دُوَانَة» حدثتك بكل هذا. وأن هؤلاء الشياطين اجتمعوا ذات ليلة على مجلس من مجالس الشرب كعادتهم، وبعد أن ثَمِلُوا ذكروا زوجها الأمير «أُونْدِي» فأخرجوا غيظهم عليه، ونعتوه بأقبح الصفات. لكن شيطانهم الكبير «مَنْدُو» أخبرهم أن هذه تُرَّهَاتُ





سُكَارى، وأَنَّهم يصحون غداً من ثَمَلِهِمْ فينسون كل هذا، وأَنَّهم إن كانوا يعنون ما يقولون فليكونوا رجالاً حقاً، ويتخلصوا من «أُونْدِي» إلى الأبد، حتى يعلم الملك من هم الرجال الحقيقيون، وكيف يتصرف الأمراء النبلاء في بلاط الملك. كانت هذه هي بداية المؤامرة على الأمير «أُونْدِي». ومن بعدها استمرت المؤامرات عليه ولم تتوقف أبداً.

هذه الدولة شربت من كأس المؤامرات حتى ثملت. تاريخها مُتْرَعٌ بالخيانة، وبَلاط الملك شاهد على الغدر على مر السنين والأعوام، وتَغَيُّر الملوك والأمراء. الصراع بين الكنيسة والقصر يكون سِجَالاً خلال فترات، ثم تنقلب الكنيسة على الملك حيناً من الدهر فتسيطر على مقاليد الأمور، وتظهر سطوتها وبطشها، ثم ما يلبث أن يجيء ملك قوي فيستولي على الكنيسة وذخائرها وأموالها، فيرتمي الكهنة تحت قدميه طائعين. لكن تبقى الخيانة متجذرة في البلاط، وتبقى المؤامرات كامنة في أروقة الكنائس وتحت أجراسها النحاسية الضخمة. وفي أحيان كثيرة يتصارع الأمراء والنبلاء وأساقفة الكنيسة حول السلطة فَيَعِيثُونَ في (عَلَوَة) فساداً، وكانت آخرة الفساد وعاقبة الأمر وَخِيمَةً حين فكروا في النَيْلِ من الأمير «أُونْدِي» زوج الأميرة «دُوَانَة» وولي عهد (عَلَوَة) فاتهموه بالخيانة، وقتلوه ظلماً، وحَمَّلُوه تَبِعَةَ كل ما حدث في (سُوبَا) من حروب وهزائم. أمراء البلاط ونبلاؤه جَنَوْا جميعاً على أنفسهم حين اتبعوا البَطْرِيَرْك «دِيرِين» ووقفوا في صفه، ولم يقفوا في صف

الأمير «أُونْدِي» ولي العهد الذي قاتل دفاعاً عن (عَلَوَة) بكل ما أوتي ولم يَخُنْ مَلِكَه ولا مملكته. ثم جَنَوْا على أنفسهم كَرَّةً أخرى حين أثكلوا «دُوَانَة» لأَنَّهم أيقظوا فيها مارداً عملاقاً أعمى كان نائماً، فلما استيقظ غاضباً عمد إلى أعمدة الدولة فخلخلها، قبل أن يأتي «عبد الله القِرين» قائد جيش (القَوَاسْمَةْ) فيدمرها ويقضي عليها، فتسقط (سُوبَا) وتذهب دولتها، وتغيب شمسها إلى الأبد.







أنفاس صليحة

لابُدَّ أن الجنَّةَ مُخَبَّأةٌ جيداً في هذا المكان، لكن موسم المطر يَشي بها فيجلوها للناس في كل عام. عند بدء رشَاش المطر تنفحُك بادَيةُ (البُطَانَة) إلى الشرق من النيل الأزرق بروائح طيبة من طين الأرض ونبات (النَّال) و(البَاشَنْدِي). ونسمة (الدُّعَاش) أطيبُ من رائحة عروس في ليلة زفاف. هذا العَبَق يُغري الغزلان والأرانب البَرِّيَّة على الخروج من مخابئها تتقافز في دلال، وترقص في مَرَح فوق تلك السهول الخضراء المنبسطة، التي تتحول بلمسةٍ من بركات السماء إلى بساط أخضر خلّاب. وفي ربوعها وأرجائها تنتشر مضارب بَدْوِهَا وبيوت المقيمين من سكانها حول الآبار والغدران.

لقد حدثني جدي أن سكان هذه الأرض نزحوا إليها من بلاد بعيدة في (الأندلس) و(المغرب) وأرض (شنقيط)، لكن مناخها ناسب مناخهم من حيث أتوا فاستقروا هنا. كانوا بدواً أهل إبل وغنم بطبيعتهم فآثروا (البُطَانَة) على غيرها. ولو حاولوا البقاء جوار النيل فلن يتمكنوا، لأن أصحاب تلك الأرض من (المَحَسْ) و(النوبة) (العَنَج) و(الهَمَج) سيكونون لهم بالمرصاد، فقد سكنوا جوار النيل وامتهنوا الزراعة منذ زمان قديم. والنّاس لم يطلقوا عليهم اسم "القدماء" إلا لأنَّهم كانوا من الأقدمين حقاً، ولا يعرف

جيرانهم بداية تاريخهم، بل هم أنفسهم لا يعرفون تاريخهم الموغل في القدم على هذه الأرض. ويقال إنَّهم استوطنوها ولم يغادروها منذ عهد «نوح» أبي البشر الثاني. ويقال إنَّهم هم (النُّوبة) الأقدمون الذين نزح بعضهم إلى هذا المكان، وانقطعوا عن أصولهم القديمة فنسوا لسانهم النُّوبي، وغلب عليهم اللسان العربي الذي امتزج بالألسن، النوبي والبجاوي والحبشي منها، حين اختلطوا بالقبائل العربية القادمة من الشمال والشرق، فتحدثوا العربية الهجين التي أصبحت هي لسان أهل (عَلَوَة).

(العَنَج) قومٌ طوال الأجسام. أجسادهم السمراء مثل سيقان الذرة التي تستطيل في موسم الخريف، وسرعان ما تغدو فارعة الطول. هم عمالقة ذوو قوة وبأس شديد، ومحاربون بالفطرة، لكنهم إلى جانب ذلك هم زراع مهرة، فقد سكنوا جوار النيل ولم يتوغلوا شرقاً في أرض البُطَانَة. وكانوا لا يرتادونها إلا للحروب أو اللهو، أو في موسم صيد الطرائد، حين تعبر الآلاف من الغزلان وحُمُر الوحش فوق أرضها الخصبة كل عام، ويتجدد النَّماء والخصب. لكن أرض البُطَانَة ظلت أيضاً معبراً للقوافل القادمة من الشرق، وموطناً للبدو الرُّحَّل، ورغم هذا كله فقد بقيت خالية من القرى إلا ما تناثر هنا وهناك.

حين كنتُ صغيراً كنتُ أخرجُ للهو في هذه السهول، أو للتجوال والاستكشاف في أرضها المنبسطة على مد البصر على مشارف قرية (عُلْوَان)، فلا أرى سوى شجيرات متناثرة هنا





وهناك، وتربة رملية صفراء حيناً وغبراء أحياناً أخرى، وحِدَأَةً تُحَلِّقُ في الأجواء.

تلك الأرض هي مرتعي في الصِّبَا. وقد لفت نظري فيها يوماً مقبرة صغيرة فوق تلة رملية قليلة الارتفاع، أحاطتها بعض شجيرات قصيرة بالقرب من شجرة السَّمُر العجوز. غير أن التَّلَّة بقيت عاريةً إلا من بعض شِيح وقيصوم، أوحشائش الدمبلاب والسِّحاء القصيرة. لكنك كنتً تستطيع أن ترى تلك الشجيرات من بعيد. وفي وسطها قبران مجهولان. ما كنت أعلم من الذي يرقد في جوفيهما، لكن الذي كنت متأكداً منه هو أَنَّهما يرقدان في سكون أبدي، تَسْفِي عليهما الرياح وتَهْطُلُ الأمطار. فوق قبريهما نبتت الأعشاب سريعة النمو في موسم المطر القصير، وحول القبرين نمت شجيرات. وعلى أديمهما باضت يوماً قطاة ثم طارت مع أفراخها إلى مكان مجهول. وفي أفرع الشجيرات تعلقت بعض شرانق بيضاء لحشرة في بياتها ريثما يمرُّ المَوْسِمُ فتخرج منها فراشات ملونة تطير لتعيد دورة حياتها الأبدية. وقد نسيهما النّاس منذ زمن طويل فقد مضت على وفاتهما الدهور والأعوام. يمر النّاس بهما ولا يعرفون اسماً لصاحبيهما، فقد انقرض كل من كان يعرفهما. لكنهما مازالا هناك متجاورين، لا يشهدان تقلب الفصول، ولا تعاقب الليالي والأيام، فذلك لم يعد يعنيهما في شيء، ولا ينتظران أحداً يمرُّ ليلقي التحية أو يرفع يديه بالدعاء، فقد مات كل من عرفهما.

قبران في سكونهما الأبدي. لا أحد في مروره يحيِّيهما إلا الشمس عند شروقها كل صباح. هي التي بقيت تمنحهما شعاعها كل

إشراق على مدار السنين وتعاقب الأيام. ورغم أنَّها اعتادت منهما ذلك الجفاء الذي لا تعرف له سبباً، إلا أنَّها لم تيأس، فكانت تنتظر رد التحية كل صباح. وحين لا يردان تحيتها تغضب منهما قليلاً فتصليهما بحرارتها حين تتوسط كبد السماء. لكنها سرعان ما كانت تودعهما في أسى وقت الغروب، فهي تحبهما رغم كل شيء. وكانت تدرك أنَّه لا يمكنها الانتظار حتى لو أرادت ذلك. هي دائماً على عجل تطارد جيوش الظلام أينما حلت، فكانت لا تفارقهما إلا مرغمة، ولا تغرب عنهما إلا كسيفة، بوجه شاحب حزين.

أمَّا صديقها القمر، فقد ظل ينوب عنها في بعض الليالي كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فينير لهما، وقد عرفهما مخلصين له، فقد كانا يؤنسان وحشته، ويشاركانه السمر تحت ضوئه. لكن القمر رأى في يوم من الأيام أنَّهما ناما تحت كومتين من التراب ولم يستجيبا له، وما عاد يرى إلا ذينك القبرين المتجاورين كلما طلع بعد غياب، فقد اعتاد في القديم أن يغويهما في كل دورة من دوراته باستدارته المنيرة، بعد أن يولد هلالاً ثم يصير بدراً، فيبقى هناك في كبد السماء ينظر ويترقب، ويحلم ويتمنى أن ينجلي عنهما التراب والغبار، ليكشف ما تحته من أستار. لكنه حين يتسرب إليه اليأس من صمتهما، تتبدل حاله فيصير مَحَاقاً، ثم يغيب وراء الأفق عُرْجُونَاً قديماً، يموت من الغيظ ليولد هلالاً من جديد، وعبثاً يعاود الكرَّة بعد المرَّة.

والنجيمات تظل ترمقهما وتلمع لهما من بعيد فلا يستجيبان. ويتهاوى بعضها أسفاً عليهما بعد أن كانت تغار من وفاء القمر





لهما، فتظل ترقبه وهو ينتظر حبيباً تَعَوَّدَ إخلاف المواعيد. لكنهما هناك باقيان. لا يباليان بغضبة الشمس ولا لوم القمر، ولا بالفضول الذي تبديه تلك الأنجم البعيدة، ولا بتقلب الليل والنهار، ولا يردان التحية لمن عبر أو مَرَّ بقبريهما. إنَّهما مشغولان ببعضهما في تلك السُّهُوب من أرض (البُطَانَة). لا يملان طول البقاء معاً. هما ميتان لكنهما لا يدركان ذلك، فهما منشغلان حتى عن الموت. يظنان أنَّهما في غفوة، وعما قريب يستيقظان كل فجر جديد ليواصلا إيقاع حياتهما معاً، مثلما اعتادا قبل ذلك كل صباح. لكن الاستيقاظ عندهما ليس مهماً ما داما معاً يحلمان ويتناجيان.

ياصديقي، لم أكن أعلم قبلها من هما هذان الراقدان اللذان ضمهما القبر وأغلق عليهما إلى الأبد. لكنّي قد علمت. اليوم انجلت لي حكايتهما فدعني أحدثك. كان أحدهما يحلم بماضيه معها كلما وضع رأسه على الوسادة. ثم بعد أن مات استمر في ذلك الحلم الجميل الذي لا ينقضي وليست له نهاية. وكانت هي الأخرى تحلم بماضيها معه. وحين توفيت ظنت أنَّها نائمة بإرادتها، وأنَّه عما قليل يوقظها لصلاة الفجر، لكنه لم يفعل. وهي لم ترد أن تستيقظ إلا إذا أحست بيده الحانية تلمس وجهها وتهزها من كتفها في حنان لتستيقظ. فبقيت منتظرة ذلك الحدث الجميل، بَيْدَ أنَّها انتظرت طويلاً جداً أكثر مما كانت تتوقع.

لم أكن أعلم أن هذه الراقدة تحت الأرض، والمُسَجَّاة بالتراب في ذلك القبر الغربي هي جدّتي الكبرى، وأن الذي يرقد بجوارها

في ذلك القبر الشرقي هو جدّها وجدّنا الأكبر. ولم أكن أعلم أنّي سأكون في يوم من الأيام سبباً ليذكرهما النّاس ويعاودون العثور على قبريهما وزيارتهما. ولست أدري هل حدث ذلك بإيعاز منهما وهما ميتان حين سئما طول الرقاد، فاشتاق كل واحد منهما للآخر، أم طال حرمانهما من الأنس الجميل، أم ياترى أن القمر قد اكتشف حيلة جديدة لإيقاظهما فلجأ إليَّ بعد أن استنفد كل الحيل الممكنة.

ولا أدري إذا كانت الشمس هي قد دلتّنِي بنورها المنعكس على الشجيرات حتى أتوقف عندهما حيث قادتني خطاي، أم القمر ياترى هو الذي جعلني أتابعه في مرقدي ليلاً فأسرح بخيالي عند تلك الشجيرات والمقبرة. لا. لا. رغم أن القمر يمكر أحياناً، وقد تعلم من التجارب، واستمع لملايين العشاق يتناجون في ليالي الصيف المقمرة. لم يكن بالطبع يقصد الاستماع ولكنه كان مرغماً، فقد كان هناك دائماً ولا يستطيع المغادرة. وطالما أن هؤلاء العشاق والمحبين قد اختاروا ألا يخفوا عنه شيئاً فلِمَ لا يستمع ويتعلم! لم يكن للقمر حبيب، فهو وحيد دائماً في كبد السماء، يغار من الأنجم الثنائية. لكن هذين الراقدين تحت التراب لهما عند القمر مكانة خاصة ومنزلة كبيرة. هما ليسا عاشقين كبقية العشاق، فحبهما هو من نوع آخر، وطعم ذي مذاق مختلف.

هو حب الجد للحفيدة اليتيمة. وعشق الحفيدة للجد العطوف، الذي هو بمثابة الأب والأم، والأخ والأخت، والصديق، وكل شيء جميل في حياة تلك اليتيمة الوحيدة. وربما يكون القمر قد





لجأ إليَّ ليعرف ما الذي حل بهما منذ زمان. فهما لم يستيقظا منذ أن وسَّدَهما بعض الغرباء ذلك المكان، وأهالا عليهما التراب، فقد أظهر قلقاً عليهما. وعلى كل حال فالقمر تأخر كثيراً قبل أن يخبرني. لعله بقي صابراً أكثر من أربعمائة عام. ثم نفد صبره في يوم من الأيام فقرر أن يقوم بمغامرته. وحسناً فعل. فقد رأيت في النوم أن القمر قد وقع هناك في البادية الشرقية عند شجرة السمر العجوز، وغاص تحت الأرض ولم يخرج منها. ثم تبعته نجمة مضيئة جاءت على إثره، ودخلت معه فتدثرت بالتراب. رأيت هذا الحُلْمَ مرتين. ورويته لأبي فابتسم، ولم يعبره لي. ثم نسيت الأمر، لكنّي بعد ثلاثة أيام رأيت القمر وذلك النجم في الحُلْمِ يسيران جنباً إلى جنب من بيتنا في القرية، فيخرجان إلى البادية الشرقية، ويرقدان بجوار شجرة السمر. وحين حكيت ذلك الحلم لأبي عَبَّره لي ، لكن بعد صمت، حتى كدت أنسى ما كنت قلته لأبي. التفت إلي قائلاً:

الله.. ياولدي. ليس عندنا في البادية غير جدّتك وجدّك الأكبر، وهما قد جاءا من بلاد المغرب منذ زمان، وتوفيا من سنين طويلة، فهما مدفونان هناك. وقد اختارا حياة البادية، فعاشا فيها ودفنا فيها. لكن قصتهما أعجب من الخيال، فقد حكاها لي جدي رواية عن جده الذي كان صبياً في عهد جدتنا «صُلَيْحَة» الكبرى، التي ترقد هي وجدها الأكبر الحاج « عبد الحميد اللَقَّاني» في هذين القبرين. وقصتهما يتناقلها الأبناء عن الآباء، وتتوارثها الأجيال. ولا أدري هل زاد النّاس فيها ونقصوا أم رووها كما سمعوها، لكن الذي أنا

متأكد منه أن حكاية «صُلَيْحَة» هذه قد حدثت بالفعل، والتاريخ يؤكدها ويحكي تفاصيلها، فهي قد تواترت مع كثير من الأحداث التي دُوِّنَتْ في زمانها، وقد سجلها جدنا عندما دَوَّنَ تاريخ هجرة المغاربة إلى هذه المنطقة، وسجل شجرة أنسابهم فذكرها في سجل الأنساب، وحكى قصتها حين دَوَّنَ هجرة الأجداد من (فاس) إلى هذه البلاد، وهم: «عبد الله والد حسوبة» وإخوته «القاسم ومحمَّد وعلي» أولاد «عبد الرحمن ولد عبد الخالق ولد عبد الواحد ولد يحيى ولد عبد الصمد ولد الشيخ أحمد ولد عبد الله ولد محمَّد زروق». وذكر حج «الشيخ أحمد بن محمَّد زروق» ومعه أولاد أخيه حين دخلوا بلاد السودان قاصدين (بلاد الحجاز)، ونزلوا ضيوفاً على الملك «رحمة ولد سوبكت» فأكرمهم، وأن أحدهم - وهو «عبد الله» - تزوج بنت الملك، واسمها «آمنة الملقبة شهيوة»، وله منها الشيخ «حسوبة»، المدفون في غابة (سُوبَا). ثم ذكر مجيء الشيخ «ولد حسوبة ولد عبد الله ولد عبد الرحيم ولد عبد الخالق»، و«عبد الواحد ولد يحي ولد عبد الصمد ولد أحمد ولد عبد الله ولد محمَّد زروق حسوبة» من بربر سنة ٩٠٠ هجرية، فاتخذ (سُوبَا) الشرقية وطناً له، ونسله ونسل بني عمه بها. وانتشـر نسلهم في (الجزيرة) و(البُطَانَة)، وضواحي (الخرطوم). وذكر أيضاً مجيء «اللَّقَّاني» الكبير من بلاد المغرب قاصداً (الحجاز)، ولحاق حفيدته «صُلَيْحَة» الكبرى به، وقال إنَّها امرأة صالحة. ثم قص حكايتها التي سأرويها لك، فقد أخبرني بها أبي عن أبيه عن جده، وأن جدهم الراوي الذي





حدثت له القصة مع جدته «صُلَيْحَة» قال إنَّه قد اختلط الواقع عنده بالخيال، وامتزج الحلم باليقظة منذ أن جلس مع جدته «صُلَيْحَة» في ذلك اليوم الغريب. فمن بعده ما عاد يفرق بين الخيال والواقع، إلا حين يزورها في بيتها، فيتأكد أنَّها موجودة على الحقيقة وليس على الخيال، وأنَّها ماثلة أمامه يراها وتكلمه.

قال لي أبي يا ولدي إن كنت ضعيف القلب، أو كثير الشك، أو لست مستعداً أن تتخلى عن واقعك المعتاد فلن أحكي لك حكاية «صُلَيْحَة»، لأنَّها أبعد ما تكون عن الواقع. ولهذا فإن أجدادنا لا يقصونها للناس، وإنما يتداولونها بينهم في مجالسهم الخاصة. ولا أخفي شيئاً إن قلت إن كلام أبي كان هو الحافز لي لسماع الحكاية التي حدثت منذ زمان قديم، فهي تحكي عن تاريخ قد حدث منذ عام ١٥٠٠ للميلاد، فقد شوقني تحذير أبي لمعرفة تفاصيلها، وما كان يجري في ذلك الزمان القديم، رغم علمي أن الفضول قاتل، لكنني رجل تستفزه التحديات وتدفعه للمزيد. وحين ألححت عليه تردد كثيراً. ثم إنَّه دعاني ذات يوم فحكى لي الحكاية التي حدثت منذ أكثر من خمسمائة عام نقلاً عن أبيه عن جده عن جدهم الأكبر. قال لي أبي:

- (اعتدت أن أزور «صُلَيْحَة» - جدّتي لأبي - لأقضي معها بعض الوقت. جعلت هذا جزءاً من واجباتي كل أسبوع رغم أشغالي الكثيرة. وفي واقع الأمر لم أكن أستمتع به حين كنت أرافق أبي في زيارته لها، فقد كانت لي اهتمامات أخرى حينئذ، لكنني

ألزمت نفسي به براً بأبي في حياته ثم بعد وفاته، فقد سمعته يوماً يقول "إن أَبَرَّ البرِّ أن يصلَ الرجلُ أهلَ وُدِّ أبيه". وذلك لما رأيت أن أبي كان يحبها جداً ويودها، إضافة لكون زيارتها صلة رحم، فهي جدّتي في المقام الأول. لاحظت أنَّها كانت تعانق أبي كلما ذهب يزورها، وكأنَّها تخاف أن تفقده، أو أن يرحل بعيداً ثم لا يعود. كانت تأخذه في حضنها مثلما كانت تفعل حين كان طفلاً صغيراً، رغم أن عظمها ما عاد يقوى على ضمه، ولا قوتها تساعدها على ذلك. وكنت أدهش وأنا أشاهدهما يجلسان معاً يمضيان الوقت الطويل في الحديث والأنس والسمر، حتى أنَّهما كانا ينشغلان فينسيان من حولهما.

كانت حالها تتغير إذا زارها فتجلس معتدلة ممتلئة نشاطاً وحيوية، وتسري الدماء في وجهها، وتلمع عيناها بالفرحة. وتذكرت أنّني كنت أرافقه منذ صغري لزيارتها، فكنت أضحك مندهشاً حين أراها تضمه وتشمه، وتعامله مثل الطفل الصغير. وأبي لا يتذمر من ذلك ولا يشكو، بل يبتسم ويتركها تفعل به ما تشاء من دلال ولثم وعناق. ثم بعد ما كبرت قليلاً أصبحت أستحيي من معاملتها لأبي، فقد شاب شعره لكن معاملتها له لم تتغير. وكنت أظن أنَّها تبالغ في حبها له. ورغم أنَّها لم تكن تحرمني من كل ذلك الحنان والعطف، فكانت تفعل بي قريباً مما كانت تفعله مع أبي، إلا أنَّه كان واضحاً أن اهتمامها به أكبر، وحبها له أشد، وتعلقها به فوق المعتاد، حتى أنّني كنت أغار من أبي حين أرى مبالغتها في الاعتناء به أكثر من اعتنائها





بي. ثم توفي أبي منذ ثلاثة أعوام، وشغلتني الشواغل عن زيارتها حيناً من الدهر، فقد كانت تعيش في البادية وكنت أسكن القرية. لكنني تذكرتها يوماً فقررت معاودة زيارتها براً بأبي وصلة للرحم.

كانت كما تركتها آخر مرَّة قبل ثلاث سنوات. لم يزد شعر رأسها بياضاً أكثر مما كان عليه، فقد فارقها الشعر الأسود منذ أن كنت أزورها مع أبي، فقد كان شعرها أبيض مثل الملح، لكن عدد الشعيرات في رأسها أضحى جدّ قليل، واختلط جلدها الأبيض بعلامات سمراء وهالات سوداء هنا وهناك، ورغم هذا فقد أبقى لها مسحة من جمال وهيبة وإشراقاً في عينيها اللتين لم تطفئهما الأيام، ولا ذهب بجمالهما الدهر، فبقيتا مثل عيني الغزال، جميلتين بَرَّاقَتَيْن. أذكر أنّني حين كنت طفلاً لاحظت أن لون بشرتها مختلف عن لون بشرة بقية أمهاتي الأخريات من جهة أمي، فهن سمراوات وبشرتهن مطفأة، لكن بشرة جدّتي لأبي كانت بيضاء وفي بياضها حلاوة حنطية محببة، لم يغيرها العمر، ولم تذهب بنضارتها الأيام. ولاحظت أن متاع بيتها لا يشبه أمتعة بيوتنا، ولا أثاثه مثل الأثاث الذي اعتدنا عليه في قريتنا، فهي تعيش حياة البداوة، وتتخذ فراشاً على الأرض، وتلبس ملحفة لا تشبه ثياب النساء عندنا، وأدوات بيتها غريبة عن الأدوات التي اعتدنا عليها، وكذا الزينة ونوع الطعام، وكل شيء وجدته مختلفاً عما ألفناه في بيوتنا في القرية. وقد لفت هذا الأمر انتباهي حين كنت صغيراً، لكّني اعتدت عليه بعد ذلك ولم أسأل نفسي عن سبب اختلافه عن بقية متاع بيوتنا

الأخرى حتى توفي أبي. وجئت بعد ذلك أتفقدها مثلما كنت أفعل في حياة أبي، فبقيت ألاحظ كل شيء من حولي وكأنّي أراه لأول مرَّة.

سألتها يوماً:

- جدّتي لاحظت أنك كنت تحبين أبي حباً شديداً، وتدللينه، فكنت تعاملينه مثل الطفل حين يأتي إليك.

- أبوك قطعة من فؤادي، وهو يذكرني بجدّك فقد أنجبته بعد موت جدّك بشهرين، وأنجبته على كبر بعد أن جاوزت الأربعين.

قلت في دهشة كبيرة:

- معناه أن عمرك الآن فوق المائة يا جدّتي! ماشاء الله فقد مات أبي بعد أن بلغ الثمانين.

- لقد تجاوزت المائة بأربع وعشرين عاماً يا ولدي.

- من أين أتيتم يا جدّتي؟ ما هو أصلكم؟ أنا أعلم أنكم (مغاربة) أو (شناقيط) كما يقولون وأنك أتيت مع قافلة الحج لتلحقي بجدّك لكن القافلة مرت هنا ببلاد (العَنَج) وأنت بقيت هنا عمرك كله لكن من أي قرية في المغرب أنتم يا جدّتي؟

حين سألتها اعتدلت في جلستها مثلما كانت تفعل مع أبي، ولمعت عيناها وأمسكتني من يدي بقوة وقالت:

- نحن من أصول مغاربية. فقد علمت من جدي الحاج «لَقَّاني» أنَّهم هاجروا إلى المغرب من (الأندلس) حين استولى عليها النصارى (الإسبان)، وأن جدي توجه من هناك إلى ديار (شنقيط) قبل أن





نأتي إلى هذه البلاد. فأنا من العشائر الوافدة إلى هنا عبر (تِيمْبُكْتُو) وبلاد (كانم) و(دارفور) و(كردفان). قدمنا إليها من (شنقيط) حين كنت صغيرة. ولم يكن ذلك باختياري، لكنّي الآن لن أرضى بها بدلاً. قضيت بقية صباي وشبابي بالرغم مني في (سُوبَا) قبل سقوطها، وقبل أن يدخلها (القَوَاسْمَةْ) في المرَّة الثانية. جدك سألني نفس هذا السؤال قبل زواجه منّي. ثم جعلته بعد ذلك يقص عليَّ حكايتي بعد أن تزوجنا، فكان يتمثل نفسه معي حين كنت صغيرة، فيعيش معي أحداث طفولتي كلها.

- من تقصدين بجدي؟ وكيف حدث ذلك يا جدّتي؟

- جدّك الذي هو زوجي. أراد أن يعيش معي طفولتي، فتوحدت روحي وروحه، وعشنا حياتي الماضية معاً أنا وهو.

- رجعتما إلى الماضي بالخيال؟

- لا لا. رجعنا إلى الماضي بأنفاسي حقيقة، أنا وهو. أنا كنت أعيش الماضي، وهو كان معي يشاهد ويحكي. ولم أقص عليه حكايتي بل هو الذي قصها عليَّ.

- ماهذا الكلام الغريب يا جدّتي؟

- أعلم أنك تعتقد أنَّه أصابني الخَرَف، لكنّي أعني ما أقول، وأنا واعية. جدّك رجع معي للماضي عبر أنفاسي، وشاهد قصة حياتي في أرض الأجداد، منذ أن كنت صغيرة حتى تزوجته. كان يعود معي بروحه للماضي، حيث يتوحد دفق أنفاسي مع نفث أنفاسه

فنصير روحاً واحدة، ترى بعين الروح في الماضي ما يراه النّاس بعين الحقيقة في الحاضر، فيحكي لي ما يشاهده، يحكيه بتفاصيله. وحين يفرغ من الحكاية كلها كنت أطلب منه أن يعيدها على مسامعي كل ليلة، فلم يكن لدينا أبناء حينها، وكان جدّك هو أنيسي وسلوتي، فيبقى الليل كله يحكي ويحكي. ثم بعد أن مات جدّك وكبر أبوك، أصبح أبوك يقص عليَّ الحكاية كلها كما كان جدّك يقصها، فتعلم أبوك مني كيف يعود معي إلى الماضي بأرواحنا، ثم يحكي لي ما يراه كل ليلة قبل النوم.

- وهل كان يقصها عليك مثل جدي؟

- كانت طريقة أبيك مختلفة عن طريقة جدّك ، لأن روحي تآلفت مع روح جدّك يوم الاثنين، بينما تآلفت مع روح أبيك يوم الخميس. ومع هذا فقد استمتعت بكلتا الطريقتين.

ضحكتُ أجامل جدّتي. أسأل الله أن يسامحني ويعفو عني، فقد داخلني شك كبير حينها في عقل جدّتي فاتهمتها في نفسي بالخرف، لكنّي بقيت أداريها وأجاريها في الحديث:

- ولكن يا جدّتي ما علاقة تآلف الأرواح بالحكايات؟ وكيف يعود جدّي أو أبي إلى الماضي في الحقيقة وليس في الخيال؟ فالماضي قد مضى ولن يعود حقيقة وما علاقة الاثنين والخميس بالأمر كله؟

- الأمر متعلق بالمحبة يا ولدي. لأنك حين تحب أحداً حباً عظيماً ويبادلك ذلك الحب فإن روحيكما تلتقيان وتأتلفان وتتوحدان



كأنَّهما روح واحدة، وتذهبان حيث يريد أحدكما أن يذهب، فيرى ما يراه الآخر. وأنا أحببت جدّك حباً عظيماً، وهو أحبني مثل ذلك، وتآلفت روحه وروحي فرجعنا للماضي معاً، وعشناه معاً، حتى تمكن من رؤية حياتي الماضية كلها. الأيام مطايا الأحداث والقلوب بوابات الزمن، فكل قلب له يومه، وكل يوم له مدخله الخاص، فهو باب إلى الماضي يسوقك عبر درب غير درب اليوم الآخر، فترى من ناحية مختلفة لا ترى مثلها في اليوم الآخر. فدرب يوم الاثنين الذي سار فيه جدّك ليس هو درب يوم الخميس الذي سلكه أبوك.

- وأبي رأى معك هذا هو الآخر؟ وبنفس الطريقة؟

- أبوك قطعة منّي كما ذكرت لك، وقد كان يحكي لي حكاياتي منذ الصغر، لكنه حكاها بطريقة مختلفة، فهو ابني، وحب الابن كما تعلم يختلف عن حب الزوج. ثم بقيت أستمتع بسرده وهو يعيد حكاياتها مثلما كان جدّك يفعل. وأنت قطعة من أبيك، لذا فأنا أحب أن أسمعها منك بلسانك، لأنّني أريد أن أسمعها بلسان الحفيد أيضاً، مثلما سمعتها بلسان الزوج والابن. وسوف أدخلك إليها من باب يوم الاثنين، فهو الباب الذي دخل منه جدّك ، فقد كنت أجد متعة كبيرة في إطلالة روحه وهويحكي الحكاية. أحس أنَّه كان معي فعلاً منذ أن كنت صغيرة، وأننا لعبنا معاً ونحن صغار، وأنَّه رافقني في رحلتي وحياتي كلها. حتى أنّني بدأت أحس أن روحه كانت معي في ذلك المكان البعيد الذي جئت منه، وأنَّها قادتني إلى

هنا لأعيش معه ومعكم بقية حياتي وحياته. هل تحب أن تحكيها لي كما كان جدّك يحكيها؟

– نعم يا جدّتي أحب هذا!

– وهل تعدني أنك ستحكيها لي حين أكون على فراش الموت وتحكيها لأولادك وأحفادك من بعدي؟

– أعدك يا جدّتي. الله يعطيك طول العمر.

وتضحك جدّتي ضحكة رنّانة رغم سنّها. وهي تضحك بفم قد ذهبت أسنانه جميعها منذ أمد طويل، ولم يبق لها فيه شيء. لكنها كانت سعيدة وهي تقول:

– ما أظنني أرغب في العيش كثيراً بعد هذا، فقد رأيت الكثير. ادع لي أن أكون مع جدّك وأبيك في الجنة، نلتقي هناك فنحكي الحكايات ونطير حيث شئنا بأجسادنا وأرواحنا. لكن بقيت لي أمنية واحدة في هذه الدنيا. أن أسمع الحكاية منك أنت أيضاً.

– يارب يا جدّتي! بعد عمر طويل. أنا الآن لا أعرف حكايتك ولكن أعدك أن أعيد سردها عليك بعد أن أسمعها منك.

– لن تسمعها منّي ولكنّي أنا من سوف يسمعها منك!

– ولكن كيف يا جدتي؟

وتصمت جدّتي وابتسامة الرضى تغمر وجهها. بقيت تتمتم أحياناً بتسبيح واستغفار، أسمع بعض عباراته، ويغيب عني معظمه. لكنّي أصبحت متعجباً أفكر في كلامها الغريب، فكيف أحكي لها حكايتها وأنا لم أسمعها منها!





حيرني هذا الحوار فجعلني بين مصدق ومكذب، رغم أنِّي تمنيت حينها لو أننا جلسنا نحكي الحكايات كلها كما كان جدي يحكيها. لا أَمَلُّ من التكرار. ولا تمل هي من الاستماع، فنغيب عن الحضور وأنا أحكيها. ثم قلت لنفسي إن جدّتي تحن إلى جدّي بطبعها، وتحن إلى أبي أيضاً، فكلاهما أصبح من الأموات. وربما بدأت تحس بالوحدة بعدهما فاختلقت هذه القصة لتبقيني معها، أو لتحثني حتى أواظب على الحضور فأسمع الحكاية منها يوماً ما. وازدادت حيرتي حين نظرت إلى عينيها فقرأت فيهما الصدق والطمأنينة، وتفرست في وجهها فعلمت أنَّها كانت تقول الحقيقة رغم غرابتها، فبقيت أنتظر ما سوف يحدث، لكن جدّتي لم تحك لي الحكاية، كما لم تطلب مني أن أحكي لها أي شيء بعد هذا الحوار. وما كنت سأعرف كيف أحكي أو ماذا أقول لو طلبت مني ذلك، فأنا لا أعرف حكايتها أصلاً. ولم يخطر على بالي أي شيء لأخبرها به، فأنا لا أعرف ماضيها.

ثم حدث أنّني انشغلتُ بأشياء أخرى، فقد أصلحت لها فراشها ووسادتها، وجلبت لها الماء من البئر، وناديت خادمتها لتبقى معها، لكنّي قبل أن أغادر بيتها ذلك اليوم نادتني لتودعني، وحين اقتربت منها أمسكتني بقوة، ثم أغمضت عينيها، وأحسست بساعدها يحتويني ويضمني إليها كما كانت تفعل مع أبي، فكتمت الضحك في نفسي، لكنّي استسلمت لها مبتسماً، وبقينا على هذه الحال بضع دقائق صامتين لا نتحدث.

كبار السن يتصرفون أحياناً بطريقة غير مفهومة، وعليك أن تتحلى بالصبر لتفهم ما يريدونه. كنت وأنا في هذا الوضع أحس بأنفاسها تعلو وتهبط وكأنَّها تغط في نوم عميق، فأغمضت عيني وأحسست بتدفق الدم في عروقها، وبنبض وريدها وهي تلصق رقبتها برقبتي، وبَقِيَتْ هكذا قبل أن تشمني بعمق كما تفعل الأم بطفلها الصغير، ثم تطلقني وتفتح عينيها لتنظر في عينى. كنت مندهشاً من هذا الذي فعلته جدّتي بي، لكنها حين أطلقتني أخيراً نظرتُ فرأيتُ السعادة في عينيها، وأحسست أنَّها عادت من عالم آخر غير عالمنا هذا، لكنني قاومت الاعتراف بأنَّها حين ضمَّتني إليها نقلتني فوراً إلى عالم آخر غامض ساحر ومليئ بالبهجة والحبور، عالم لم أختبره من قبل. وحين أطلقتني عدت إلى واقعي وكأنّني أستيقظ من حلم سماوي جميل.

ثم ودعتُها ورجعتُ إلى بيتي، ونسيت أمر جدّتي والحوار الذي دار، وتلك الضّمَّة الغريبة المحيرة. وفي مساء اليوم التالي رجعت للبيت منهكاً، وبعدما اغتسلت ولبست ثياب النوم أويت إلى فراشي فتذكرتها فجأة. وكان ذلك العناق قبل أن أغادر بيتها باقياً في ذهني وفي خاطري بدقائق تفاصيله، فقد أحسست حينها كأن روحها قد انتقلت وتسللت داخل روحي. لم أحس بأجمل من تلك اللحظة التي ترفق ساعدها خلالها لحظة فاحتواني قبل أن تضمني إليها بقوة. وسألت نفسي هل كانت تعي وتعني ما تقول حين قالت إن جدي كان يعود معها بروحه إلى الماضي فيشاهد كل شيء ويحكي





لها كل شيء؟ وهل ذلك ممكن في حياة النّاس اليوم، أو في ذلك الزمان، أو في أي زمان آخر؟ أم أنَّه ضرب من العاطفة الغريبة؟ وهل لذلك علاقة بتلك الضَّمَّة وذلك العناق الروحي الشفيف؟ أم أنَّها قد بلغت أرذل العمر فما عادت تعي ما تقول، وأن الخيال عندها قد طغا على الواقع، فما أصبحت تميز بينهما؟

ودافعت هذه الخاطرة الغريبة فدفعتها، واستعذت بالله من الشيطان الرجيم. لكنني حين أغمضتُ عينيَّ رأيت أنّي أفتحهما على عالم مدهش، وكأن روحي انتقلت إليه بالفعل، وأنّي في مكان بعيد غريب لم أزره في حياتي من قبل، وكنت أنظر إليه من فوق من مكان عالٍ!

رأيت جدّتي وقد عادت طفلة صغيرة في ذلك الزمان البعيد. ولم يكن ما رأيته أضغاث أحلام، وإنما كان حقيقة شاخصة، فما زلت مستيقظاً يومها. وبقيت هناك لحظات قصيرة أشاهد كل ما يحدث حولي، وكأن طاقة انفتحت أمامي إلى الماضي فسريت فيه بالروح، وأبصرت فيه بالنظر. لكنّي سرعان ما خفت ففتحت عيني وقمت مذعوراً، ورأيت أنّني مازلت في غرفتي وفي فراشي، وأنّني لست في ذلك العالم الغريب.

نهضت من الفراش وتفلت عن يساري ثلاثاً، واستعذت بالله من الشيطان الرجيم، وتوضأت وصليت ركعتين حتى هدأت نفسي، وسرعان ما عدت للفراش مرَّة أخرى، ووضعت كفي تحت خدي الأيمن وأغمضت عيني، واجتهدت أن أبقى واعياً

ومنتبهاً لأفرق بين عالم الأحلام والخيالات، وعالم اليقظة والحقيقة والواقع. وبقيت على هذا الحال بضع دقائق، لكنّي بالرغم من هذا كله سرعان ما عدت إلى ذلك العالم مرَّة أخرى مع أنّني كنت يقظان. وفي هذه المرَّة لم أقاوم وتركت نفسي تشاهد كل شيء، فرأيت كل شيء! نعم رأيته! ولم أطق انتظار الصباح فانطلقت فجراً إلى ديار جدّتي. وحين رأتني تهلل وجهها وقالت:

- أعرف.. جئت لتحكي!

- نعم يا جدّتي. رأيتك ورأيت كل شيء رغم أنّني كنت مستيقظاً! لكنّي حين نهضت من الفراش توقفت الرؤية وانقطعت الرؤيا! ماهذا الذي يحدث معي ياجدّتي؟

- تعال هنا. اجلس معي في فراشي وأغمض عينيك فسوف ترى كل شيء. واحكِ! احك لي ما رأيتَه وما سوف تراه الآن بعد أن تغمض عينيك. لا تخف. لا تخف.

- هل أنت ساحرة يا جدّتي؟

- لا. لا. معاذ الله يا ولدي. أعوذ بالله من السحر والسحرة. هذا دفق أرواح وهذه أنفاسي. أنفاس «صُلَيْحَة» تذهب بك للماضي. تعال تعال واجلس واحك لي ما رأيت.

- أها. جئت. جلست. أغمضتها. ولكن. ولكن لا تلمسيني فسوف أفتح عيني لو لمستيني ياجدّتي. بسم الله الرحمن الرحيم. أغمضتها. ما هذا؟ ما هذا؟ ما هذا يا جدّتي؟





ذكريات الأرض الأولى

– أحس أنّ روحاً أخرى غير روحي التي أعرفها بين جنبيَّ هي معي الآن. أو كأنَّها روح مزدوجة امتزجت مع روحك، وليست روحاً واحدة. ها أنا ذا أراك هناك. في ذلك المكان. ها هي القرية أعلى التل. وها أنتِ ذي صبية جميلة يافعة. كأنك في العاشرة أو أكبر قليلاً. أنت الآن في ساحة اللعب، والصبيان حولك يتراكضون ويلعبون. ولكن ما هذا الصوت؟ هناك شخص يناديك بلهجة غريبة. أين نحن؟ ومن أنت على الحقيقة؟ هل أنت جدّتي حقاً؟ لكنّي أراك هناك في ذلك المكان الغريب وتلك البلدة العجيبة. وأنت صبية. حقاً من أنت؟

– «صُلَيْحَة»! كَرِينَا رَاحْلَة وغَدًّا نَمْشِيوْ الحج! أنا وِيَّاك!

– هذه لهجة (مغاربية) بكل تأكيد. فنحن في بلاد (المغرب) إذن. وفي الماضي البعيد الموغل. لأن النّاس لا يشبهوننا ولا ملابسهم تشبه ملابسنا. وذاك الرجل الأبيض المهيب فارع الطول الذي يناديك من هو؟ الزمان والمكان والسماء والأرض كلها توقفت لتسمع هذا الصوت. وأنت تتسمرين في مكانك مثل الصنم حين تسمعين صوته، ويتوقف قلبك عن الخفقان غير مصدق، قبل أن يدق مثل قلب عصفورة صغيرة وقعت في الشرك. ذاك كان صوت

جدّك الحاج! أو كأنَّه هو! هل أنا في حلم؟ بالتأكيد لا فأنا أرى كل شيء بوضوح. ولكن هل تحلمين أنت؟ بالتأكيد لا فأنت تقفين وسط الملعب، والصبيان حولك في صخبهم الصباحي المحبب. وهناك غير بعيد يقف جدّك الحاج منتصباً بقامته الفارعة، وثوبه الأبيض المخطط الجميل. ينظر في عينيك البريئتين، ويبتسم ممتعاً ناظريه بوجهك الضاحك الممتليء حبوراً، ويناديك بصوت يفيض حباً. تركضين في جنون صوب ذراعيه المشرعتين لاحتضانك. فردة السُّبَّاط تطير منفلتة من قدمك اليمنى، وتتقلب في الهواء قبل أن تسقط على رمل الساحة، بينما تبقى اليسرى متشبثة برجلك تأبى أن تفارقها، لتجعلك تتعثرين فتسقطين، ويمتليء فمك بالرمل ولكنك لا تأبهين. تنظرين نحو جدّك فتحثك ابتسامته المشجعة على الوقوف والركض مجدداً. تنهضين بعزم مقاتل سقط في أرض المعركة. تمسحين فمك المعفر بالرمل، وتتعمدين أن تقذفي فردة السُّبَّاط من رجلك اليسرى بقوة لتتحرري من أسرها، وكأنك تعاقبينها لأنَّها أسقطتك أرضاً. تركضين حافية نحوه. هاهو جدّك واقفاً أمام البيت بقامته الفارعة فاتحاً ذراعيه إليك. تقذفين نفسك بينهما بلا هوادة ولا تفكير. يتلقفك ويحتويك بدفء أحضانه وحنانه الأبوي الفياض، وكأنما أدخلك في قفصه الصدري وأغلق عليك. وفي لحظة غامرة تنسين كل ما حولك، وتتمنين البقاء في حضنه إلى الأبد، ولكنك تسترجعين نداءه لك قبل قليل فتتملصين من أحضانه لتنظري في عينيه.





- بالصُّحْ جَدِّي؟ غانَمْشِيوْ للحج؟
- بالصُّحْ آ بِنْتِي!

كانت هذه هي بداية القصة. تذكرين ذلك جيداً. أكثر من ذكرك لأمك وأبيك فصورتاهما مُعْتِمَتَان عندك منذ أن توفيا في عام الوباء الذي يشبه الطاعون، والذي تنتج عنه البثور والدمامل والحُمَّى، ثم العمى أوالموت السريع، وذلك حين كنت صغيرة يافعةً. ولكنك تذكرين بعض التفاصيل يوم جاء جدّك الحاج فأخذك منهما لما تبين أنَّهما أصيبا بذلك المرض مثل كثيرين في القرية، ثم قالوا لك أنَّهما سافرا بعيداً. وصدقت كلامهم فقد اعتدت رؤية القوافل المهاجرة إلى الشمال أو الشرق هرباً من الداء بعد أن أصيب العشرات بالعمى، ومات المئات، وأصبحت القرى خالية من النّاس. وبقيت تخرجين كل يوم إلى أطراف القرية تنتظرين عودة أبيك وأمك من ذلك السفر الذي قالوا لك عنه، وترقبين مجيء القوافل التي كانت تذهب لكنها لا تعود.

ثم أخبرك يوماً أنَّهما لن يعودا من السفر، وأنَّه أصبح هو أباك وأمك بدلاً عنهما. يومها لم تبك عليهما مثلما صنع بقية الأطفال الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم عام الوباء، فبقيت صامتة وغير مصدقة في حنايا قلبك أنَّهما لن يعودا. كنت تظنين أن جدّك لا يقول الحقيقة وأنَّها مجرد لعبة مثل لعبة الغميضة وأنَّهما سوف يرجعان يوماً ما من السفر، وأنك سوف تفتحين عينيك فتفاجئين بهما واقفيْن عند باب الدار ومعهما الهدايا والملابس. لكن الأيام مضت وطال غيابهما ولم

يرجع أي منهما مع القوافل العائدة. مثلما ذهب كثيرون يبحثون عن الطبيب والعلاج والدواء ثم لم يعودوا أبداً. وتوالت الأيام وبقيت أنت وحدك مع جدّك الحاج في الدار، يصنع لك الطعام ويساعدك في تبديل ملابسك وترتيب شعرك الأسود الجميل المموج المنسدل على كتفيك! كنت مغمورة بيقين أنك سوف ترينهما يوماً ما، ربما هناك في الحج، أو في الجنة التي حدثك عنها جدّك الحاج كثيراً، ووصفها لك بتفاصيلها وكأنَّه قد عاد منها للتو.

فكرة الرحلة مجنونة. نقلتك إلى عوالم سحرية تلهب خيالك الطفولي وعاطفتك الجياشة، وتوقك للمضي في المجهول. الجميع يعرف أنك فتاة صغيرة شجاعة مغامرة، وأنَّه لا شيء يردعك. تتطلعين للغد بآمالٍ عراضٍ وحماسٍ محموم. بريق عينيك يقول للناس أشياء كثيرة. لم تطفئه لمحة الحزن التي تزورهما بين الفينة وأختها كلما تذكرت أمك، وابتسامتك البريئة التي لا تفارق شفتيك تجعلك طفلة محببة، فكل من يراك يقع في أشراك حبك ويتمنى لو يأخذك بين ذراعيه. لكن لجدّك مكانة خاصة عندك فهو يدللك ويجعلك تحلقين في سماوات الفرح الدافيء، كلما أطل بوجهه المهيب، وقامته الفارعة، ولحيته البيضاء، وابتسامته الساحرة المعهودة.

أمضيتِ وقتاً طويلاً وأنت تُحَلِّقين في عوالم السفر البعيد. تطلقين العنان لخيالك الجامح، تحلمين يقظانة بكل الحكايات التي سمعتها من العائدين من رحلات الحج حين يتجمعون في زاوية سِيدِي





«محمَّد المختار» كل ليلة، يسمرون ويحدثونه عن مغامراتهم في رحلات الحج، فيستمع مبتسماً، أو يشاركهم الحديث باقتضاب أحياناً، وأنت تجلسين بالقرب منه على حِجْر جدّك الحاج، مسندة رأسك إلى صدره، لا تملين من سماع تلك الحكايات وأنت تحركين قدميك وكأنك جالسة فوق أرجوحة في ساحة اللعب. لكن هذه الحركة الرتيبة تصيبك بالنعاس وتشغلك عن سماع الحكايات فيهجم عليك النوم بظلامه لتطبق أجفانه على أجفانك. وتصارعينه لأنك لا تريدين النوم ولا ترغبينه في ذلك المكان وتلك اللحظات. لكنه يغلبك هنيهة وسرعان ما تقفزين مذعورة لئلا يكون شيء قد فاتك. وحين تكتشفين أنَّهم قد أنَّهوا تلك الحكايات الممتعة، وانهمكوا صامتين في سكب وارتشاف الشاي الأخضر تتوسلين إليهم في إلحاح أن يعيدوا سردها مرَّة أخرى، فيضج المكان بالضحك ويضمك جدّك إلى صدره في حنان. أصبحت نوارة ذلك المجلس وفرحته وابتسامته التي ترسمينها على جميع الوجوه. لك أنت وحدك مكانة خاصة عند سِيدِي «محمَّد المختار» لا يشاركك فيها أحد. حتى أنَّه عرض على جدّك أكثر من مرَّة أن يأخذك عنده ويرعاك، لكن جدّك تمسك بك تمسكه بالحياة، وتشبث بك تشبث الروح في المفاصل والعروق، وغضب من كلام سِيدِي «محمَّد المختار» حول هذا الأمر، وانقطع عن الزَّاوية حيناً من الزمان، ولم يعد إليها إلا بعد أن أرسل إليه سِيدِي «محمَّد» يسترضيه بهدية بعث بها مع مريده وخادمه «بُرْهَامِي».

أنت كل ما بقي لجدّك في هذه الحياة من أهل وعائلة وعشيرة، فكل عائلة جدّك الحاج «لَقَّاني» التي وفدت لهذه البلدة من بلاد (الأندلس) قد ماتوا في عام الوباء، أو هاجروا إلى بلاد (النُّوبَة) العليا أو السفلى واستقروا هناك، فقد هاجر ابنه «موسى» منذ زمن ولم يعد فلم يبق إلا أنت وجدّك. ولذا فهو يعتبر أي محاولة لأخذك منه حكماً عليه بل حكماً على كل الأسرة بالموت الزؤام. لكن سِيدِي «محمّد» لم يكن يريدك أن تتخلفي عن مجلسه في الزَّاوية ولو يوماً واحداً. كما أنك مسكونة بقصص وحكايات رحلات الحج، تحبين سماعها كل يوم، ولو أعادوا سردها مائة مرَّة. الجميع يتحدث عن الرحلة المضنية والتنقل بين القرى والمدن في بلاد (السودان) الواسعة الفسيحة، الممتدة من البحر المحيط غرباً إلى (بحر الجار) شرقاً، خاصة بلاد النيلين بسحرها الأخاذ. يتحدثون عن (النُّوبَة) و(المَحَسْ) و(العَنَج) الأقدمين و(الهَمَج)، والعرب السُّمْر في وسط البلاد، والسكان الطيبين بسحناتهم الخُلاسِيَّةِ وكرمهم الفيَّاض، وشجاعتهم وخدمتهم لقوافل المسافرين. يحكون عن أنواع الطعام الغريب المصنوع من دقيق الذرة بطعمه الحامض واللاذع أحياناً، والذي لا يشبه الطعام هنا، والحيوانات المتوحشة، والنعام طويل العنق الذي يركض مرافقاً قوافل المسافرين طمعاً في بعض الطعام والحبوب. يحكون عن عطش الصحراء، وشمسها المحرقة، وعصابات الطريق التي تأتي من المجهول، وتختفي في المجهول والقوافل التي تغرق في رمال الصحراء، وأصوات الجن وعزيفها





خلف التلال وفي الأرض الخلاء، والأفاعي التي تخرج من تحت الرمال، والعقارب التي يجدونها داخل الأحذية حين يستيقظون صباحا. هذا الحديث يملؤك توقاً لخوض المغامرات وشوقاً لرؤية كل ذلك بنفسك. لم تخافي يوماً من حديثهم عن تلك المهالك، ولم ترعبك طريقتهم في السرد وهم يتعمدون تخويفك ضاحكين. كنت ممتلئة جسارة، فأنت في حجر جدّك الحاج الذي عرفه النّاس منذ صباه بأنَّه لا يدانيه أحد في الشجاعة والإقدام، وواضح أنك ورثت كل ذلك منه. جدّك كان يتمنى يوم ولادتك لو أنك كنت ولداً ولم تكوني بنتاً. حتى أنَّه في صغرك كان يلبسك ملابس الأولاد الذكور. وفي أكثر من مرَّة غضب منه سِيدِي «محمّد» وزجره وقال له إن هذه (الصِّغِيوْرَة) أشجع وأذكى من جميع الأولاد الذكور. وكان هذا الثناء يملؤك فخراً ويزيدك ثقة، ومع أن جدّك الحاج كان يتمنى لو أن أنك كنت ولداً ذكراً بعدما مات أبوك بداء الوباء، وهاجر عمك «موسى» إلى بلاد (النوبة)، لكنه لم يجرؤ أن يصرح لك بهذا الكلام حتى لا يحزنك رغم أن حبه لك لا يدانيه حب.

عند الظهيرة كان هناك شيء ما يجري في الخفاء. قلق في الأجواء تحسينه ولا تدركين كنهه. لكنك فقط تعرفين أن هناك أمراً ما، واضحاً تقرأينه في عيني جدّك الحاج، الذي يحاول عبثاً أن يتجنب النظر إليك، ويفضحه الارتباك في حركاته، فهو يقوم لغير سبب فيقف خارج الدار، ثم سرعان ما يعود ممسكاً لحيته بيده مستغرقاً في تفكير عميق. تراجعين الأحداث منذ فجر اليوم فيستوقفك مشهد

«بُرْهَامِي» الذي لمحته وقت الضحى يتحدث مع جدّك ، ويشير بيده إلى زاوية سِيدِي «محمّد» ثم يذهب. بعدها انقلب حال جدّك الحاج.

«بُرْهَامِي» هو أحد المريدين والمحبين لسِيدِي «محمّد». يرسله لحاجاته فهو يثق به ثقة كبيرة، و«بُرْهَامِي» يحب شيخه ولا يفارقه. يمضي وقته معه، ولا يعرف غير زاوية سِيدِي «محمَّد المختار» مكاناً آخر يذهب إليه، فهو غريب دفع به الطريق ذات يوم إلى الزَّاوية منهكاً جائعاً ومريضاً قد أشرف على الموت. وكان وقتها شاباً في مقتبل العمر، فاعتنى به سِيدِي «محمّد» بنفسه بالدواء والطعام والشراب والغطاء حتى شفي وعوفي. لكنه بقي بعد ذلك في الزَّاوية مفضلاً العيش مع سِيدِي «محمّد» يخدمه عرفاناً ومحبة. ثم تبين بعد ذلك أنَّه يتيم، وأن أباه وأمه توفيا بسبب ذلك الوباء الذي انتشر في البلدة والبلدات المجاورة.

بقيت تراقبين قلق جدّك الحاج. تبعته وهو يتسلل خفية إلى الزَّاوية. لابد أن هناك أمراً خطيراً يحدث. أنت رأيت مثل هذا القلق على وجه جدّك يوم جاء يخبرك أن أباك وأمك سافرا إلى بلد بعيد، وأنَّهما لن يعودا. كنت يومها صغيرة السن لكنك كنت ذكية وفَطِنَة. تقرأين وجه جدّك الحاج كأنَّه كتاب مفتوح. جدّك يخرج متلصصاً فتتبعينه خلسة حتى يصل إلى باب الزَّاوية قبل أن يتلفت في حذر ليتأكد أنك لا تراقبينه أو تسيرين خلفه. تتوقعين هذا فتتوارين خلف أحد الجدران، وتلمحينه يدلف إلى الزَّاوية،





فتركضين بسرعة وتربضين تحت تلك الطاقة الصغيرة التي يجلس سِيدِي «محمّد» مقابلها في بهو الزَّاوية. وتتنصتين للحوار الدائر بين جدّك وسِيدِي «محمّد».

- سْلام عليك سِيدِي «محمّد». شْنُو بغيت مني؟

- مْصَطِّي انت؟ مْزَنْزِنْ انت يا «لَقَّاني»؟

- معاذ الله سِيدِي. وشنو كاين؟ وُعَلاشِ تْعَايِرْنِي؟

- عَلاش تسير بها اليتيمة يا «عبد الحميد» لبلاد القبلة وانت عارف أنَّه بينك وبينها مسافة ما يسلم منها صالح ولا طالح. فكيف مع هاد الصِّغِيوْرَة؟

- كيف عرفتْ سِيدِي؟

- وليداتي سمعوا هَدْرَتَكْ مع «صُلَيْحَة» وانت تقول لها غَانَمْشِيوْ للحج! وُحِنَّا كانْصَحُوك الا بغيت تسير سير بوحدك فْهِمْتْ؟

- و«صُلَيْحَة»؟

- «صُلَيْحَة» تِبْقَا مْعَايا في الزَّاوية سْمِعتْ؟

- علاش نخلي حفيدتي بوحدها ونمشي للحج بوحدي سِيدِي؟

- كيف بوحدها؟ وانا ما عدتش موجود؟ انت راسك قاصح ماتسمع الكلام! نُوضْ طلعتي لِيَا الدم! قُمْ. أزعجتني ووترت أعصابي.

- واخَّا واخَّا سِيدِي «محمّد». حاضر !!

كان حواراً قصيراً ولكنه كان عاصفاً. لم تري سِيدِي «محمّد» غاضباً مثلما رأيته اليوم. ولم تري جدّك الحاج محتاراً بين احترام سِيدِي «محمّد» والغضب لكونه سيتخلى عنك. وهو لا يقدر أن يترك رحلة الحج بعد أن أعلن عنها، وعرف النّاس أنَّه مسافر. عيب كبير أن يلغي الرحلة بعد أن اشترى الراحلة وأعد الزاد وتهيأ للسير. لكنه في الوقت نفسه لا يطيق أن يتخلى عنك. وهو لا يملك أمام غضب سِيدِي «محمّد» إلا أن يسافر وحده. لكن كيف قَبِلَ أن يتنازل ويتخلى عنك بهذه السهولة بل بهذه السرعة؟ لابد أن سِيدِي «محمّد» قد عرف كيف يختار الوقت المناسب للحصول عليك وأخذك من جدّك الحاج، فقد كان يعلم أن جدّك ينوي المسير للحج لكثرة ما سمعه وهو يتحدث ويبدي شوقه لتلك الرحلة، فانتظر حتى أعلن جدّك الحاج عن رحلة الحج واقتنى الراحلة، وبهذا ضمن سِيدِي «محمّد» أنَّه لا يمكن لجدّك التراجع وإلا أصبح أضحوكة عند جميع أهل القرية، وجلب العار لاسمكم واسم جدّكم الأكبر إلى الأبد.

جدّك الحاج يخرج من الزَّاوية مطاطيء الرأس. ينظر إلى الأرض. يمشي متثاقلاً، مهزوماً، يجرُّ رجليه جرّاً. تسبقينه ركضاً إلى الدار قبل أن ينتبه فيراك. تدخلين وتتوارين في مهدك وكأنك لم تتبعيه إلى زاوية سِيدِي «محمّد». يدخل منكسراً. يعلم في نفسه أنك كنت تتنصتين وأنك استمعت للحوار فهو يعرف كل شيء تفعلينه. لكنه الآن يتجنب النظر إلى عينيك. يتحاشاك. يجعل نفسه





منشغلاً بعمل شيء، أي شيء. لا يعرف ماذا يفعل. يقترب منك قليلاً وكأنَّه يخشى أن يأتي «بُرْهَامِي» فيخطفك منه ويخبئك في إحدى غرف زاوية سِيدِي «محمّد». يفزع إليك ويحرص أن تكوني بقربه وفي الوقت نفسه يتجنب المواجهة معك. لكن عاطفته تغلبه فيندفع نحوك ويأخذك في حضنه. تحسين باختلاجته وهو يضمك إليه، وبزفراته الحرَّى ودموعه الحارة تسقط على وجهك. لم يجتهد أن يخفي مشاعره عنك وحزنه في هذه المرَّة مثل المرات السابقات حين كنت صغيرة. وكأنَّه أيقن أن هذه هي المرَّة الأخيرة التي سوف يراك فيها. تلتقي عيناكما. ودون أن يتكلم تصلك الرسالة كاملة.

- جدِّي الحاج!!

- ...!

- جدِّي أنا وَلِّيتْ كْبيرة. نِتْسَنَّاك وننتظرك ولو بعد مِيَّاتْ عام وتعود. سير آجدي غير سير. وتهلَّلا فْرَاسَك. وانتبه لنفسك.

كلماتك تخرج من فمك فقط،ولا تجاوز شفتيك، لكن قلبك يقول كلاماً آخر. كلاكما يفهمه ويعلمه. قلبك كان يقول له لا تتركني وحدي. أنت حياتي فبدونك لا حياة لي ولا أمل. وقلبه كان يقول لك لن أستطيع المضي وحدي وبدونك لا أظنني سوف أصل إلى الحج. أنت كل من بقي لي في هذه الحياة من عائلتي. وحتى لو وصلت فلن تكون فرحة رؤية الأرض المقدسة فرحة ونحن لا نتشاركها معاً.

يسود الصمت الأصم الأبكم في الدار تلك الظهيرة. جدّك الحاج يلملم أشياءه وأغراضه في تثاقل. في واقع الأمر هو لا يملك أي متاع أو ملابس سوى جَلابَة وبُلْغة صَفْراء وسُبَّاط واحد ودرَّاعة وسروال وعصاه القصيرة المصنوعة من خشب الأبنوس التي جلبت إليه من بلاد (تُكنة) أرض السود العراة. والمخطوطة التي ورثها عن أبيه وفي هوامشها كتابة أخبرك جدّك أنَّها بخط جدّك الكبير الذي جاء إلى هذه البلاد مهاجراً من (الأندلس). هذا هو كل ما لديه من أشياء. لكنه رغم ذلك يجتهد أن يبقي نفسه منشغلاً بجمعها وترتيبها ثم إعادة ترتيبها دونما أي سبب ظاهر. وفي النهاية ينهي جمع أغراضه ويحزمها. ثم يبدأ في حزم أشيائك وأغراضك ليأخذك إلى الزَّاوية. أنت أيضاً لم يكن لديك أي أغراض سوى جلابة وشَرْبِيل وسُبَّاط ومِشْط ومرآة مستديرة. هي كل متاعك في الحياة. وجدّك الحاج بالطبع فقد كان هو دميتك التي تلعبين بها ومعها كل صباح وكل ليلة قبل النوم. يستسلم لك ويعجبه لعبكِ به. آه نسيت. وعلبة دهن صغيرة أهدتك إياها فتاة بدوية غريبة قذف بها الطريق أمام داركم ذات يوم فمنحتكِ إياها مقابل لقمة تسد بها رمقها. تذكرين أنكِ أدخلتِها غرفتك واعتنيتِ بها وأطعمتِها وتنازلتِ لها عن فراشك تلك الليلة وجعلتِها تقضي الليلة معك في داركم وامتنعتِ عن أخذ تلك العلبة فقد تعودتِ من جدّك أن إطعام الطعام للضيف أو المسكين وابن السبيل بالثمن





عيب كبير، ولهذا فقد وضعتِ لها الطعام دون أن تأخذي من تلك الفتاة البدوية شيئاً بالمقابل، ولكنكِ حين فتحتِ عينيك في صباح اليوم التالي كانت تلك العلبة ماتزال على طاولتك، والبدوية قد ذهبت. وبقيت العلبة عزيزة على نفسكِ تحتفظين بها ولا تستخدمينها. وقد عزمتِ بينك وبين نفسك إن قابلتِ تلك الفتاة مرَّة أخرى أن تعيدي إليها علبة الدهن فلا شك أنَّها عزيزة عليها. وربما تكون انشغلتْ بأكل الطعام، وحين قامت نسيتها أو سقطت منها دون أن تدري، والفتيات لا يتخلين عن أدوات زينتهن هكذا وببساطة لشخص غريب يقابلنه لأول مرَّة. تنتبهين لصوت جدّك الموجوع وندائه الحزين فيخرجك من أحلام اليقظة.

– هيا . هيا يا بنيتي!

– ...!

تخرجان في تثاقل حاملين متاعيكما. جدّك يتقدمك وكأنَّه يساق إلى حبل المشنقة، وتتبعينه في ذهول، غير مصدقة ما يحدث. يستقبلكما «بُرْهَامِي» عند باب الزَّاوية. يهجم عليك متهللاً لتركبي فوق ظهره فيحملك إلى الداخل كما كان يفعل كل مرَّة حين كنت صغيرة. جدّك ينظر إليه في احتقار.

– مابْقاتش صْغِيوْرَة رَاهَا كْبيرة، شوية وُتصيرْ مَرَة! ما بقِيشْ تْركِّبْها.

– واخَّا بَّا الحاج!

يتخلى عنك «بُرْهَامِي» وكأنَّه كان يمسك جمرة. يتراجع للخلف واضعاً يديه خلف ظهره ناظراً إلى الأرض، ولا يجرؤ على النظر إلى وجه جدّك الغاضب. تقفان برهة عند باب الزَّاوية. جدّك لا يرغب في الدخول معك. يريد أن يبقى متماسكاً. تنظرين في عينيه المنكسرتين ووجهه الغاضب الحزين فتشاهدين كل هموم الدنيا وقد اجتمعت في ذلك الوجه، وهو يصارعها مثل غريق يبذل أقصى ما عنده قبل أن يبتلعه موج البحر. و«بُرْهَامِي» يقف بينكما صامتاً متحيراً. ينظر إليك تارة وإلى قدمى جدّك الحاج تارة أخرى، ثم يدرك أنَّه يوشك أن يكون شريكاً في جريمة كبيرة، جريمة التفريق بينك وبين جدّك الحاج.

«بُرْهَامِي» شاب طيب القلب، لكن ولاءه لسِيدِي «محمّد» هو فوق كل شيء. يتقدم نحوك. يأخذ صرة أغراضك من يديك ويدخل بها سور الزَّاوية وكأنَّه بهذا الصنيع يريد أن يهرب بسرعة من هذا الموقف العصيب. وحالما يختفي من ناظريك تفتحين ذراعيك وتغمضين عينيك. تحسين بدفء صدر جدّك الحاج يضمك بقوة. تحلقين في سماوات عالم آخر مليء بالسكينة والحب والطمأنينة، ولكن لبرهة قصيرة جداً، فحين تحسين دقات قلبه واختلاجة جسده تتخلين عنه وتفتحين عينيك، ثم تركضين بكل ما أوتيت من قوة داخل الزَّاوية ولا تلتفتين وراءك. حين تصلين إلى الغرفة التي أعدت لك تدخلين وتغلقين الباب وراءك، وتقفين مسندة ظهرك إليه، وصرة ثيابك ملقاة بين قدميك. تقفين هناك





مدة وكأنَّها سنوات طويلة. طيف حياتك القصيرة الماضية يتراقص بين عينيك، وذكرياته تتبارى وتتسابق، وجدّك الحاج هو بطل الحكايات فيها كلها.

تسمعين صوت «بُرْهَامِي» آتياً من بعيد. مختلطاً بأصوات الزوار والمريدين الذين يقصدون زاوية سِيدِي «محمّد». لم تلاحظي منذ أن كنت طفلة صغيرة وجود محظرة أوطلبة في هذه الزَّاوية لحفظ القرآن ولا معلمين، فقد أخبرك جدّك الحاج أن سِيدِي «محمّد» كان معلماً للقرآن في شبابه، ولكنه حين كبر اكتفى بالجلوس في زاويته يعالج المرضى بالرقية، وانفض عنه طلبة العلم ولم يبق معه إلا «بُرْهَامِي» وبعض السُّمَّار الذين يتجمعون في الزَّاوية كل ليلة يحتسون الشاي ويجترون الحكايات والمغامرات، أو الضيوف من الزوار والمريدين الذين يأتون من مكان بعيد ولا يجدون مأوى للمبيت غير زاوية سِيدِي «محمّد». الصبية الذين كان ينبغي أن يحفظوا القرآن في المحظرة عند الصغر نشأوا يلعبون في الساحات أو يعملون مع آبائهم بعيداً في الحقول أو يرعون الأغنام دون تعليم فلم يحفظوا القرآن ولم يتعلموا القراءة والكتابة مثل بقية الأولاد في القرى الأخرى المجاورة. جدّك الحاج كان يخاف عليك من كل شيء فلم يرسلك إلى أي مكان آخر خارج القرية لتتعلمي القرآن فبقيت معه تلازمينه مثل ظله. ربما خاف عليك من ذلك الوباء المنتشر الذي لا يفرق بين الكبير والصغير، أو البنت والولد، فلم يرسلك للمحظرة حتى لا تختلطي مع أولئك المرضى من الأطفال الذين كانوا يخرجون

إلى المحظرة صباحاً ثم لا يعودون إلى أهلهم مساء. وحين تخرجين للعب مع الصبية في الساحة يراقبك الفينة بعد الأخرى، وأحياناً يجلس عند طرف الساحة يمتع ناظريه بك وأنت تنطلقين مثل مهر جامح تشاكسين الأولاد وتركلينهم بقدميك الصغيرتين فيعجبه ذلك الصنيع.

الزَّاوية أصبحت سجناً مخيفاً الآن بعد أن كانت من أحب الأماكن إليك. تحسين بالوحدة والخوف من المجهول يملأ جوانحك ولا يترك لك مساحة للتفكير فتستجيبين لهواجسك وتنقادين لها. تلتقطين صرة الثياب من الأرض وتفتحين ذلك الباب الخشبي الثقيل بحذر شديد، وتخرجين ماشية على أصابع قدميك، ثم تغلقينه بهدوء حتى لا ينتبه أحد لصريره وهو يغلق. «بُرْهَامِي» كان قد وضع أمام باب غرفتك طبقاً مغطى تفوح منه رائحة الطعام الشهي ولكنك لا تأبهين. تنظرين حيث تركت جدّك الحاج. لكنه لم يعد واقفاً هناك فهو قد ذهب مع القافلة. و«بُرْهَامِي» منشغل باستقبال الزوار وإدخالهم إلى حجرة سِيدِي «محمّد». لقد بقيت وحدك الآن. تودين حينها لو أن هذا كله كان حلماً سخيفاً وأنك سوف تستيقظين بعده على لمسة يد جدّك الشفيقة توقظك لصلاة الفجر. لكن لا. فقد كنت مستيقظة وغارقة في التأملات، والوقت الآن هو بعد صلاة العصر. وجدّك لم يعد موجوداً.

ها أنت تغادرين دون تفكير. تعبرين فوق ذلك الطبق المغطى وتتسللين خارجة، وصرة الثياب والأغراض بين ذراعيك كأنَّها





مولودك الصغير. تنزلين منحدرة من ذلك التل الذي بنيت فوقه زاوية سِيدِي «محمّد». تعبرين ساحة اللعب في أسفل التل ولا تبالين بالصغار والأقران الذين تجمعوا للعب في تلك الساحة. تتجاوزين الدور. تخوضين مجرى الماء الصغير، وتنتبهين أنك حافية. تركضين شرقاً. تمرين عبر المقابر. تتجاوزينها. القرية أصبحت خلفك تماماً. السكون يخيم على المكان إلا من أصوات الغربان فوق الشجر، وصوت أقدامك الحافية فوق الرمال، وظلك ممتد أمامك طويلاً وكأنَّه ينافسك في السباق نحو الشرق. تستمرين في الركض. لهاث أنفاسك الحرَّى لا يهدأ ولا يتوقف، والبخار يخرج مع كل زفرة من أنفك وفمك. والنسيم البارد المتقطع القادم من البحر ينفخ خصلات شعرك التي تغطي وجهك تارة وتستريح فوق صدرك تارة أخرى وأنت تركضين. تتوقفين وتنظرين نحو القرية فلا ترينها. لقد اختفت خلفك وحالت التلال الرملية بينك وبينها. تعاودين الركض نحو الشرق فتركضين وتركضين. وتركضين نحو المجهول، أيتها الصغيرة المسكينة.

***

هناك في مكان بعيد إلى الشرق عند تلك الساقية المهجورة ساقية الشيطان في منطقة (شِبِيْش) إلى الجنوب الشرقي من (بُتْرِي الشرقية) أرى الفتاة «أُونَتِّي» التي هي في مثل سنك يا «صُلَيْحَة» تسترجع ذكريات طفولتها القديمة حين كانت في (سُوبَا) عاصمة دولة (عَلَوَة). قبل عشرة أعوام أو تزيد كانت الطفلة البريئة «أُونَتِّي»

تختبيء مع أمها في إحدى غرفات قصر أبيها الأمير «أُونْدِي». إنَّها تذكر جيداً كيف أيقظتها أمها في منتصف الليل واضعة يدها على فمها لتمنعها من الكلام. كانت تنظر فترى الرعب في عيني أمها وهما تهربان، فتدلفان بهدوء وحذر إلى تلك الغرفة السرية التي كان زوجها قد تولى بناءها بنفسه تحت الأرض، فلم يعلم بها البناءون الذين شيدوا ذلك القصر المنيف. بقيتا هناك يومين كاملين وليلتين تسمعان وقع أقدام الجنود فوق رأسيهما وهم يتجولون في القصر. كان واضحاً أنَّهم يبحثون عنهما. كانت تسمع أصواتهم وهم يحطمون الأثاث ويعبثون في القصر. لكنها لم تكن تعلم لماذا يفعلون هذا ولماذا تختبئان منهم في هذا المكان المظلم. «أُونَتِّي» كانت قد بلغت الخامسة عندما وقعت تلك الأحداث. كانت تهمس لأمها تسألها عن هذا الذي يجري لكنها لا تسمع جواباً. وكلما همت بالكلام لتسأل أمها كانت الأم تضع أصبعها على شفتيها تأمرها بالصمت. وحين كانت ترغب في الخروج كانت نظرات أمها الخائفة تقول لها إن الخروج في هذا الوقت يعني الموت بأسلحة الجنود. نظرات أمها منعتها من التفكير في الكلام أوالبكاء. وحين طال الانتظار حدثتها همساً بأن كل شيء سينتهي بسرعة لكنها لم تكن تعلم ما هو هذا الشيء الذي سينتهي بسرعة. وأمها لم تكن ترغب في المزيد من الكلام والشرح في ذلك الوقت فبقيتا تنتظران. قضت مع أمها يومين كاملين وليلتين من ليالي الرعب في تلك الغرفة المظلمة بلا طعام ولا شراب. الغرفة كانت ضيقة وخانقة ولا منفذ للهواء إلا كوة





صغيرة تؤدي إلى سرداب طويل مظلم تحت القصر. لكن الأم حين خافت على طفلتها أن تموت من الجوع والعطش غامرت في الليل بفتح الكُوَّة وبدأت تحبو في ذلك السرداب المظلم حتى بلغت نهايته وكانت «أُونَتِّي» التي أنهكها الجوع والعطش تحبو بحذر وراءها. كان السرداب يؤدي إلى منفذ خارج القصر بل خارج أسوار المدينة إلى الجهة الغربية حيث النيل. وحين خرجت في ذلك الوقت المتأخر من الليل روت عطشها وسقت ابنتها ثم توجهتا جنوباً مع الضفة وهناك عند منحنى النيل توقفتا. حين غادرت أمها ذلك القصر كانت بلا طعام ولا ملابس وكانت ذاهلة عما حولها. ولا تعرف إلى أين تتوجه. وفي الطريق وجدت معزة ترعى عند ضفة النيل فباغتتها وأمسكتها ثم جعلت «أُونَتِّي» ترضع من ضرعها، وبعد أن شبعت بركت الأم تحت تلك المعزة وبدأت ترضع كما يرضع السخل الصغير من ضرع أمه. كانت الطفلة تراقب دموع أمها تسيل على خديها حين كانت ترضع من تلك المعزة ولم تكن تبكي بصوت. كانت تلك دموع الإحساس بالقهر لكنها لم تكن دموع البكاء على الفجيعة. الأم كتمت ألم الفجيعة على زوجها في حشايا قلبها وحنايا فؤادها ولم تصرح بها لابنتها.

الطفلة الصغيرة رأت الرعب الذي في عيني أمها يتحول فجأة إلى إصرار وتصميم على البقاء على قيد الحياة. تلك الأم التي كانت ممتلئة حياة وفرحاً تحولت فجأة إلى نمرة شرسة ممتلئة بالوحشية والتوجس والحذر. تعيش على الطوى والجوع وتلتحف الخوف

وتصادق الوحدة القاتلة إلا من طفلتها البريئة. بقيت تعاني حزن الأم وحدها. تبيت في العراء. وتوقظها أصوات الحيوانات المتوحشة كلما همت بالهجوع أوغلبها سلطان الكرى. ولم تعد لسعات النمل والبعوض تعني شيئاً بالنسبة للطفلة «أُونَتِّي» فقد اعتادت عليها. عاشت حياة مفروضة عليها. لم تذهب إليها باختيارها. وجدت نفسها ضحية لأحداث لم تكن طرفاً ولا سبباً فيها. الذين قتلوا والدها الأمير «أُونْدِي» جنوا على طفولتها وبراءتها وأحلامها.







الركض في البَرِّيَّة

مالت الشمس نحو المغيب يا «صُلَيْحَة» وأنت مازلت تركضين. أنفاسك تتوسل إليك أن تستريحي قليلاً وقلبك يوشك على الانفجار لكنه رغم ذلك يقول لك لا تتوقفي لأنَّهم لو انتبهوا إليك مبكراً فسوف يلحقون بك ويعيدونك إلى زاوية سِيدِي «محمّد» مرَّة أخرى. تستمرين في الركض قبل أن يدركك الليل. لا تنشغلين بالتفكير فيما يكون بعد غروب الشمس. تظنين أنك بعد قليل سوف تدركين قافلة جدّك، أو أي قافلة متجهة شرقاً. لا يهم. المهم هو أن تكوني مع جدّك الحاج. قدماك تحترقان من الركض حافيتين فوق الرمال ومعفرتين بالطين والتراب. تنظرين إليهما غير مبالية وتستمرين في الركض. تفاجئين بعض طيور القطا رابضة على الأرض فتنزعج وتفر منك فزعة في احتجاج. تتجاهلينها وتواصلين طريقك. أشجار شوكية متناثرة. وتلال صغيرة. ثعلب يقف أعلى التلة وأذناه متجهتان نحوك. لعله سمع وقع أقدامك.

ظلال طويلة ممتدة من الأشجار حولك. تتعثرين فتسقطين لكنك تنهضين بسرعة وتقفين شامخة في عزم وإصرار. تمشين هذه المرَّة بدلاً من الركض. قدماك تؤلمانك فتبحثين عن السُّبَّاط الملفوف داخل الثياب في تلك الصُّرة وتلقين به على الأرض

وتضعين قدميك الصغيرتين فيه. تعثرين على طريق ترابي نحتته أقدام الرواحل والإبل. تتبعينه شرقاً. الشمس توارت خلف الأفق الغربي وراءك والضوء أمسى خافتاً. أنت لا تخشين الظلام لكنك لم تعتادي أن تكوني وحدك خارج القرية فهذه أول مرَّة. لكن القمر مستدير هناك في الأفق وبعد قليل يصير بدراً فتتمكنين من الرؤية وتواصلين السير. تسمعين أمعاءك تكركر فتتذكرين أنك لم تأكلي أي طعام منذ الأمس، ولم تشربي ماء أيضاً ولم تتناولي كوب الحليب في المساء من يد جدّك ، ولم تنامي وهو يحكي لك الحكايات وأنامله تداعب خصلات شعرك. المغامرة التي تخوضينها وهذا الهروب الكبير جعلك تنسين الجوع والعطش والتعب. لكنك تلمحين في الأفق بعض أشجار التين الشوكي متناثرة هنا وهناك. جدّك الحاج كان قد جلب لك البعض منها مرَّة ولذا فإنك تذكرينها وتذكرين أنَّه كان يزيل قشرتها المليئة بالأشواك قبل أن يقطعها لك. ثمرة التين الشوكي لذيذة وحلوة ولابد أن هذا هو موسم نضجها فأشجار الصبار مغطاة بالثمار الناضجة. لكنها مكسوة بالأشواك. وخزاتها أدمت يديك الناعمتين لكن عضة الجوع كانت أقوى. تأخذين واحدة فتأكلينها وتشربين عصارتها. تعتبرين أن الحصول على ثمرة التين هو انتصار كبير ودفعة معنوية زادتك حماساً للمضي قدماً. الصبار نبتة جميلة خضراء ومليئة بالعصارة الحلوة في قلب الصحراء الجافة. هي مثل مقاتل شرس لا يستسلم بسهولة. فهي لن تمنحك عصارتها إلا إذا غَرَسَتْ في يديك سهام الشوك وخضبت يديك





بحناء الدم. لكنك أنت أيضاً مقاتلة شرسة لا تعرف الخوف ولا الاستسلام. تحسين بنشوة الظفر وأنت تأكلين الثمرة ثم تواصلين السير السريع لكن بحذر. القمر صار كرة مستديرة بيضاء متربعة في السماء والرؤية باتت ممكنة إلا من بعض السحب التي تعبر تحت القمر فتحجبه قليلاً، لكنه سرعان ما ينزع الغطاء مسفراً عن وجهه الضاحك المنير.

وَطُّ الخفافيش ورفيف أجنحتها فوق رأسك يقطع الصمت بين الآونة والأخرى، لكنه يحثك على المضي قدماً. ونسمة باردة من جهة الغرب تهب فتكشف لك أن العَرَق يغطي رقبتك وظهرك الصغير وساقيك البضتين. لابد أنك بقيت تركضين وقتاً طويلاً. فالقمر الذي كان خلفك أول الليل قد تحول من جهة الغرب وتجلى ظاهراً أمامك مباشرة وكأنَّه يَدُلُّكِ على الطريق إلى الشرق. يداك تؤلمانك وتكتشفين أنَّهما قد انتفختا حين قطفت ثمرة التين ومازالت بعض الأشواك الدقيقة باقية ومغروسة فيهما. وشفتاك يابستان كأنَّهما منحوتتان من حجر وتبحثين عن ريقك فلا تعثرين له على أثر وبدلاً منه تسمعين قرقعة في حلقك. لابد أن التين الشوكي يصيب من يأكله بالعطش. لكنك تعلمين أنك أكلته منذ ساعات طويلة. تسمعين دقات قلبك وأنت تسيرين. وأصوات أقدامك تدق في طبلة أذنيك مع كل خطوة تخطينها. ماهذا؟ ما الذي حدث؟هل أنت على الأرض الآن؟ فعلاً أنت ممددة على بطنك ووجهك معفَّر بالتراب. لقد وقعت على وجهك فجأة ولم تنتبهي إلا وأنت

على الأرض. فمك مليء بالرمل. تبتسمين وتنهضين معتمدة على يديك. تلفظين الرمل من فمك وتمسحين أسنانك المعفرة بظاهر كفك ثم تنفضين التراب من وجهك وشعرك وصدرك وثوبك. تلتقطين الصرة من على الأرض وتفحصينها لتتأكدي أنَّها مازالت مربوطة.

تواصلين السير ولكن هذه المرَّة في تعثر. رأسك يؤلمك كثيراً والدم يجري في عروقك فتسمعين خريره. أنفاسك تعلو وتهبط وكأنَّها تذبح صدرك من الداخل، ورجلاك ما عادتا تقويان على حملك، ولكنك لا تستسلمين. أصوات نباح الكلاب تأتي من بعيد فتجاوبها أصوات كلاب أخرى. وهناك شيء يراقبك ويتبعك من خلفك. ربما كان ثعلباً أو ذئباً. لم تعلمي ما هو لأنَّه كان يتوارى خلف الشجيرات، ثم يسرع إلى شجيرات أخرى. وفي مرَّة نظرت فرأيت بريق عينيه في ضوء القمر من بعيد، ثم حجبتهما عنك الأدغال. لكنك لا تأبهين ولا تفزعين. وتستمرين في المشي المتعثر شرقاً ولا تستسلمين. تنظرين إلى القمر أمامك عالياً وتبتسمين.

هاهو وجه جدّك في ذلك القمر بلحيته البيضاء ووجهه الضاحك ينظر إليك مبتسماً. لم يتخل عنك لكنه صعد إلى القمر ليراقبك وأنت تلحقين به. أنَّه ينتظرك هناك. ترغبين في الحديث إليه بعزم وإصرار لتخبريه بأنك سوف تلحقين به حتى لو صعد إلى القمر، لكن شفتيك لا تطاوعانك، فهما لا تستطيعان الكلام، ولسانك يأبى أن يتحرك. تتخلين عن صرة الثياب وتمدين يديك





إلى الأعلى نحو جدّك . تسيرين قليلاً. جدّك الحاج يفتح ذراعيه إليك. تجتهدين في الجري لتلقي بنفسك بين تلكما الذراعين هناك، فوق في ذلك القمر. تحركين قدماً نحوه. وأخرى. خطوة. وخطوة أخرى متعثرة. ترفعين قدماً لتقتربي منه. أوشكت. أوششـ.. أووووو. القمر يتراقص أمامك كأنَّه يريد أن يختبيء عنك حتى لا يراك جدّك بهذا المنظر، والأرض تحت قدميك تتحرك وتدور. ثم تسقطين. ولا أثر لجدّك في وجه القمر.

تحاولين النهوض ولكنك لا تستطيعين. جسمك لا يطاوعك ولا تحسين بقدميك ولا حتى يديك، وظهرك يؤلمك ألماً شديداً. ورأسك ثقيل وكأن صخرة وضعت فوقه. تبقين حيث أنت ممددة فوق الأرض. والوقت يمضي. شيء ما يقترب منك. وتفتحين عينيك فترين عينيه قريبتين من عينيك جداً، تنظران إليك. أنفاسه الحارة تنفخ وجهك الصغير. رائحة فمه كريهة جداً. يلمس خدك بأنفه البارد. ويسيل لعابه من لسانه فوق وجهك. تفتحين عينيك وتنظرين. ترين أنيابه الصفراء الطويلة. ولكنك لا تخشينها ولا تخافين منها. تبتسمين في تحدٍ. وقبل أن تغلقي عينيك مرَّة أخرى ترينه يقفز بعيداً عنك، ثم ينطلق مبتعداً مذعوراً، وأصوات كلاب تلاحقه، ثم وقع أقدام بشرية تقترب منك مسرعة. وأضواء مشاعل ولَغَطٌ حولك. تتنهدين في ارتياح وتنظرين إلى القمر هناك فلعل جدّك مازال باقياً ينظر إليك. نعم أنَّه هناك بابتسامته الأبوية ويديه المشرعتين ووجهه المنير مثل القمر. وتغمضين عينيك. ويسود الظلام.

جدّك الحاج يخرج مع القافلة منتصف النهار. انفطر قلبه عليك وحزن لفراقك. شمعة الأمل في قلبه الكسير احترقت لكنها مازالت تخفق ولم تنطفيء. جدّك صلب العود لكن سِيدِي «محمّد» وحده يعرف مصدر وجعه. أنت نقطة ضعفه الوحيدة فهو لا يقدر على فراقك. ولو قدر له أن يخرج من هذه المعركة ظافراً فلن يخشى شيئاً بعد ذلك. لم يصدق حتى الآن كيف استطاع أن يتجاوز هذا الموقف. غادر القرية دون أن يصحبك معه. لا يعرف كيف قطع الطريق إلى حيث القافلة في طرف القرية الشمالي. وحين وصلها وصل جسداً بلا روح فروحه كانت معك. استودعك إياها حين كنت في زاوية سِيدِي «محمّد». توقف تفكيره في ذلك اليوم فكأن عقله سقط في بئر مظلم عميق لا قرار له ولا نهاية. تحركت القافلة وتحرك جسده معها لكنه متأكد أن روحه بقيت في تلك القرية. وهو لا يخالجه شك أيضاً أن قلبه انفطر شطرين وأنَّه لن يصل وجهته ولن يبلغ غايته وأنتما لستما معاً.

سمع لغطاً كثيراً من حوله، وأناس تكلموا معه وحاوروه. لم يفقه كلمة واحدة مما كانوا يقولون. رأى وجوهاً كثيرة لكنه لم يتعرف إلى أي منها. حادي القافلة أَذَّنَ لصلاة العشاء والمسافرون تجمعوا للصلاة. صلى معهم ولم يخشع في تلك الصلاة، ثم صلى النافلة وبقي في مصلاه يتضرع إلى الله. لكنك كنت ماثلة بين عينيه وهو يرفعهما ناظراً إلى السماء. لم تكن السماء عاطلة عن النجوم في



تلك الليلة، لكن جميع النجوم لم تبد زينة لها مثلما اعتاد أن يراها كل ليلة حين تكونان معاً راقدين تراقبان السماء وتتسابقان في عد النجوم فتنافسين جدّك . تبدأين العد وتخطئين قبل أن تصلي إلى العدد عشرين فتضحكين وتمسحين قبة السماء بيدك وكأنك تمسحين تلك النجوم أو تمنعينها من الظهور حتى لا يختلط عليك العد ثم تعيدين الكَرَّة مرَّة أخرى ولا تسمحين لجدّك أن يبدأ العد قبلك أو يسبقك. تلك النجوم كانت حاضرة كل ليلة لا تتخلف وكأنَّها جنود تنتظم بين يديكما لتقديم الطاعة وانتظار الأوامر. لكن جدّك الليلة ينظر إلى أعلى فتتمثل له أعيناً في السماء تراقب حزنه في صمت، فهي لا تقدر أن تفعل أكثر مما فعلت هذه الليلة، فقد وفرت له السكون لينعم بهدوء الليل عَلَّهُ يشفي عِلَّتَهُ.

جدّك كان قوياً في شبابه، وكان صلباً مثل هذه الجبال الممتدة غرب القرية. وكان عنيداً لا يستسلم للهزائم ولا تفت من عزمه جميع المصائب. لكنه الليلة يحس أن كل ذلك قد تبدل فهو ضعيف خائر العزم واهن القوى. ورغم أنَّه تمنى رحلة الحج طول عمره الذي جاوز السبعين وحلم بها مثلما يحلم أي شيخ في سنه، إلا أنَّها حين تحققت أخيراً كانت مثل كابوس جثم على صدره في ليلة صيفية حارة. أصبح يريد أن يذهب في أسرع رحلة للحج ويعود، دون أن يمكث هناك، فقط ليتمكن من العودة للبقاء معك، ويمضي بقية عمره وأنت في كنفه وتحت رعايته. أحلامه في التمتع

بزيارة المسجد النبوي والبقاء جوار قبر النبي وزيارته والسلام عليه كل يوم تبددت. لا بد أن يعود فور انقضاء الحج رغم أن قلبه كان يتقطع شوقاً لرؤية القبر والصلاة في المسجد النبوي.

نبهته أصوات المسافرين معه وأعينهم الفزعة إلى أن شيئاً يحدث عنده. انتبه إلى أنَّه اقترب كثيراً من النار التي أوقدها ليصنع الشاي ثم نسيها وغفل عنها. النار التهمت قطعة من ثوبه. ورائحة الدخان المتصاعد من الملابس المحترقة نبهتهم ففزعوا إليه. الشاب «عبد السميع» دلق دلواً من الماء على النار فأطفأها فتبللت ثياب جدّك . «عبد السميع» كان أول من تعرف على جدّك في القافلة وحاول أن يعقد صداقة معه لكن جدّك كان ذاهلاً عمن حوله وما حوله. حركة «عبد السميع» ومبادرته لإطفاء النار المشتعلة نبهت جدّك إليه فصافحه وشكره. جدّك لاحظ أن الشاب بادله المصافحة في ابتسامة خجولة لكنه تمتم بأنَّه أدى واجبه، ثم خاطب جدّك في لطف أنَّه يسره أن يخدمه ويصنع له الشاي والقهوة وكل ما يريد، بشرط ألَّا يقترب من النار.

كان «عبد السميع» شاباً في الخامسة عشر، وممتلئاً حيوية ونشاطاً وهو يخدم القافلة. لمح الحزن قناعاً على وجه جدّك لكنه قرأ الصلاح مكتوباً فوق جبينه، فأيقن أن لجدّك قصة يخفيها عن النّاس. جدّك ليس ماهراً في إخفاء مشاعره لكنه يتمتع بقلب محب وروح شفافة. كان هناك شيء يشده لجدّك فلم يقاوم، ومضى وتعرف عليه وبقي بجواره. «عبد السميع» هو مثلك يتيم الأبوين، قضى طفولته





يتخبط ذات اليمين وذات الشمال، ولم يجد ذراعاً حانية تضمه، أو صدراً دافئاً يشعره بحنان الأب ومحبة الأم. اليتم مصيبة لكنه يصنع في معظم الأحوال من الأيتام رجالاً وأبطالاً في الحياة، فاليتيم يعتمد على نفسه منذ الصغر ويقوى عوده بسبب الحرمان. قافلة الحج جمعت شتى أصناف البشر. ففيها التجار والفقراء المعدمون، وفيها الشيوخ وحفاظ القرآن، لكن فيها أيضاً من أمضى عمره كله في اللهو والمعاصي، ثم قرر التوبة وأراد أن يختم أعماله بالحج والأوبة إلى الله. وفيها النساء والصبيان، وفيها مهاجرون ذاقوا قسوة أوطانهم وشح عطاء بلدانهم فقرروا النزوح إلى بلاد أخرى أكثر خيراً وأمناً وعطاء.

«عبد السميع» هو أحد الذين فقدوا الأب والأم في الوباء الذي ضرب بلاد المغرب، ولم يبق له قريب ولا أهل، فقرر النزوح إلى بلاد (النوبة) (المَحَسْ) أو (العَنَج) حيث الخير الوفير والمال الكثير، ليبدأ حياة جديدة بعيدة عن الأوبئة والحروب. حدثه من سافر إلى تلك البلاد أن من يذهب عبرها إلى الحج لابد أن يعود إليها فيستقر فيها، فهي بلاد واسعة خضراء ممتدة، تشقها الأنهار وتجري في أوديتها المياه، وينبت الزرع في أرضها وحشياً بلا مزارعين، وتمتلىء باديتها بالصيد الوفير واللحم الكثير، وأن من شرب من أنهارها لابد أن يعود إليها يوماً ما. يحلم «عبد السميع» ببلاد مثل الجنة تعوضه نار الحرمان وبلاد البؤس والشقاء بعد فقد والديه، وكان يسمع أن النيل هو من أنهار الجنة، فلما علم بأمر القافلة قرر أن يجمع بين الحج

والهجرة، فالحج عبادة والهجرة حياة جديدة. كما أنَّه كان مشتاقاً أن يرى ذلك النيل ويشرب من مائه. و«عبد السميع» مازال في مقتبل العمر وميعة الصبا والشباب. يملؤه الطموح ويفيض عقله بالأحلام والأماني الجميلة. ظل يجلس إلى جدّك كلما حطت القافلة رحالها لتستريح. لا يمل من النظر إليه، ولا يشبع من الكلام معه، ولا يتعب من خدمته، لكن جدّك ظل ذاهلاً عنه منكفئاً على نفسه، لا يفيق من غمرات التفكير إلا حين ينادى للصلاة أو للطعام، أو حين يؤذن مؤذن القافلة بالرحيل ومواصلة السير. كان في معظم الأوقات يمسك بتلك المخطوطة يقرأ منها أو يضعها على صدره حين ينام، ويستيقظ وهي على صدره لا تسقط حتى وهو نائم. وإذا عبثت بها الريح وضع يده فوقها ليمنع الريح من الاعتداء عليها. وكان «عبد السميع» يعرف حب جدّك لتلك المخطوطة، فبقي رقيباً عليها، رغم أنَّه لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وكان يتمنى لو يستطيع أن يقرأ منها مثلما كان جدّك يقرأ.

***





استراحة الهارية

هل ترين جدّك الحاج؟ كان هناك يركب راحلته البيضاء وهي تطير به في الهواء وقد أردفك خلفه على السرج، وأنت تمسكين بثيابه من الخلف، والهواء يلعب بشعرك أنى شاء. البيوت من أسفل منكم تبدو بعيدة ومتناثرة، والنّاس خارجها صغار مثل النمل. جدّك يخبرك أنكما ذاهبان لمقابلة أبيك وأمك في الجنة. وتتعجبين فتسألينه هل هذه الراحلة تستطيع الطيران إلى الجنة؟ فيقول لك نعم أليست الجنة هناك في المشرق حيث الكعبة والمسجد الحرام؟ فتصمتين ولا تجيبين، وتسندين رأسك إلى ظهره وتغمضين عينيك، فأنت تثقين في كلام جدّك فلا بد أنَّه يقول الحقيقة دائماً.. لكن جدّك الحاج يسرع فوق ناقته البيضاء مبتعداً عنك. وتجدين أنك واقفة في الهواء ولا تسقطين على الأرض، وأن لك أجنحة تطيرين بها، لكن أحد جناحيك مكسور. تحاولين الطيران بسرعة لتلحقي بجدّك هناك في الأفق البعيد أو تسبقينه. تحلقين بجناح واحد عالياً في الفضاء. وتعجبين كيف يمكنني أن أطير بجناح واحد بينما الطيور إلى جانبي تحلق بجناحين. لكنك لا تشغلين عقلك بالتفكير في مثل هذه الأمور. ها هي الشمس مضيئة في الأفق. لكنك حين تنظرين ناحيتها تسقطين. وقبل أن تصلي إلى الأرض يجبرك ضوء الصباح

أن تنتبهي. تفتحين عينيك الجميلتين على عيون كثيرة تنظر إليك، ووجوه غريبة عنك لا تعرفينها. وتجدين أنك ممددة فوق فراش، ومغطاة بلحاف من الصوف، ونسوة كثيرات قد تحلقن حولك. فيرتفع صوتك المتقطع وفي دهشة تسألين:

- وصلنا الحج؟ وصلنا الكعبة؟ جدي الحاج فين غادي؟ وينك رايح؟

بعض النسوة حولك يضعن أيديهن على أفواههن يحاولن أن يكتمن الضحك بينما انفجرت أخريات في ضحكات غير مكتومة. الجميع يظن أن هذا من هذيان الحمى فقد كنت تتكلمين بكلام غير مفهوم وتنادين جدّك وتتكلمين عن الطيور والجنة والحج قبل أن تستيقظي. تحاولين أن تنهضي لكنك تصرخين من الألم فتعودين حيث كنت. كل عضو في جسدك الصغير يؤلمك. وامرأة تحنو عليك فتضمك إلى صدرها، ثم تعيدك إلى الفراش، وأخرى تأتي من خلفك فتجلسك وتسندك إلى صدرها وتصب في فمك شيئاً يشبه الحساء. تتذوقينه في تردد ثم تزدردينه في نهم فقد كان دافئاً ولذيذاً. لابد أنك بقيت وقتاً طويلاً بلا أكل ولا شرب.

الخبر ينتشر بأنك استيقظت، فتزدحم الخيمة بالفضوليين من الأطفال والفضوليات من النساء. الكل يريد أن يرى تلك الصبية الصغيرة التي وجدوها منكفئة على وجهها طريحة في قارعة الطريق أمس فجراً، وانتزعوها من فم الذئب في آخر لحظة، فقد كان يوشك أن ينهشها. والنّاس يتحدثون أنَّهم سمعوا نباح الكلاب قبل صلاة





الفجر أمس، فالنباح كان مستمراً، ولم تكن الكلاب تجاوب بعضها بعضاً، بل كانت جميعها تنبح ولا تتوقف عن النباح فعلموا أن هناك ذئباً على مقربة، فخرجوا ليطردوه حين ظنوا أنَّه يريد الإعتداء على أغنامهم. الكلاب بارعة في شم رائحة الذئاب ومحاصرتها وطردها. بعض الشباب أخذوا المصابيح والمشاعل وتبعوا الكلاب التي انطلقت غرباً. وحين خرجوا من محيط "لَفْرِيگْ"سرعان ما رأوك ملقاة على الأرض والذئب يحوم حولك، والكلاب أزعجت الذئب فانطلق هارباً. وحملوك إلى الخيمة. لابد أنك نمت يوماً كاملاً فقد بقيت ممددة على الفراش بلا حراك. صرة الثياب التي وجدوها ملقاة إلى جوارك في ذلك المكان خارج القرية كانت تقول إنك وحدك، وأنك هاربة من مكان ما. الشاب «حسن» الذي كان أول من رآك صباح ذلك اليوم أحضر صرة ثيابك التي احتفظ بها عنده منذ عثر عليك فجر أمس فوضعها بجوارك، وابتسم إليك في حنان ظاهر ثم مضى، فتلك الخيمة مخصصة للنساء، وغير مسموح بتواجد الذكور إلا بعض الصبيان أو الأطفال الصغار. النسوة كن مبتهجات لأنك استيقظت وشربت الحساء ولابد أنك تعافيت قليلاً فأمطرنك بالأسئلة. لكنك تلوذين بالصمت، وفتاة أكبر منك سناً ينادونها «ديمي» جاءت بإناء فيه ماء دافيء وآخر فيه دهن، وجردتك من ثيابك تحت ذلك اللحاف، ثم مسحت جسدك بقطعة قماش مبلولة بالماء الدافيء، وجففتك بفوطة ومسحت جسمك. لم تنتظري حتى تستكمل مسحك بذلك الدهن فقد استغرقتِ في نوم

عميق. لكنك سرعان ما تستيقظين على أصوات النسوة من حولك وصخبهن فتفتحين عينيك، وتكتشفين أنك مازلت باقية في لحافك وأنك كنت مستغرقة في النوم.

الحي كله مبتهج وفرح بك خاصة الأطفال، والنسوة اللاتي بقين معك يحاولن التعرف عليك، من أنت ومن أين أتيت وما هي أسباب سيرك وحدك. تردين على أسئلتهن باقتضاب، وتتجنبين ذكر قرية سِيدِي «محمّد» التي أتيت منها فتذكرين قرية أخرى بعيدة سمعت الرجال يذكرونها في المجلس حين كانوا يسمرون في زاوية سِيدِي «محمّد»، وهي قرية تقع إلى الجنوب على الحدود مع القبائل السمراء. الفتاة التي ضمتك إلى صدرها فجر اليوم يبدو أنَّها بقيت معك، ولازمتك أمس طوال النهار، ولم تذهب إلى بيتها، فحين استيقظت أحسست بصدرها العطوف يضمك مرَّة أخرى. تلتفتين ناحيتها في امتنان وعرفان، وهي جالسة خلفك عند رأسك. ياوييلي.!! إنَّها هي. نعم هي بوجهها الحزين وجسمها النحيف وجمالها الأخاذ. إنَّها تلك الفتاة البدوية التي تركت لك علبة الدهن. تعرفينها على الفور ويقفز قلبك إلى حلقك من الدهشة والفرحة تسري في جسدك مثل تيارات في بركة ساكنة ألقي فيها بحجر. لكنها لم تتعرف عليك فهي لم تتوقع أن تكوني هنا. وأنت أيضاً لم تتوقعي أن تجديها في هذا المكان النائي.

تبحثين عن الكلام فلا تجدينه. نظرات الامتنان تجعلها تنتبه إليك في دهشة دون أن تفهم مغزاها. وبلا تفكير تشيرين بيدك إلى صرة





الملابس. يجلبونها إليك. تحلين الرباط. تمتد يدك لتبحث داخلها ثم تخرجين علبة الدهن وتضعينها في يدها. الفتاة تنهض واقفة فاغرة فمها من الدهشة وتشهق عالياً وهي تنظر في وجهك البريء. الجميع يلتفت ناحيتها في فضول ينظرون وينتظرون ما سيحدث بعد ذلك. لكنها سرعان ما تتمالك نفسها وتهمس إليك في أذنك بأنَّها ستكلمك حين تكونان على انفراد، وتخرج من الغرفة وسط نظرات النساء إليها تارة، وإليك تارة أخرى. تعتدلين في جلستك غير مصدِّقة ما يحدث. يتجمعن حولك يسألنك هل تعرفينها من قبل؟ فلا تجيبين وتكتفين بالصمت. لكن تنثال السؤالات بداخلك على عقلك الحائر وروحك المتوثبة. هل تعرفت أرواحنا على بعضها بعيداً عن الأجساد وأبت إلا أن تلتقي؟ ما الذي حملك إلى هذا الحي البدوي في أطراف الصحراء بعد كل هذه المدة، وما الذي وضع هذه الفتاة في طريقك، وأنت التي ظننت أنك فقدتها إلى الأبد. هل هو تَوْقُكِ لإعادة علبة الدهن إليها؟ أم أنكما تشاطرتما معاً لحظة تعاطفٍ امتزجت فيها روحاكما، واتفقتا أن تلتقيا مراراً وتكراراً؟ وكيف أنك أنقذت حياتها بلقمة، وأنَّها بقيت معك لتسهم في إنقاذ روحك حين وجدوك على قارعة الطريق؟ أهو نوع من المكافأة بين الأرواح لا دخل للأجساد فيه؟ لو أن لقاء الأرواح يتبعه لقاء الأجساد فسوف تلاقين جدّك الحاج حتماً، فهو معك لا يفارق خيالك لحظة. لقد رأيت وجهه في القمر حين كنت تسيرين ليلة أمس.

تفكرين أن ترتاحي قليلاً يوماً أو يومين قبل أن تواصلي رحلتك نحو المشرق. أنت تحتاجين الراحة. والفتاة البدوية تأتي وتبقى معك وتلازمك. تفلي رأسك وتمشط شعرك، وتلتحف معك ذاك اللحاف فتدثرك به وتدفئك من شتاء الصحراء. وتؤانسك. لكنَّك لا تسألينها عن اسمها وهي لا تخبرك. ولا تسألك عن اسمك ولكنَّك حين تدركين ذلك تخبرينها فتخبرك باسمها: «حَسِينَة».

تتقارب روحاكما وتُحِسِّينَ بأنَّك كسبت أختاً كبيرة أو أماً بديلة، فأنت لم تعرفي حنان الأم في حياتك ولم تتذوقي طعمه. قضيت عمرك القصير كله في البحث عن مثل هذا الإحساس، وحين وجدْتِهِ أخيراً وجدْتِهِ مع فتاة بدوية غريبة عنك. لكنك تحبِّينها، وتتحادثان طويلاً في تلك الخيمة. تصادقينها. تخبرينها عنك وعن جدّك الحاج، وعن سِيدِي «محمّد» و«بُرْهَامِي»، وعن هروبك الكبير من تلك القرية، وأنك في طريقك لتلحقي بجدّك الحاج. هو روحك التي تسري في جسدك. لن تتخلي عنه. تخبرك أنَّهم سوف يلحقون بك ويدركونك فيعيدونك، وأنَّهم حتماً لن يتركوك لأن جدّك استودعك أمانة لدى سِيدِي «محمّد».

تخبرينها أنك لن تعودي معهم ولو قطعوك قطعة قطعة. أنت عازمة على السير شرقاً. تخبرك أن هناك طرقاً كثيرة للحج، وأنك اخترت الطريق الأقصر لكنه الأصعب فهو طريق الهلاك. ولا يصلح للصغيرات أمثالك. بل لا يصلح حتى للرجال الأشداء الأقوياء. وربما لا يكون جدّك قد سار من هذا الطريق، فالحجاج





عادة لا يسلكونه كثيراً إلا من أراد أن يبقى في بلاد (عَلَوَة) قليلاً قبل الحج أو يتخذ زوجة في الطريق إلى (مكة)، فكثير من المسافرين في رحلة الحج يفعلونها. وربما توجه جدّك شمالاً سالكاً طريق البحر فهو الطريق الأسهل، خاصة أنَّه قد كبر في السن، ولا يبتغي أن يتخذ زوجة في بلاد (عَلَوَة). كلامها يصيبك بالإحباط والحزن، لكنك تحسين أنَّها قالت الحقيقة، وأنَّها حريصة عليك. لكنك لا تستسلمين. فقلبك يقول لك إن جدّك سار من هذا الطريق، وفي هذا الطريق سوف تسيرين. تعدك بأن تساعدك لتلحقي بجدّك لكن بعد أن تستعيدي قوتك ونشاطك، وتتمكنين من الاستعداد للرحلة. وربما تجد لك قافلة ترافقينها وتسيرين معها. القوافل لا تأتي من هذا الطريق عادة إلا من بعض قوافل الملح التي تأتي من الشمال عبر صحراء (أزواد) المقفرة، قبل أن تنحدر شرقاً إلى مدينة (تِيمْبُكْتُو) التي ينطلق منها الحجاج شرقاً قاصدين بيت الله في رحلة العمر. لكنك مليئة بالأمل والتفاؤل. تشع عيناك فرحة حين تعدك بأنَّها ستبذل كل شيء لتجعلك تلحقين بجدّك الحاج.

تتركك وتخرج ثم تعود مبتهجة، فقد سمح لها شيخ "لَفْرِيگ" بأن تأخذك عندها لتعتني بك. لأول مرَّة ترينها مبتهجة فقد اعتدت على رؤية وجهها الحزين منذ أن فتحت عينيك فرأيتها أول مرَّة. تتساءلين عن أسباب حزنها لكنك لا تجرؤين على السؤال مباشرة. من يدري فالأيام كفيلة بالإجابة. تتبعينها في حياء، وهي تحمل صرة أغراضك. وتغادرين الخيمة. ولكن ياللعجب. لا توجد

أي دار في الخارج. ولا "حيوط" أو جدران. نحن في البَرِّيَّة وسط الصحراء. والمكان مكتظ بالإبل والرواحل والأغنام وبعض خيام قليلة منصوبة متناثرة، وبعضها نصف منصوب، وأخرى مكدسة على الأرض أكواماً. وشباب يثبتون الأوتاد ونساء كثيرات يعملن. المكان يبدو وكأنَّه قد شهد معركة أو قتالاً للتو. لكن لا يوجد قتلى ولا دماء ولا آثار عراك. فوضى ضاربة أطنابها في المكان، والكل منشغل يعمل شيئاً. تلاحظ دهشتك ونظراتك المتسائلة فتأخذك إلى خيمتها التي ما زالت مكومة على الأرض.

- ليش خيمتك طايحة؟

- خَيْمَتْ ارَّجَالَ مَ اطِّيحْ!

تجيبك هكذا في عفوية. هذه الفتاة قليلة الكلام وحين تتكلم تتكلم بالأمثال ولا تحوجك للشرح الطويل. جلوسك في مجلس سِيدِي «محمّد» جعلك تسمعين الكثير من تلك الأمثال، حتى أمثال البدو. وكنت تعلمين أن هذا المثل "خَيْمَتْ ارَّجَالَ مَ اطِّيحْ" يُضرب في العقب الصالح والولد الذي يحمل مجد أبيه ويقوم مقامه في الأسرة يتولى أعباءها ويسهر على شؤونها فتبقى الأسرة قائمة ومتماسكة ولا تسقط. لكن هذه البدوية وحيدة ولا عقب لها فهي مازالت فتاة. غير أنك تلاحظين أن كل "الَفْرِيگْ" يحبها ويحترمها. ياترى لماذا ضربت لك هذا المثل؟ ولا تنتظرين طويلاً لتعرفي الإجابة، فما هو أن وصلت إلى موقع الخيمة حتى ترك الشباب





والنساء والرجال في الحي أعمالهم وجاءوا يتراكضون لينصبوا لها خيمتها، وكانوا يهتفون باسمها وينادي بعضهم بعضا: خَيْمَتْ « لُلَّاحَسِينَة» خَيْمَتْ «لُلَّاحَسِينَة» بنت «مولاي أحمد »!

وسط دهشتك تجذبك «ديمي» من يدك وتنتحي بك جانباً لتلعبا معاً فتنتهزين هذه الفرصة وتسألينها عن «للاحَسِينَة» هذه التي أخذتك معها إلى خيمتها ما قصتها ولماذا اهتمام الحي بها بهذه الطريقة؟ فتلمع عينا «ديمي» وهي تحدثك أن «لُلَّاحَسِينَة» هي ابنة شيخ العشيرة السابق «مولاي أحمد» الذي قُتل هو وابنه الأصغر «سِيدِي أحمد مولود» حيث كانوا يقطنون قبل أن ينزحوا إلى هذا المكان وذلك بسبب النزاع حول المراعي. وأنَّهم بعد انتهاء المعركة بحثوا عن «للاحَسِينَة» طويلاً ولم يجدوها فظنوا أنَّها قتلت مع شقيقها، أو أخذت أسيرة، أو ماتت عطشاً في الصحراء. ثم بعد أن نزحوا إلى هذا الحي وولوا الشيخ الحالي «مولاي الشريف» زعامة العشيرة لحقت بهم. فقد كانت قوية فاحتملت الجوع والعطش وسارت في الصحراء.

كان والدها «مولاي أحمد» زعيماً محبوباً وقائداً شجاعاً ورجلاً مهاباً قاتل من أجل المرعى والكلأ وحمى العشيرة. لكنه قتل هو وولده ولم يبق له ولد يرث زعامة العشيرة من بعده إلا «حَسِينَة». غير أن «حَسِينَة» فتاة في مقتبل العمر فهي لم تبلغ الثامنة عشر من عمرها بعد، ولا يجوز أن تتولى الزعامة حتى تبلغ العشرين، رغم أن هؤلاء العرب لا يولون البنات زعامة العشيرة. وأنت تعلمين بقية

الحكاية حين ساقتها إليك الأقدار في قرية سِيدِي «محمّد» مكلومة وجائعة وتائهة، لتطعميها وتنقذي حياتها، لكنك لا تقولين هذا فتلوذين بالصمت. وتفهمين مقصدها حين ضربت لك المثل.

الحي كله مشغول بنصب الخيام. وخيمة «لُلَّاحَسِينَة» نالت النصيب الأكبر من الاهتمام. صنعوا لها خيمة مثل خيمة شيخ العشيرة. بلغت عشرين ذراعاً. كانت النساء في الحي كله قد احتفين بها يوم وصولها بعد أن فقدوا الأمل في العثور عليها. وجدوها قريباً من الحي مثلما وجدوك أنت. كانت بين الحياة والموت. نساء الحي فرحن بها ونسجن "لْفَلْجَ" حواشي وأشرطة لخيمتها، من شعر الماعز وصوف النعاج، ووبر الإبل الأسود والأحمر، وأكملن خياطتها متلاصقة ومرتبة، عرفاناً لها ولأبيها وأخيها المقتولين. وعرض عليها شيخ العشيرة الحالي أن تنضم إلى أسرته وتبقى مع نسائه ولكنها رفضت في شموخ واعتداد، وفضلت أن تبقى بمفردها في خيمتها. كان واضحاً أن شيخ العشيرة «مولاي الشريف» يطمح أن يضمها إلى نسائه لتصبح ضمن حريمه ويضمن بذلك ولاء العشيرة بلا منازع، فالعشيرة مازال ولاؤها موزعاً بينه وبين ذرية الشيخ المقتول، وكان ذلك واضحاً في حبهم وولائهم لابنته «حَسِينَة».

كانت هذه العشيرة المقاتلة قد تركت معظم متاعها في المكان القديم حين نزحوا إلى هذا المكان الجديد. لم يشغلوا أنفسهم بحمله ولم يهتموا بتقويض الخيام ونزعها. أخذوا معهم ما خف حمله،





ولعلهم فعلوا هذا لأنَّهم غادروا المكان سريعاً. وربما كان ذلك نوعاً من الخداع والتمويه ليوهموا العشيرة الأخرى المعادية أنَّهم ما زالوا باقين في ذلك المكان وأنَّهم لن يغادروه. (الحسَّانية) هم بطبعهم مقاتلون أشداء تستعين بهم القبائل والعشائر الأخرى في الحروب لشدة بأسهم، لكنهم أصبحوا قليلي العدد في هذا المكان، بعد أن هاجرت أعداد كبيرة منهم إلى الشرق فأصبحوا لا يستطيعون مواجهة العشيرة المعتدية التي تفوقهم عدداً وسلاحاً فقد كانت معها أعداد كبيرة من العبيد من (الحاراتين) و(البربر) السود المقاتلين. ولهذا فقد جاءت عشيرة «مولاي أحمد » إلى هنا ومعهم قليل من الخيام. كان عليهم أن يبدأوا من جديد. الشاب «حسن» جمع الضأن والإبل في "الْحباسْ" ليجز الصوف والوبر. والجَزّ لابد أن يتم يوم الخميس وإلا فلن يكون مباركاً. تراقبينه وهو يؤدي عمله بمهارة فائقة، دون أن يشوه جلد المجزوزة أو يسيل دمها، فهو يحرص أن تكون مناطق "التَّظْلاَعْ" و"الجَزْ" منسجمة ومتناسقة. وهو ماهر في جز الضأن واقفة ومقيَّدة، وجز الإبل "بَارْكَ".

تراقبينه وهو يحضر جراب الأدوات الذي ورثه من أبيه ويضعه على الأرض مستعرضاً مواهبه ومهاراته. يغريك منظر ذلك الجراب الجلدي الغريب الذي لم تري مثله من قبل ويدفعك الفضول إلى أن تذهبي وتقفي قريباً. وحين رأتك «لُلَّاحَسِينَة» مهتمة بالمشاهدة جاءت ووقفت بجوارك تؤازرك. كان واضحاً أن الشاب «حسن» يريد أن يتقرب إلى «لُلَّاحَسِينَة» ويجذب انتباهها إليه بأي طريقة.

فقد أعجبه اقترابكما منه، فتحمس للعمل. بدأ يخرج تلك الأدوات أمامكما ويشرح لك أسماءها واستخداماتها، رغم أنك لم تطلبي منه ذلك ولم تبدي أي اهتمام إلا من بعض الفضول فقط. الأمر لا يعنيك أصلاً فأنت مازلت يافعة لتفهمي كل هذا الشرح، كما أنك مشغولة بأمر مواصلة الرحلة واللحاق بجدّك. يريك مشط "بافْرِيمَان" الذي يزيل به الشوك، و"إنيتْ" الذي يزيل به الصوف الميت والوبر. كان يحدثك أنت ولكنه في الواقع كان يحدث «لُلَّاحَسِينَة» عبرك ويختلس النظرات إليها فيرمقها بطرف عينيه ثم يخرج سكيناً ذات وجهين، ومبرداً، ووعاء الـ"تيرفاطاتن" الجلدي الذي يوضع فيه الصوف والوبر. وتكتشفين أنَّه يستخدمك وسيلة للتقرب إلى «لُلَّاحَسِينَة» التي لا تعيره أي اهتمام فلم تكن الأدوات تعنيها في شيء وقد شاهدت جز "لْحباسْ" عدة مرات في حياتها ولكنه لا ييأس ولا يستسلم. ينتهز وقت "التَّنْكْيَة" حين يتجمعون لنظافة الصوف والوبر فيبرز عضلاته ويستعرض جسده. تراقبينه وهو يضع الصوف والوبر في أوعية "التيرفاطاتن" ثم ينادي أطفال "لَفْرِيگْ" ليشتركوا معه في "دَسِّها" بالأقدام. كان يريد أن يثير أكبر قدر من الضجة والصخب حوله ليلفت الأنظار. يتعمد أن يتجرد من ملابسه ولا يبقي إلا قطعة حول وسطه ويجعل "التَّنْكْيَة" مناسبة لاستعراض عضلات ساعديه وبطنه وفخذيه. لكنه يلتفت فيجد أن «حَسِينَة» قد ذهبت فترينه وسط الصبية مثل قائد قد خسر المعركة وهو يقف هناك في الميدان منكسراً وسط جنوده القتلى.





نساء "لَفْرِيگْ" صنعن لـ «حَسِينَة» رقعة الخيمة من أشرطة "لْفَلْجَ" توزعنها بينهن فقامت كل واحدة بصناعة "إِفْلِيجْ" وقمن بخياطتها الواحدة على طرف الأخرى ورتبنها معاً. ثم صنعن "لَمْطَانَبْ"، للجهتين الأمامية والخلفية للخيمة والشاب «حسن» جلب "رْكَايَزْ" أعمدة للخيمة ونصبها. لكنكما تنامان في العراء جوار الخيمة فغداً هو يوم "التْوِيزَة" التي يتم فيها الشَّلْ والجَبْرْ والخياطة.

في الصباح الباكر يوقظك صخب النساء اللائي اجتمعن للمشاركة في خياطة الخيمة في "نْهَارْ لَخْيَاطَة"، بينما جاء الرجال بالدقيق والسكر والماعز. وتولى الشاب «حسن» ذبح الشِّيَاه بينما تولت الفتيات تقديم المشروبات واللبن، والبعض أخذ في الغناء والشعر بأنواعه "اطْلَعْ" و"الگِيفَانْ" و"التَّبْرَاعْ". وأعلن «مولاي الشريف» شيخ "لَفْرِيگْ" عن رهان بين الرجال والنساء فقد أحضر جَمَلاً هدية، وربطه في مكان بعيد وبارز للجميع ليروه فيتنافسوا للفوز به. وأعلن أن الجمل سيكون من نصيب أكثرهن قدرة على التجرُّد من أكبر قدر من ملابسها، والذهاب بمفردها لأخذه كهدية. تخبرك «لُلَّاحَسِينَة» أن هذا نوع من المسابقات الطريفة التي اعتادت العشيرة أن تقيمها كما أنَّه من الاختبارات التي تجري لمعرفة قدرة النساء على الجرأة والتَّحدِّي.

النساء بقين في أماكنهن حياء. لكن «لُلَّاحَسِينَة» فجرت مفاجأتها. فقد أخذت تتجرد من ملحفتها وبقيت بالقميص

والسروال، وتقدمت وسط دهشة الجميع، وكانت تشدك من يدك وتسحبك معها. وحين تقدمت أحجم الجميع عن الذهاب، فلا بد أن لها سراً يدفعها لهذا الفعل. هي ابنة شيخ العشيرة السابق، وهي مرشحة لتكون شيخة ورئيسة للعشيرة حين تبلغ العشرين، وقد كانت غنية عن هذا الفعل. لكنها فقدت كل شيء في النزاع الذي وقع. ولابد أنَّها تحتاج هذا الجمل. لكن لا يجوز لابنة شيخ العشيرة أن تتخلى عن ملحفتها مهما كانت الأسباب. البنات أحجمن عن مجاراتها فتوقفن مندهشات ينظرن لفعلتها هذه لكنهن حين رأين شجاعتها وإصرارها على نيل الجمل أخذن يشجعنها.

تتبعينها في ذهول وقد أخذت تجردك أنت أيضاً من ملابسك حتى بقيت بالقميص فقط. وحين وصلتْ لم تمسك بزمام الجمل ولم تحل رباطه، بل جعلتك أنت التي تمسكين بزمامه ليكون من نصيبك. تفغرين فمك دهشة لكنك تفهمين حينها لماذا فعلت «لُلَّاحَسِينَة» كل هذا. النساء كن يعرفن أن من شروط المسابقة أن تذهب الفتاة أو المرأة بمفردها وأن «لُلَّاحَسِينَة» خالفت هذا الشرط حين أخذتك معها، لكن لم يجرؤ أحد على الاعتراض فقد ألجمت المفاجأة ألسنتهم جميعاً. وتأخذين الجمل. لقد أصبحت لديك الآن راحلة تملكينها! والجميع فهم مرادها ومقصدها، فأعجبهم نبلها وشهامتها.

الفتاة «ديمي» جاءت بصدقة "اذْرُورْ" المكوَّن من التمر والفواكه الجافَّة ووزعتها على الصبية والأطفال. وفي نهاية "نْهَارْ





لَخْيَاطَة" قامت «لُلَّاحَسِينَة» بأداء رقصة شعبية داخل الخيمة وسط النسوة اللواتي أسهمن في صناعتها وبنائها. كان يوماً كاملاً من العمل المضني والشَّاق، لكن النسوة جميعهن شاركن في الرقص، وكن فرحات بما صنعته «لُلَّاحَسِينَة» نهار ذلك اليوم حين تجردت من ملحفتها وبرقعها لأول مرَّة في حياتها على العلن وأمام الجميع رغم كونها فتاة. هذا الأمر تقدم عليه المتزوجات عادة في حين تحجم الفتيات عن فعله.

تدركين مدى التضحية التي صنعتها «لُلَّاحَسِينَة» من أجلك فتشعرين بالامتنان والعرفان. لكن صيحات الحرب سرعان ما تعالت في أرجاء "لَفْرِيگْ" فقطعت صوت الغناء والطرب وتوقف الرقص، والجميع يهرع إلى خارج الخيمة بينما يفزع الرجال إلى حدود "لَفْرِيگْ". العدو قادم من ناحية الغرب وقد شوهد على مشارف المَضارب. الرجال الغاضبون ينطلقون صوب العدو والأعين الخائفة القلقة تتبعهم. تخرجين وراءهم وتراقبين الرجال وهم يتصدون لهم ليمنعوهم من دخول الخيام. يحاصرونهم خارج "لَفْرِيگْ". كانوا قلة تعد على أصابع اليد الواحدة وكان واضحاً أنَّهم لم يأتوا من أجل الإغارة أو الحرب فلم يكونوا جميعهم مسلحين وإنما كان هناك اثنان فقط معهما السلاح للحراسة والدفاع عن النفس ضد اللصوص وقطاع الطريق. لكن أهل "لَفْرِيگْ" كانوا حديثي عهد بالحرب والقتال ومازال الغضب متأججاً في النفوس فهبوا مثل أسد جريح واعترضوا القادمين ولم يسمحوا لهم بالدخول ولم

يقبلوا التفاوض معهم وأمروهم بالرجوع على أعقابهم فربما كانوا عيوناً وجواسيس للعشيرة المعادية جاءوا يستطلعون. لكن كان واضحاً أن هذه هي المجموعة التي أرسلها سِيدِي «محمّد» تبحث عنك. تلمحين «بُرْهَامِي» من بعيد بينهم فتتعرفين عليه ولكنك تخافين أن يراك فتبقين مختبئة داخل الحي مستترة وراء «لُلَّاحَسِينَة» وقلبك يخفق بشدة. لكنك فرحت لتصدي العشيرة لهم ومنعهم من دخول الخيام. تراقبين تلك المجموعة وهي تعود أدراجها خائبة دون أن تدخل الحي. لقد نجوت منهم هذه المرَّة !

***

أما هناك في البعيد وإلى الشرق عند ساقية الشيطان فقد تمكنت الطفلة «أُونَتِّي» مع الأيام أن تفهم الذي حدث في القصر في تلك الليلة. الطفلة كانت تعلم أنَّها ولدت لتكون أميرة وأن أباها كان هو ولي العهد لملك دولة (عَلَوَة) وكان من الطبيعي والمتوقع أن يتولى الملك بعد وفاة الملك الحالي أو مقتله. وأن أمها هذه التي ترتدي الأسمال البالية وتربط بطنها من الجوع وتنام على الأرض معفرة بالتراب كانت من أكثر النساء مالاً وجمالاً ومكانةً في (سُوبَا) بل في (عَلَوَة) كلها. «أُونَتِّي» فهمت من أمها كل شيء وعرفت كل شيء. كانت الصيحة المرعبة التي تطلقها أمها كل ليلة عند ضفة النهر تلخص كل شيء وتختصر الكلام الكثير عن حال أمها. كانت تلك الصيحة بمثابة رسالة للجميع أن هذه المرأة الثكلى لن تنسى ثأرها مهما طال الزمن وكانت في الوقت نفسه رسالة للابنة «أُونَتِّي» أن





عليها ألَّا تستسلم، وأن عليها أن تكون قوية وألا تسمح لأي كائن أن يسلبها حقها في الانتقام والثأر لوالدها ممن قتلوه وصلبوه.

أخذتها أمها في إحدى الليالي إلى سوبا سراً وجعلتها ترى أباها مصلوباً، ثم أخذتها مرَّة أخرى لتريها رأسه مقطوعاً ومعلقاً في ساحة المدينة والنّاس يتفرجون. حفر هذا المنظر في قلبها عميقاً. ونظرت حولها فرأت مثيلاتها من البنات يسرن مع آبائهن في الطرقات لكنها أصبحت الآن يتيمة بلا أب. حينها أكلها الغضب وملأها الغيظ وأصبح تصميمها على الانتقام أكثر من تصميم أمها «دُوَانَة» نفسها. حينها أحست بمرارة اليتم مبكراً وذاقت طعم الظلم منذ الصغر. قررت أن تعيش من أجل هدف واحد هو الانتقام. وكلما عانت من ويلات الحياة تذكرت يوم الانتقام فصبرت على شظف العيش وهول الحياة وقسوتها. رأت أمها وهي تنتزع الثياب من جثة امرأة طافية فوق الماء حملها تيار النيل إلى تلك الضفة في صباح أحد الأيام. انتزعت الثياب لتستتر بها عورتها بعد أن تمزقت ثيابها وتهرأت بفعل الزمن. وكان هناك أطفال كثيرون يحملهم التيار غرقى ناحيتها فكانت أمها تسبح لتلتقط أحدهم وتنزع عنه الملابس لا سيما إن كانت جثة فتاة. فاعتادت «أُونَتِّي» وأمها على ارتداء ملابس الموتى تستران بها جسديهما في تلك البقعة المهجورة عند منحنى النيل.

***

قافلة الملح

حين ذهبت تلك المجموعة هدأت ثائرة العشيرة وانصرفوا لتفقد المرعى. و"لَفْرِيگْ" بدأت معالمه تتضح فقد اكتمل بناء ونصب معظم الخيام، وأصبح الجميع يعرفونك. وبنات كثيرات في مثل سنك يحاولن التقرب منك لعقد صداقات معك، فكل غريب في "لَفْرِيگْ"يجذب الانتباه خاصة في أيام الحرب والنزاعات، فالجميع يبقى متأهباً حذراً ومنتبهاً بينما الصغيرات يبحثن عن الصداقات ليشعرن بالأمان. «لُلَّاحَسِينَة» لا تريدك أن تسافري بل هي لا تريدك أن تفارقيها ولو للحظات، فقد كانت معك ترافقك مثل ظلك حتى في ساحة اللعب.

بقيت تقاوم فكرة سفرك بكل طريقة رغم أنَّها هي التي ساعدتك للحصول على راحلة. ولم لا تقاوم فكرة سفرك فقد وجدت فيك أختاً صغيرة تؤنس وحشتها وتعوضها فقد الأب والأخ فأحبتك حباً جماً، وبدأت تحلم بحياتكما معاً هنا وسط العشيرة. كانت تتفانى في خدمتك رغم أن هناك من يسره أن يخدمكما بكل امتنان، لكنها كانت تستيقظ مبكرة فتجلب لك حليب النَّاقة، وتصنع الزلابية المدهونة بعسل الصحراء، مثلما تعودت أن تفعل في السابق لأبيها وأخيها. هي أيضاً أصبحت يتيمة الأب والأم مثلك فقد ماتت أمها





بالحمى بعد أن ولدت الابن الأصغر« سِيدِي أحمد مولود ». وهي منذ أن استضافتك عندها في خيمتها الكبيرة الواسعة واعتادت أن تسمع صوتك وصخبك يملأ حياتها فقد أصبحت فكرة رحيلك عنها وتركها وحيدة هاجساً لا تريد أن تفكر فيه. لكنك لست مستعدة أن تتخلي عن اللحاق بجدّك مهما كلفك الأمر، حتى لو اضطررت أن تتخلي عن الجميع بمن فيهم «حَسِينَة». حياتك الحقيقية هناك مع جدّك الحاج وفي كنفه. الحوارات تدور حول سفرك والتخطيط له. أنت لا تطيقين الانتظار لأنك تعلمين أنَّه كلما تعاقب عليك الليل والنهار وأنت في هذا المكان بعدت المسافة بينك وبين جدّك الحاج.

«حَسِينَة» كانت تعلم أن الطريق إلى (تِيمْبُكْتُو) حيث تنطلق قوافل الحجاج شرقاً محفوف بالمخاطر، سيما وأنك فتاة صغيرة لا حيلة لها، والطامعون كثيرون، والصحراء مليئة بالقبائل والعشائر. صحيح أن هناك الكثير من عشيرتها من عرب (بني حسَّان) منتشرون في كل مكان، لكن الصحراء مليئة بقبائل أخرى من (بني هلال)، و(بني معقل)، وعرب (أزواد) وعرب (الطَّوارق) وغيرهم. والصحراء مليئة أيضاً باللصوص وقطاع الطرق وتجار العبيد. كانت تخاف عليك من كل شيء ومن كل أحد. لكنها ترضخ تحت إصرارك على السفر، وتوقك للحاق بجدّك الحاج، وجسارتك للمضي قدماً في هذه الصحراء رغم كونك مازلت فتاة صغيرة.

كانت تعلم أن هذا هو موسم قوافل الملح المتجهة إلى (تِيمْبُكْتُو)، وأن بعض هذه القوافل يأتي من هذا الطريق. تعلمت هذا بحكم جلوسها قديماً مع والدها حين كان زعيماً للعشيرة. قوافل الملح كانت تنيخ الإبل في مكان غير بعيد إلى الشمال من مضارب "لَفْرِيگْ"، و«حَسِينَة» توقظك فجراً فتتسللان خفية قبل الإشراق حيث جملك الذي كَسِبْتِهِ في تلك المسابقة وناقتها المُعَقَّلة معه. تسرجانهما وتركبان. كانت تعلمك الركوب بنفس طريقة الرجال. أتقنتِ الوثوب على ظهره والنهوض والركض وإناخته والتحكم فيه والإمساك بخُطامه لتوجيهه وقيادته. أصبح ركوب الجمل متعتك التي لا تملين منها والبقاء فوق ظهره أصبح أمراً معتاداً كما أَخَذَ الجمل في الاعتياد عليك فعرفك وألفك. «حَسِينَة» أطلقت عليه اسم "مطيع"، فقد كان جملاً مطيعاً بالفعل أينما توجهينه يتوجه.

في ذلك المساء أحضرت «حَسِينَة» صرة ثياب كانت في أحد أطراف الخيمة. ولدهشتك تكتشفين أنَّها تحتوي ملابس شقيقها المقتول «سِيدِي أحمد مولود». «حَسِينَة» أخرجت منها دراعة بيضاء، ولثام عمامة حولي، وسروال سَمْبَتِي، وقميصاً أبيض بلون الدراعة، ثم أمرتك أن تلبسي ملابس أخيها المقتول. ولم تقاومي فقد كانت فكرة مجنونة لكنك كنت مندهشة جداً في دواخلك، فقد تذكرت أن جدّك الحاج ألبسك ملابس الذكور حين كنت صغيرة، وتذكرين يومها أن سِيدِي «محمّد» قد أنكر عليه هذا الفعل. وهاهي «حَسِينَة» تفعل معك نفس الشيء لكنك كنت سعيدة لهذه الفكرة.





سَهِرَتْ معك الليل كله تعلمك كيفية ارتداء ملابس أخيها.

تخرجان فجراً على ظهر راحلتيكما وأنت تلبسين ملابس الرجال فتتوجهان شمالاً. وعند طلوع الشمس ترين قافلة كانت قد حطت رحالها لتبيت في ذلك المكان فتقصدانها. دليل القافلة رجل من عرب (أزواد) تعرف على «حَسِينَة» على الفور لأنَّه كان يعرف والدها. وينفردان بعيداً يتحادثان وقتاً غير قليل، ثم تشير إليك ويهز رأسه موافقاً. ثم تضع شيئاً في يده فيخبئه في دراعته ويتوجه نحوك.

- سلام عليك «سِيدِي أحمد مولود» بتسير معنا (تِيمْبُكْتُو).

- واخَّا عمي!!

«سِيدِي أحمد مولود»! هذا هو اسمك الجديد إذن فأنت الآن ولد!. وابن سيد القبيلة ولست ولداً اعتيادياً من عامة العشيرة! تلاحظين أن دليل القافلة يسير حافياً في الصحراء، وهو رجل نحيف البدن لكنه صلب وقوي. كان يركض خلف أي ناقة فيمسكها من ذيلها ويسقطها أرضاً. يجعل جملك يسير بجوار ناقته، والقافلة تواصل سيرها شمالاً بخطى وئيدة فحملها ثقيل. ستون جملاً محملة بحجارة من الملح يحرسها عشرون رجلاً على جمالهم وأخرى تحمل الماء وغيرها محملة بالطعام.

كل خطوة تخطوها الجمال في هذه الصحراء تزيد معرفتك بها. هذه الصحراء متقلبة المزاج والأحوال، ففي حينٍ تكون صحراء

لطيفة تتدثر بالرمل الناعم وتتلوى وهادها وكثبانها طيعة تحت أخفاف الإبل، وفي أحيان أخرى تقسو بترابها ونباتها فتصفر الريح فيها غاضبة قبل أن تهب العواصف مزمجرة تنفث الرمال على وجوهكم وتحثو التراب فوق رؤوسكم. تلالها ورمالها ترسم أشكالاً مدهشة أحياناً وعابسة أو حزينة في أحيان أخرى. تلك تلة مثل وجه امرأة عجوز غابرة عصفرت وجهها بلون أصفر لتخفي التجاعيد التي كتبها الزمن على جبينها وخديها. وتلة أخرى مثل موج البحر تتكسر وتتثنى. وثالثة متكورة على نفسها مثل طفل يتيم حزين في ليلة شتائية باردة وقد قوس ظهره وأخفى رأسه. ثم سهل منبسط نبتت فيه الأزهار البرية فزركشته مثل ثوب مزين باللَّون الأخضر، نشرته فتاة ليجف تحت أشعة الشمس. ثم أشجار قليلة متناثرة هنا وهناك في حياء، وكأنَّها تعتذر عن بخل الصحراء بالنبات والخضرة. ثم صحراء ممتدة في غباء وعنيدة في كبرياء. تقود إلى صحراء ميتة ساكنة خامدة خمود أهل القبور، يلعب فوقها السراب الفضي اللامع في الأفق كل نهار ليغيظها، فتنطلق وراءه أو تلعب معه. لكنه يبقى هناك طول النهار قبل أن ييأس فيمضي متوارياً خلف الأفق الذهبي حين تسقط الشمس وراء التلال، التي تقبع خلفها صحراء جرداء عارية، لا تكف عن التمطي. فهي مولعة بالاتساع مجنونة بالرمال الزاحفة. كلما ظننت أنك قد قطعتها تمددت أمامك رمالها الحمراء الناعمة بلفحها وصهدها الذي يسفي التراب فوق هامات تلالها، ويضرب أخفاف الإبل





بمسامير الرمل، ويصب على رؤوس الراكبين سموم العذاب الأليم.

«محمّدي ولد مختار» دليل القافلة رجل خبير بطرق الصحراء فهو يسير فيها مغمض العينين يمد لسانه للمخاطر، ويهزأ بالجوع والعطش وحر الصحراء اللاهب. وحتى إبله نفسها تعرف طريقها في الصحراء فهي لا تحتاج دليلاً. كان يركب على ظهر ناقته حيناً فينام الساعات الطوال ولا يسقط من على ظهرها. وكان يمشي فوق الرمال حافياً أحياناً أخرى يقودها من زمامها فتتبعه كالوليد الصغير. وبقية القافلة تسير خلفه وتتبعه مثل جيش صغير من النمل يسعى وراء قائد همام. لكنك لم تعتادي السير الطويل فوق ظهر "مطيع" فتحسين بالألم بين كتفيك وفي عنقك وأسفل ظهرك بعد يوم واحد من السير. والقيظ يلهب ظهرك من فوقك بسياط من نار، ومقعدتك تتوقد أتوناً من تحتك وتَقَلِيكِ بكانون من اللهب، واهتزاز الرَّحْل فوق سنام "مطيع" كأنَّه منشار في يد نجار مجنون يذهب ويجيء، لا يفتر ولا يتوقف، والدَّمامل تنتفخ داخل إليتيك وبين فخذيك.

تتعمدين أن تقضي حاجتك بعيداً عن القافلة حتى لا يسمعوا صياحك من الألم حين تخرجين لقضاء حاجتك. «محمدي ولد مختار» يحذرك من التبول في الجحر أو تحت شجرة حتى لا تلسعك العقارب أو يسقط فوقك ثعبان من أحد الأغصان، ويحذرك من تقليب الصخور فأنت لا تعلمين ما الذي سيخرج من تلك

الجحور. هذه الصحراء تعلمك أن تكوني حذرة في كل خطوة تخطينها. تلاحظين أن طريقتك في المشي قد تغيرت، فقد أصبحت تباعدين بين ساقيك كثيراً فتستغرقين في الضحك في نفسك من هذه الطريقة الجديدة في المشي، ويختلط ضحكك بآهات الألم في كل خطوة. الشمس الساطعة الحارة تسفع خديك ووجهك، وتلهبه بالحرارة فيتغير لونه إلى الأسمر، وتراب الصحراء يدخل بين جلدك وثيابك، والعرق يجعل ذلك التراب طيناً يغطي مسامك ويَخِزُك فتهرشين هنا وهناك. في الصحراء لا ظل إلا ثوبك. ولا راحة إلا حين تنزل القافلة للمبيت. وبعد يومين من المسير تصلون إلى مضارب خيام «محمدي ولد مختار» دليل القافلة. الإبل كانت تعرف طريقها نحو تلك المضارب على طريق القوافل إلى (تِيمْبُكْتُو). وحين تشارف الوصول تبدأ في الرغاء، فتخرج إليها حواشيها مبتهجة بها في حفل صحراوي صاخب.

دليل القافلة ينيخ راحلته ويأخذك معه دون بقية أفرادها، وتستقبله امرأته فيضع يده على رأسها ليباركها. وتدركين أن هذه هي المصافحة والسلام عندهم. ثم يجلس ليشرب لبن الإبل من يدها وتصنع لكما الشاي الأخضر. «محمدي ولد مختار» رجل دقيق الملاحظة. لابد أنَّه عرف أنك أنثى لأنَّه تركك مع امرأته وابنته في الخيمة وحدكما، ورجع ليبقى مع رجال القافلة. شككت في هذا أول مرَّة لأنك كلما كنت تستيقظين ليلاً حين تنزل القافلة للمبيت تجدينه منتبهاً ومستيقظاً يحرسك. وكلما تعودين من قضاء الحاجة





خلف تلك الصخور أو الأشجار تكتشفين أنَّه كان يحوم قريباً منك يراقب المكان ويحرسك، لكنه سرعان ما يتظاهر بكونه منشغلاً بعمل شيء حتى لا تشكي في تصرفاته هذه. ولا بد أنَّه لاحظ أن حركتك ومشيك وكل شيء فيك لا يشبه أفعال الأولاد. أنت لا تدرين ما الذي همست له به «لُلَّاحَسِينَة» في أذنه حين انفردتْ به دونك وبقيتْ تكلمه فترة طويلة. الآن استيقنتِ أنَّه يعرف أنك أنثى حين تركك مع زوجته وابنته، وذهب ليبقى مع رجال القافلة. لكنه لم يذكر لك هذا أبداً ولم يضايقك بالأسئلة. وتعجبين من أدب هؤلاء الأعراب ونبلهم وطريقتهم في المعاملة مع أنك مازلت مجرد صبية.

القافلة لا تحمل سوى الملح. وتسألين الدليل فيجيبك أن هؤلاء التجار يقايضون الملح بالذهب والعبيد، فهو أغلى عند سكان الصحراء من الذهب ومن البشر. وأحلى أوقات السفر هي جلسات السمر آخر الليل حين يتحلقون حول نار الشواء يستدفئون، فبرد الصحراء قارس كلما أليل ليل يغالبونه بالتدثر بثياب الصوف والجلد، وأكل شواء الأرانب والطيور التي يقنصونها، وشرب حليب الإبل وغلي الشاي الأخضر الممزوج بعسل الصحراء، أو مع حفنة من التمر. كنت تجلسين قرب النار تستدفئين وتستمعين إلى حواراتهم وأنسهم. معظم الأنس يدور حول توقهم إلى النساء والتباهي بفحولتهم، والمقويات العشبية وأدوية زيادة القدرة. وتفهمين البعض القليل مما يقولون، ويفوتك الكثير مما لا تفقهينه،

لكنك تلوذين بالصمت فأنت صغيرة على مثل هذا الحوار، كما أنك كنت تسمعينه لأول مرَّة. لابد أن هؤلاء الرجال يحبون هذا النوع من الكلام والحوارات الغبية لكونهم فارقوا أهلهم ونساءهم شهوراً طويلة في رحلتى الذهاب والإياب، فهم يجلبون الملح من أقاصي الشمال ليباع في (تِيمْبُكْتُو) مقايضة بالذهب. ولا بد أنَّهم يجهلون أنك صبية أنثى وإلا لما تجرأوا على الكلام أمامك بهذا القدر من الوقاحة.

لكنهم أحياناً أخرى يتحدثون عن مغامراتهم مع جن الصحراء، وكنت تعلمين أن الصحراء تلهب الخيال الخصب فمعظم الوقت يكون المسافر فوق ظهر جمله مستغرقاً في تفكير عميق. وفي أحيان قليلة يطلق عقيرته بالحداء أوالغناء أو الأهازيج التي تطرب لها الإبل. لكنك تدهشين حين يتحدثون في كل شأن فيدهشك خيالهم ومنطقهم وحديثهم الحلو. وقد يمازح بعضهم بعضاً بالقفز والمصارعة والمطاردة في رمال الصحراء، حتى تظنين أنَّهم قد بدأوا يتعاركون فعلاً، لكنهم سرعان ما يعودون إلى مرحهم المحبب ومزاحهم الحلو البريء، فالصحراء قد وحدت بين قلوبهم وجمعتهم في بوتقة حب لانهائي، وسعادة قلما توفرت لغيرهم في هذا الكون، فهم سعداء في بساطتهم وعيشهم على الكفاف، ورضاهم واكتفائهم بجرعة من حليب الإبل طول اليوم، أو قضمة من صدر طائر مشوي أو فخذ أرنب، ثم جرعات من الماء أو الشاي الأخضر. والتمر رفيقهم دائماً إذا لم يتوفر اللبن أو اللحم.





دليل القافلة «محمدي ولد مختار» رأى أن يستجم مع أهله قليلاً قبل أن يلحق بالقافلة التي تحركت في اليوم التالي قاصدة (تِيمْبُكْتُو) وأوصى بك قائد القافلة «أحمدي ولد حَسُّونَة»، الذي لم يكن ماهراً في معرفة الطريق مثل «محمدي ولد مختار». لكن ذلك غير مهم فالطريق إلى (تِيمْبُكْتُو) أصبح واضحاً ولا يحتاج إلى دليل ما لم تهب عاصفة غير متوقعة. قافلة الملح تسير بخطى وئيدة لكن بعد يوم من المسير يتغير لون السماء فجأة، وتزحف العاصفة الرملية نحوكم فتغزو المكان، والنهار يصبح مظلماً فجأة. الشمس متربعة في كبد السماء لكن سحب الغبار حجبت وهجها ثم ضوءها ثم قرصها، وانقلب النهار ليلاً. والإبل بركت وأقفلت أنوفها وألصقت رقابها مع الأرض.

يحفر لك أحدهم حفرة في الرمل فتجلسين فيها وتتدثرين بالثياب في انتظار انقشاع العاصفة واتضاح الرؤية. لم تري في حياتك مثل هذا. كنت تنظرين فلا ترين الإبل الباركة قريباً منك مع أنَّها كانت أقرب من رمية حجر. ثم يحل ظلام كثيف ولا ترين شيئاً. السماء ضربت الأرض بكل قوة، والريح عزفت أوتارها فوق رأسك وفي أذنيك، فقد بدأت سَفُونَ تسفي الرمال والتراب، ثم تسمعين هبوبها ودويها وقصفها، ثم زفيفها ونئيجها وعصفها، ثم تهدأ قليلاً فأصبحت تسمعين الهفيف والحفيف. وبعد طول انتظار ينقشع الغبار وتصفو الرؤية.

تنهضين من مرقدك فتجدين أنك كنت متدثرة بالرمال، بل ومدفونة تحتها، فتحفرين فوق رأسك لتزيحي أكوام التراب المنهال

فوقك بفعل العاصفة. تنهضين مثقلة بالرمال التي عبأت ملابسك وكل موضع من جسدك. تجرفينها من فوقك بكفيك حين تنهضين. وتنظرين حولك. معالم المكان تغيرت بفعل العاصفة. ولا أحد هنا أو هناك. تظنين أنَّهم قد انتقلوا إلى الوهاد المنخفضة في الجانب الشرقي ليتفادوا هبوب الرياح، فتنطلقين شرقاً وتتسلقين تلة الرمل التي تكونت حديثاً بفعل العاصفة، ولكنك لا تعثرين لهم على أثر. وجملك "مطيع" لم يعد موجوداً حولك فقد ذهب معهم. وتذكرين أنك نسيت أن تعقليه حين هبت العاصفة.

تعودين أدراجك وتتجهين غرباً وتصعدين أعلى التلة، ولا شيء سوى الصمت والرمال. واضح أن القافلة قد تحركت منذ مدة وقبل أن تهدأ العاصفة فلا توجد آثار أقدام لبشر، ولا لأخفاف الإبل، ولابد أن الرمال قد عفت على آثارهم. وتغضبين جداً كيف تركوك وتخلوا عنك هكذا. هل حصل لهم مكروه ياترى فرحلوا على عجل؟ أو توهموك معهم حين ساروا؟ ألم يلاحظوا "مطيع"؟ أم أنَّه هو الآخر قد هرب منهم وتاه في الصحراء؟ فقد تركته طليقاً غير مربوط. وتعودين إلى حيث كنت وتجلسين. وتتلفتين ذات اليمين وذات الشمال ولا شيء غير الوحدة والوحشة. والصحراء كشرت لك عن أنيابها وأبرزت وجهها القبيح.

لأول مرَّة تحسين برعشة خوف تسري في أوصالك. ليس معك ماء ولا طعام ولا راحلة ولا ثياب، فقد تركت صرة ثيابك مربوطة على سرج "مطيع". قد تصمدين في الصحراء يومين أو ثلاثة بلا





طعام ولا راحلة، لكنك قطعاً لن تصمدي أكثر من يوم واحد بلا ماء. لكنك لاتلبثين طويلاً فسرعان ما يتراءى لك شبح من بعيد يركب جملاً يعدو به تجاهك فيتهلل وجهك فرحاً. لقد جاء الفرج. لابد أن أصحاب القافلة قد افتقدوك فأرسلوه لينقذك من هذا المكان. وتتأهبين للركض نحوه. لكن شيئاً ما في طريقة ركض الجمل وحركة الراكب يجعلك تعودين إلى حفرتك مسرعة فتهيلين الرمال عليك وتبقين متوجسة وتراقبين. ينتابك إحساس بأن هذا الرجل لا ينوي بك خيراً. ويتأكد إحساسك هذا حين يقترب منك فيتبين أنَّه ملثم وكأنَّه أحد أفراد قبيلة (كانم) فهو مسلح بسلاح غريب، ورجال القافلة لم يكونوا ملثمين ولا يحملون ذلك النوع من السلاح. يزداد خوفك وتبقين ساكنة. والرجل يدور في المكان ولكنه لاينتبه للحفرة التي كنت فيها. كان ملثماً فلا تتبينين وجهه ولا ملامحه. وكان واضحاً أنَّه يبحث عن الرجال أو الإبل، فقد كان ينظر في الأرض كأنَّه يقص الأثر، بالرغم من أن العاصفة قد عفت على آثار القافلة. يبتعد عن المكان ويختفي خلف تلة الرمل فتتنهدين في ارتياح. لكن القلق سرعان ما يعاودك من جديد فأنت مازلت في الصحراء، وفي مكان مجهول لا تعلمينه، والمكان خطر جداً. فتخرجين من مكانك لتنظري هل هذا الرجل بمفرده أم هناك آخرون معه. وترتكبين خطأ فادحاً حين تصعدين إلى أعلى التلة لتنظري حولك، وسرعان ما يعود راكب الجمل ليباغتك من الخلف. لم تكوني منتبهة حتى خطفك وهو على ظهر الجمل.

فجأة وجدت نفسك معلقة في الهواء، ثم منكفئة على بطنك فوق رقبة الجمل، والملثم يمسك بك بقوة ولم تستطيعي المقاومة. أخرج حبلاً وبسرعة ربط يديك وقدميك. لم يتكلم لكنه كان ينظر في عينيك. وتنظرين فترين عينين حمراوين، وخطوط طلاء أبيض وأحمر تغطي ذلك الوجه الملثم الذي كأنَّه قد ظهر فجأة من الماضي البعيد، أو من إحدى الحكايات القديمة، والأساطير التي كان جدّك الحاج يحكيها لك قبل النوم. تدركين أنك وقعت أسيرة في يده وأنَّه لا ينوي بك خيراً. يبتسم ابتسامة الظفر ويطلق صيحة في الهواء. يحملك ويضعك مقرفصة داخل جراب متدلٍ تحت الرحل، وهو يُرْكِضُ جمله بك بعيداً في عمق الصحراء. تحّسين أنك مثل أرنب اصطاده للعشاء ومضى يركض به نحو نار الشواء الموقدة أمام الخيمة. ودون قصد تتحسسين خديك وجسدك لتجسي ليونة لحم وجهك، وتتساءلين كيف سيصير حين يعلقك على سيخ الشواء. يالك من طفلة بريئة أوقعت نفسها في يد هذا الغول المتوحش الذي يستحث جمله ليلحق وجبة العشاء. يبقى صامتاً طوال الطريق ولا ينطق بكلمة ولا يتكلم معك ولا ينظر إليك.

سرعان ما يصل إلى كوخ وحيد في فضاء موحش. وتلاحظين أنَّه كوخ منتصب في البرية منفرداً وبعيداً عن الأكواخ القليلة الأخرى هناك في أعلى التلة، وكأنَّه بعير أجرب طرده أهله حتى لا يعدي بقية البعران. ويطلق الملثم صيحة فتخرج امرأة وابنتها مبتهجتين، لكنهما حين تريانك في ذلك الجراب تنقلب بهجتهما غضباً وتتكلم





المرأة بكلام خافت والخوف في عينيها. يبدو أنَّها زوجته والأخرى هي ابنته. تسمعين همهمتهما وهما تتحدثان وتتجادلان بشأنك. لا بد أنَّهما كانتا تتوقعان صيداً تأكلانه وبدلاً من ذلك فقد جاءهما بفم آخر جائع ليشاركهما عشاءهما. لم تري مثل هؤلاء القوم في حياتك. النساء حاسرات والرجال ملثمون. بل النساء حاسرات أكثر مما ينبغي فهن لا يضعن على أجسادهن شيئاً يذكر فالمرأة اكتفت بربط وسطها بثوب وكذلك ابنتها بينما الرجال يلبسون زياً فضفاضاً ساتراً. لابد أنَّهم ليسوا من القبائل العربية. إحدى النساء تحدثه بلهجة آمرة وتشير بيديها الاثنتين إليك. ثم تقترب منك، وتحدثك بلهجة غريبة لم تفهميها، فتكتفين بالنظر إليها دون أن تفتحي فمك. كانت هذه رسالة واضحة إلى أنك لا تجيدين لغة هؤلاء القوم وهم أيضاً لا يعرفون لغتك ولا يريدونك بينهم.

يبقى الرجل صامتاً لا يشارك في الحوار واللغط الدائر حولك، ولكنه بدلاً من ذلك يتجه نحوك فيحملك بيد واحدة، ويخرجك من ذلك الجراب فيضعك على الأرض. يجردك من ملابسك جميعها فتقفين عارية وسط أولئك النسوة، وغاضبة من فعلته هذه. يأخذ ملابسك ويقذفها تجاه ابنته التي تلقفتها بيديها واحتضنتها بقوة كمن تخشى أن ينتزعها منها أحد، ثم أخذت تنظر إليك لترى ردة فعلك. هذا التصرف الغريب يجعلك عاجزة عن الكلام ومتأججة غضباً. المرأة المندهشة وابنتها تكتشفان أنك أنثى فتفغران الأفواه لجمالك وصغر سنك. الرجل الملثم أوصل رسالته دون أن يتكلم،

والمرأة تأخذك من يدك وتجرك إلى داخل الكوخ، ثم تتحدث معك مرَّة أخرى لتتأكد أنك لست بكماء. وتجيبينها بأنك لا تفهمين كلامها، لكنها تدرك أنك عربية فتتركك وتخرج للتحدث مع ذلك الملثم، الذي ما يلبث أن يركب بعيره وينطلق في الصحراء ويغيب في المجهول. وبعد قليل تدخل البنت الصغيرة وهي ترتدي ثيابك.

بؤساء هؤلاء القوم الذين يعيشون وسط الصحراء. تحسين بالإشفاق على تلك البنت التي لم تكن ترتدي شيئاً فيتحول غضبك إلى ضحكة مكتومة. كانت في مثل سنك، لكن ملامحها أنضجتها حرارة الصحراء وطبختها شمسها المحرقة. البنت تفاجأ بضحكتك فتبادلك بابتسامة عريضة يكسوها الحياء لكونها لبست ملابسك. تقترب منك وتمسك بيدك. ثم تتركها بسرعة وتبدأ في خلع بعض تلك الملابس لتلبسك إياها. وأنت لا تمانعين فقد كنت عارية تماماً. البنت أعجبها أنك قبلت أن تلبسي بعض الثياب التي كانت قد سلبتها منك فتتحمس وتخلع معظم ما كان عليها فتعيدها إليك. وأنت تتركين لها ما يستر عورتها.

الملثم يعود بعد ساعة ومعه جمل آخر قد ربطه من زمامه بمؤخرة سرج جمله، ولدهشتك الكبرى تكتشفين أنَّه جملك "مطيع" وبلا تفكير تنطلقين نحو الملثم وحين يراك "مطيع" يحن إليك بصوته ويَبْرُكُ، وسط دهشة الملثم الذي ينطق لأول مرَّة فيسألك:

- بعيرك هذا؟





- أي نعم!

وتدهشين أنَّه يتحدث العربية!

- أنت (حسَّانية)؟ هذا البعير(حسَّاني).

وتصمتين فلا تجيبينه. ويدرك الملثم أي ورطة أوقع نفسه فيها. جملك "مطيع" أنقذك من الأسر ومن البيع في سوق العبيد. يخبرك الملثم أنَّه كان يعمل عند والد «حَسِينَة» مدة طويلة حتى قتل الشيخ في تلك المعركة وحينها عاد الملثم ليجمع بقية القبيلة حتى يعودوا ويقاتلوا العشيرة المعتدية. وأنَّه هنا في هذه الصحراء ليحمي زوجته وابنته من القتل، فالعشيرة المعتدية أهدرت دمه ودم أسرته كلها، فقد قتل عدداً من رجالهم الشجعان. وحين جاء بهما إلى هذا المكان المعزول فضل ألا تختلطا مع بقية نساء العشائر الأخرى فبنى لهما كوخاً منعزلاً في الصحراء ثم مضى ليغير على قوافل العشيرة المعتدية. لكنه حين هبت العاصفة وتاهت قافلة الملح في الصحراء رآك فظن أنك من العشيرة المعتدية، فأخذك ليفتدي بك بعض الأسيرات لدى تلك العشيرة.

رأى جملك "مطيع" تائهاً في الصحراء وكان يعلم أن هذا الجمل يتبع لقبيلة (الحسَّانية) فقد عرفه من وسمه الذي عليه، فحملك إلى كوخ أهله ثم عاد ليأتي بالجمل. ولم يكن يعلم أنَّه جملك. يعرض عليك أن يعيدك إلى مضارب القبيلة ولكنك تخبرينه أنك متوجهة إلى (تِيمْبُكْتُو) لتلحقي بجدّك هناك. فيسرجُ لك "مطيع" وابنته

تعيد إليك بقية ثيابك ويسير معك إلى (تِيمْبُكْتُو). وها هو "مطيع" قد أنقذ حياتك مثلما أنقذت عشيرته حياتك من قبل حين وجدوك على مشارف "لَفْرِيگْ".

في الطريق يحادثك الملثم فيعرف قصتك كلها ويعجب من شجاعتك رغم صغر سنك، فيتعاطف معك وينصحك أن تلتحقي بإحدى القوافل المتجهة شرقاً من (تِيمْبُكْتُو) في رحلة الحج فربما تلحقين بجدّك. وينصحك ألا تبقي في المدينة إلا ريثما ترتاحي قليلاً من تعب السفر وتتزودي بالطعام قبل أن تلتحقي بالقافلة إلى الشرق من (تِيمْبُكْتُو). وتندهشين من هذه النصيحة، وتترددين قليلاً قبل أن تسأليه لماذا لا يريدك أن تبقي في (تِيمْبُكْتُو)، لكنه يلوذ بالصمت فلا يجيبك ويتركك في حيرتك. وتلاحظين أن هذا الغريب يُكِنُّ وَلاءً منقطع النظير لقبيلة (الحسَّانية) وللشيخ المقتول، فحين سمع اسمه انتابه الحزن عليه ثم الإشفاق عليك. وتعلمين أنَّه تجشم كل هذا العناء ليقودك إلى (تِيمْبُكْتُو) عرفاناً لقبيلة (الحسَّانية)، رغم أنَّه مقاتل لا يعرف غير سفك الدماء. وتدركين أن أشد النّاس قسوة يحملون في جوانحهم قلوباً رقيقة وأنفساً شفافة وإشفاقاً. وتتساءلين في نفسك ترى كيف يحس من يكبر وينشأ بين يدي أمه وأبيه. كيف يشفقان عليه. وسرعان ما تذكرين إشفاق جدّك وحنوه عليك، فيزداد عزمك على المضي قدماً، وعلى تحمل مشاق السفر ووحشة الطريق مهما كلفك الأمر.





تِيمْبُكْتو

بعد سير طويل مضنٍ تبدو معالم (تِيمْبُكْتُو). وتدهشين من هذه المدينة الكبيرة المحاطةً بالأسوار التي لم تكوني تعرفين عنها إلا اسمها، والأساطير التي نسجت حولها. لكنك تندهشين أن الرجل يوصلك إلى سور المدينة وينزلك من الجمل بكل احترام رغم صغر سنك، ثم يقف عند الباب خارج السور ويأبى أن يدخل معك، وبدلاً من ذلك يأخذ بعيره ومعه "مطيع" وينقلب عائداً دون أن ينبس بكلمة. ويحرص على الابتعاد ولا يلتفت إليك أبداً. ربما اعتبر "مطيع" بعضاً من أتعابه وثمناً لتوصيلك إلى (تِيمْبُكْتُو). أو ربما سيعيده إلى حيث يظن أنَّه ينتمي. تقفين محتارة عند البوابة لبضع دقائق حتى يختفي الرجل بعيداً من حيث أتيتم ويسألك حارس البوابة:

– لماذا تركك تاجر الرقيق عند الباب ولم يدخل معك؟

– هذا ليس تاجر رقيق. هذا الرجل وجدني في الصحراء بعد أن هبت العاصفة وتهت عن القافلة فأوصلني من الصحراء إلى هنا.

– بل هو تاجر رقيق! جاء قبل بضعة أيام فباع عدداً منهم في (تِيمْبُكْتُو) وانصرف، وأنا مندهش كيف أنَّه تركك ولم يبعك فأنت تساوين ثروة!

ولا تعرفين كيف تجيبينه فلم تكوني تدركين أن هذا الرجل الذي قص عليك قصته عن معرفته بقبيلة (الحسَّانية) هو بالفعل تاجر رقيق. لكن ربما كان صادقاً في حكايته وهو يأخذ الأسرى فيبيعهم. من يدري؟ فلن تعرفي أين هي الحقيقة أبداً!

وتمضين قدما فتدلفين إلى داخل المدينة، ومخيلتك تفيض بالأفكار والأحداث والأسئلة. وفي (تِيمْبُكْتُو) تتجولين وفي طرقاتها تسيرين. أبواب البيوت والمساجد مصنوعة من الخشب الثقيل ومزينة بالزخارف والزركشات المعدنية والرسومات الملونة والكتابة على الجدران والإطارات حول الأبواب. وتلاحظين أنَّها مدينة عامرة بالنّاس والحركة، فالنّاس يطبخون طعامهم في الطرقات ويخبزون خبزهم هناك. وفجأة تلمحين المخطوطة التي كان جدّك يحملها. تلمحينها معروضة للبيع. أنت لا تعرفين القراءة ولا الكتابة لكنك بالتأكيد تعرفين مخطوطة جدّك. إنَّها هي بأوراقها القديمة المهترئة، وغلافها الجلدي الأحمر، وبقعة الدهن التي انسكبت منك فوقه. تذكرين نظرات جدّك يومها حين سكبت الدهن على ذلك الغلاف. هذه المخطوطة هي أغلى شيء عنده. كان يقرأ منها كل يوم وينام وهي على صدره.

جدّك الحاج كان يخاف عليك فلم يدعك تغيبين عن عينه أبداً ولم يرسلك إلى "المحظرة" لحفظ كتاب الله مثلما دأب أهل هذه البلاد على إرسال أولادهم وبناتهم ليحفظوا كتاب الله ويتعلموا القراءة والكتابة، فبقيت أمية لا تقرأين ولا تكتبين ولم تحفظي





القرآن. تندفعين في جنون صوب المخطوطة. تمدين يدك بسرعة لتلمسيها وكأنك تلمسين جدّك. وحين تأخذينها لا تصدقين أنّها في يدك فتضمينها إلى صدرك بقوة وكأنك تخشين أن يأخذها أحد منك. البائع يظنك ستخطفينها وتهربين بها. يعترض سبيلك ويوقعك أرضاً، ثم يجثم فوقك ويهم بضربك وأخذها منك لكنه يرى وجه طفلة أنثى وليس وجه صبي. ينهض واقفاً والدهشة في وجهه مختلطة بالحياء الفطري. لكنه مازال يظنك لصة تلبس ثياب صبي، ويظن أن هذا نوع من التخفي لإتقان المهنة.

تنهضين وتعتدلين واقفة في شموخ، وتسألينه في لهفة من أين له هذه المخطوطة. إعتدادك بنفسك وشموخك يجبره على الحوار معك باحترام. يخبرك أنّه اشتراها من رجل غريب. وحين يصف لك ملامحه تدركين أنّه يصف جدّك الحاج. الدموع تنحدر من عينيك. تدركين أن جدّك مرَّ من هنا وأنك لم تختاري الطريق الخطأ. والبائع يتعاطف مع دموعك ويدرك أن المخطوطة غالية عليك، لكنه يطمع في بيعها لك بثمنٍ غال. تستمرين في السؤال عن جدّك الحاج والبائع يقص عليك حكايته. تجلسين متربعة تستمعين إليه وهو يحدثك عن جدّك.

– جاء هذا الرجل العجوز يحمل المخطوطة ليبيعها فيحصل على النقود من أجل الطعام بعد أن باع كل ما معه فقد تعرضت قافلتهم للصوص الذين أخذوا كل شيء وقتلوا البعض منهم وتركوهم بين الحياة والموت. وحين مرت قافلة أخرى وعثرت عليهم أطعمتهم

وأخذتهم إلى (تِيمْبُكْتُو) لكن هذا الرجل كان قد فقد كل شيء. راحلته ومتاعه ولم يبق معه إلا هذه المخطوطة. تردد كثيراً قبل أن يبيعها. كان يأتي بها كل يوم فيجلس حتى مغيب الشمس ثم لا يرضى أن يبيعها فيحملها معه ويذهب فيبيت في المسجد. سكان (تِيمْبُكْتُو) يخبزون رغيفهم في الطرقات والجائع يأكل بغير ثمن، لكن هذا العجوز لم يكن من أولئك الذين يقبلون الصدقات أو يأكلون في الطرقات. كان يأنف أن يمد يده للطعام. لكنه في يوم من الأيام جاء وقد بلغ به الجوع ما بلغ، جاء يحمل هذه المخطوطة التي حرص عليها كأنَّها قطعة منه فباعها وأخذ الثمن وهو يبكي. ثم ذهب وعاد في اليوم التالي وبقي ينظر إليها متحسراً. ثم استحلفني ألا أبيعها إلا له هو بعد أن يعود بثمنها، ووعدني بضعف قيمتها إن حفظتها له ولم يذهب إلا بعد أن حلفت له، ثم ذهب يبحث عن عمل ليكسب بعض النقود حتى يستردها ولكن (تِيمْبُكْتُو) ليس بها مجال للعمل.

- ومن أين يحصل أهل هذه المدينة على النقود إذن يا سيدي؟

- لكى تكسبي النقود هنا في (تِيمْبُكْتُو) يا ابنتي عليك أن تكوني من (الطوارق) أو (الفُلّان) لتباشري مهنة الرعي بالمقابل، أو تكوني من العرب الذين يشتغلون بالتجارة عبر قوافلهم، أو تكوني من (السِّنِغَاي) لتشتغلي بالزراعة والصيد من النهر والملاحة التي تجوب أطراف نهر النيجر لبيع الحبوب والبهارات والأقمشة.





- ولماذا لم يسمحوا لجدي ليعمل مع أي منهم من أجل أن يكسب نقوداً ولو قليلة للطعام والشراب؟

- واضح أنَّه لم يكن يحسن أياً من هذه المهن كما أنَّه كان عابراً مثله مثل كل العابرين الذين يقصدون (تِيمْبُكْتُو) في طريق الحج، والنّاس هنا لا يعرفونه، فبقي متحسراً. لكنه اختفى فجأة مثلما جاء فجأة، ولا أحد يعرف إلى أين ذهب أو أين توجه، والمخطوطة بقيت عندي.

- أنت رجل وفي يا عمي!

- أصدقك القول أنَّه جاءني مشترون كثر ليأخذوا هذه المخطوطة، ولكنِّي كلما أردت بيعها تذكرت وجه هذا الرجل ونظراته إليها فأمتنع عن بيعها، وقد دفعوا لي ضعف أجرها. لابد أن في هذه المخطوطة سراً لا أعرفه. والآن أنت تتعرفين عليها وتسألين عن صاحبها وتقولين إنَّه جدّك! لو تأكدت أنَّك حفيدته حقاً فسوف أمنحك إياها، لكنِّي أريد منك شيئاً بالمقابل فقد دفعت نقوداً مقابلها.

كلام الرجل يملأك حبوراً وثقة في أنك ستقابلين جدّك حتماً، ولكن اختفاءه وعدم عودته لأخذ المخطوطة يخيفك.

- ماذا تريد مني مقابل هذه المخطوطة؟

- كم عندك من نقود؟

- ما عندي شيء. أنا مسافرة ووحيدة وجئت من مكان بعيد.

- حقا؟ ألا تعرفين أحداً هنا في (تِيمْبُكْتُو)؟

- لا يا سيدي أنا وحدي كما ترى.

وتلمع عينا الرجل عند سماع هذا الكلام وترتسم على وجهه ابتسامة ماكرة.

- إذن يمكنك أن تذهبي معي إلى منزلي لتخدمي أمي المريضة، وبالمقابل سوف أفكر في منحك هذه المخطوطة.

- مم تشكو أمك؟

- إنَّها لا تقدر على الحركة، وتحتاج بنتاً في مثل سنك تخدمها، فليس لدى زوجة ولا أبناء ولا بنات، ولا أملك ثمن خادمة. أريدك أن تصنعي لها الطعام وتغسلي ثيابها وترتبي فراشها وتسرحي شعرها وتؤنسي وحدتها طوال فترة وجودي خارج الدار، لأنّني عازم على السفر خارج (تِيمْبُكْتُو). ولو عدت فوجدتك قد خدمتها بإخلاص فالمخطوطة ستكون لك بلا ثمن.

- حاضر ولكن لكم من الزمن تريدني أن أخدمها؟

- امممم.. فلنقل شهراً؟

قالها وهو ينظر للأعلى ويعبث بشفتيه بأصبع واحد.

- أسبوعاً واحداً فقط لأنّني مسافرة شرقاً مع القوافل.

- أسبوعين إذن إلى أن يحين موعد سفر القوافل شرقاً، فأول قافلة لن تتحرك قبل أسبوعين على الأقل.





- موافقة!

وتقبلين عرض هذا البائع بلا تردد فأنت لا تملكين ثمن الطعام ولا أحد معك في هذه المدينة الغريبة. كما أنك تحتاجين أن تستجمعي قواك قليلاً. لكنك تعجبين من سرعة موافقته على العرض الذي تقدمينه، وتنازله عن المدة بهذه السهولة. فلا بد أنَّه لا يملك أي خيار آخر. وربما رأى فيك ما لم يره في بقية الصبايا اللاتي هن في مثل سنك في هذه المدينة النائية في أطراف الصحراء.

تدهشين حين تجدين أنَّه قد أخذه الحماس لهذا العرض، فسرعان ما يجمع كتبه ومخطوطاته وأشياءه، ويطلب منك أن تتبعيه، فتسيرين خلفه. كان يقف كلما مشى خطوات قليلة فينظر وراءه، ليتأكد أنك ما زلت تتبعينه، وأنك لم تكوني تخادعينه حين وافقت على الذهاب معه، فهو ما زال يشك أنك من سكان (تِيمْبُكْتُو)، لأنَّه لا يعقل أن تسافر فتاة في مثل سنك وحدها كل هذه المسافة في الصحراء وبلا مرافق. كان يخالك ستهربين منه في أي لحظة فتتوارين خلف أحد المباني، أو تدخلين أحد الأبواب في أزقة (تِيمْبُكْتُو). بعض البنات اعتدن أن يقضين وقتاً ممتعاً في المزح الثقيل مع الباعة في الطرقات. لكنك ولدهشته لم تفعلي فأيقن أنك لست من أهل هذه المدينة على الحقيقة.

يتجه ناحية أحد المساجد في المدينة، ثم يدلف إلى ردهة ملحقة ببناء المسجد. وتندهشين حين ترين امرأة مسنة يبدو أنَّها كانت فائقة الجمال في شبابها، لكنها الآن شاحبة اللون. وكان بادياً أنَّها مريضة،

فالإعياءظاهر على ملامح وجهها. ترينها جالسة على مقعد خشبي مفروش بقطعة من جلد الضأن المحشو بصوف الغنم. ويسبقك اليها فيتحدث معها بلغة لا تفهمينها، وتحاوره بلهجة غاضبة ونبرة حزينة. وتدركين من كلامها أنَّها ليست عربية، لكن المرأة تخاطبك بالعربية حين تدرك أنك غريبة، وتبادر بقبولك وتدنيك وتقربك، وتسألك من أين أتيت ولماذا أنت وحدك؟ لكن حذرك عند الدخول وقلة كلامك وترددك في الإجابة يجبرانها أن تقبلك كما أنت. تخبرك بمكان الطبخ فهم يطبخون خارج الدار ويخبزون في الطرقات. تخبرك أنك ستكونين مثل ابنتها، وأنَّه يمكنك مشاركتها الطعام والمأوى. وكل المطلوب منك هو أن تعتني بها فتصنعي لها الطعام، وتأخذيها إلى المرحاض، وتغسلي ثيابها. وتسألك هل دخلت المحظرة مع البنات فتعلمت القراءة والكتابة، فتزمين شفتيك علامة النفي، فتفهم وتغضي متألمة، ولكنها لا تريدك أن ترى خيبة أملها فيك أو حزنها عليك كونك لست قارئة.

تكتشفين أنَّها تحفظ القرآن وتجيد القراءة والكتابة. وها هي قد أوجدت لنفسها بعض التسلية، فهي سوف تقوم بتعليمك ما يتيسر من القرآن، أوالكتابة والقراءة خلال هذه المدة القصيرة. كانت تراقبك من بعيد وتلحظ حركتك واهتماماتك. وتختلسين النظرات إليها فتجفل حين تكتشف ذلك، لكنها لا تكف عن النظر إليك حين تغفلين عنها، أو تنشغلين بصنع الطعام أو نظافة الغرفة وترتيبها. كانت امرأة حصيفة أرادت أن تتقرب منك لتثقي فيها





فتفضي إليها بمكنونات صدرك، فقد علمت أن وراءك سراً تخفينه. ودفعها الفضول إلى أن تدعوك لتشاركيها الأكل من طبقها، بل وتطعمك اللقمة في فمك لتأنسي إليها وتبتسمي في وجهها، فتجد أنك مهمومة بجدّك، ومشغولة بأمرك عن الأنس بها.

لكنك في يوم من الأيام، وقبل انقضاء الأسبوعين على غياب ابنها تقررين أن تصارحيها بقصتك، فتخبرينها بحكايتك كلها، ومن أين جئت. وأنك تسعين للحاق بجدّك فأنت تبحثين عنه، وأنك علمت أنَّه مر من هنا لأنك وجدت مخطوطته معروضة عند ابنها، وأنك تنتظرين القافلة التي ستسافرين معها إلى الشرق. تستمع إليك في حزن عميق، ثم تصارحك بسر رهيب يجعل فرائصك ترتعد رعباً.

- اهربي يا ابنتي. اهربي من هذا المكان ولا تعودي أبداً. هذه نصيحتي لك!

- لماذا يا أمي؟ ما الذي جرى؟ ولماذا أهرب؟ ومن الذي يخدمك؟ أريد أن أبقى معك.

- لا شأن لك بي. فقط اهربي وانجي بجلدك. أنا أحببتك غاية الحب من أول نظرة. قلبي يقول لي إنك صبية طيبة بريئة. وحين علمت قصتك الآن ما خابت ظنوني فيك، بل زاد حبي لك، ولهذا لا أريدك أن تتأذي. اهربي واهربي الآن وفوراً.

- ولكن أخبريني ما الذي جرى؟ وما الذي ارتكبته؟ ولماذا تريدينني أن أهرب؟ وما الذي سيؤذيني؟

– هذا الرجل قرر أن يبيعك مع الرقيق القادمين من الجنوب.

– ابنك؟ يبيعني أنا؟ ولماذا؟ وكيف؟ معقول يبيعون البشر؟ هل أنا خروف يا أمي؟

– هو ليس ابني!

– معقول؟ وكيف هذا؟

– نعم. نعم. هو ليس ابني، وهو يستغلني مقابل الطعام والشراب والخدمة. وجدني تائهة في الصحراء ومريضة فأتى بي إلى (تِيمْبُكْتُو). لكن المرض أقعدني كما ترين فلم يفلح في بيعي، فأنا سأكون عبئاً على المشتري لكوني مريضة ومقعدة كما ترين. ولهذا فهو يستغلني بأن يتخذني مصيدة لأمثالك من البنات، يغرر بهن ويخدعهن بخدمتي، ويوهمهن أنّي أمه فيبقين هنا لحين قدوم قافلة الرقيق، وحينها يهجم ليلاً على الخادمة التي تكون معي، وهي غافلة عما يدبر لها، فيوثقها بالحبال، ويربط فمها ويبيعها لقافلة الرقيق. إنَّه يبيع البشر يا ابنتي. كان يخدعك طول هذا الوقت بأنَّه سيبيعك المخطوطة. المخطوطة كانت مجرد خدعة ماكرة لتبقي معي في البيت ريثما تأتي قافلة الرقيق. هو يعمل في هذه التجارة الملعونة التي يبيعون فيها البشر عبيداً. فهو الذي يستقبل القوافل، ويشتري عبيد (البنبارة) و(موش)، القادمين من أسواق (كارتة) و(سيگو) و(زارة)، يقايضهم بقوافل الملح القادمة من الشمال فيشتري الملح ويقايضه بالعبيد.



- وماذا يفعل بهم بعد أن يشتريهم يا أمي؟

- يرسلهم إلى قرية (تشيت) في الغرب، ليبيعهم للتجار والأثرياء هناك. ولكنه يقوم بمثل فعلته هذه التي يفعلها معك طمعاً في المزيد من الربح، لأنَّه لا يدفع مقابلك أي نقود ولا ذهب.

- ولكنه يعمل في تجارة المخطوطات يا أمي!

- لا يا ابنتي. أنت طيبة القلب. المخطوطات ليست إلا واجهة لهذه التجارة الغبية التي تدر المال الوفير. هذا الرجل الذي خدعك بأنَّه ابني هو في حقيقته تاجر قبيح الأخلاق والأفعال، يشارك في عمليات الخطف من القبائل الوثنية الإفريقية مثل (البنبارة) و(موش). وحينما لا يتوفر العبيد يشارك في عمليات خطف أبناء القبائل المسلمة من (الفلان)، و(السوننكي) و(السونغاي) و(المالنكي) ليبيعهم عبيداً. وطالما نصحته أن هذه تجارة محرمة ولا بركة فيها، ولكنه لا يسمع نصحي ولا يرتدع. اهربي يا ابنتي. اهربي. احملي متاعك الآن واخرجي. أنا أعرف قافلة متوجهة إلى الشرق فجر الغد. اخرجي خارج أسواق المدينة وتوجهي شرقاً، وعلى مسيرة ميلين ستجدينها قد أناخت جمالها. خذي هذه القلادة الذهبية. وادفعيها ثمناً للسفر معهم. هذه القلادة كانت المهر الذي دفعه لي زوجي منذ زمان. هي أغلى شيء عندي ولا أمتلك غيرها. وقد خبأتها من هذا الرجل القميء فلم يرها، ولو رآها لأخذها مني عنوة. خذيها واذهبي وربي يحفظك.

- حاضر يا أمي سوف أذهب. ولكنِّي حزينة لأخذ القلادة منك مثلما أنّني حزينة لفراقك فأنت مريضة.

- خذي القلادة فقد طابت نفسي لك بأخذها. ولعلي أكفر بذلك عن خطيئتي. خذيها وأنا سوف أتدبر أمري. وسأقول له إنك هربت ليلاً حين كنتُ نائمة. فقط اذهبي أنت ولا تبقي في المدينة ولا تثقي بأي إنسان ولا تتكلمي مع أي شخص. ولا تتلكئي. معظم الوجوه التي ترينها في طرقات (تِيمْبُكْتُو) هذه الأيام هم من تجار العبيد أو من سماسرتهم. ولو علموا أنك وحيدة فسوف يبيعونك لأول تاجر. لاتتحدثي مع أحد، ولا تتلفتي بل امضي في طريقك خارج الأسوار.

تطوقين تلك المرأة بذراعيك امتناناً وعرفاناً، ثم تخرجين ركضاً وأنت تحملين متاعك وتلك القلادة الذهبية. يتجاذبك شعور بالخوف والرعب من هذه المدينة، مع الحزن لمفارقة المرأة التي عاملتك مثل ابنتها، والفرح لنجاتك من تاجر الرقيق. هذه المرأة جعلتك تدهشين، فرغم أن هذا العالم مليء بالقسوة والظلم، لكن ما زالت به بعض القلوب الرحيمة. كما أنَّها أيقظت فيك شعوراً غريباً. شعور البنت نحو أمها، رغم أنك لا تذكرين مثل هذا الشعور فقد ماتت أمك منذ زمان طويل. لكن هذا الصنيع من المرأة أشعل فيك مشاعر جديدة، وأجج توقك للحاق بجدّك. فتنطلقين مسرعة نحو الشرق خارج أسوار (تِيمْبُكْتُو).

قائد القافلة يستخف بك وبمنظرك الغريب حين يرى صبياً ملثماً يسافر وحده. لكنه يدهش حين تقتربين منه فيدرك أنك





أنثى. وحين رأى القلادة الذهبية الثمينة التي أسقطتها في يده فبدت ثقيلة الوزن على نحو غير متوقع، حتى أنها دفعت يده بقوة للأسفل، فوجيء وارتسمت ابتسامة ماكرة في وجهه وهو يوجه بضمك للقافلة، وتخصيص راحلة لك مع النساء المسافرات. أنت نفسك فوجئت بثقل القلادة التي كانت ضمن أمتعتك حين أعطتك إياها المرأة لتكون ثمناً للرحلة، فلم تهتمي بارتدائها في جيدك، أو وضعها حول عنقك، لأنك كنت تعلمين أنَّها لن تكون لك في نهاية الأمر وخاتمة المطاف.

أنت لا تثقين في هذا الوجه الماكر لأنك لا تعرفين ما الذي ينوي فعله بك بعد كل ما مر بك من تجارب مع قادة القوافل، فقد كان فيهم الصالح والطالح. لكنك أصبحت جريئة وواثقة من نفسك، فقد مر بك ما يكفي ليجعلك تتحوطين. بقيتِ تفكرين معظم الوقت فيما سيحل بهذه المرأة الطيبة حين يعود هذا التاجر الخبيث فيعلم أنك قد هربت، أو أنَّها ساعدتك على الهرب. هو شديد المكر، ولا بد أنَّه سيعلم بطريقة ما. ياترى هل سيؤذيها أو يضربها بسببك؟ لكنك لا تريدين أن تشغلي عقلك بمثل هذه الأفكار، حتى لا تشعري بالمزيد من الحزن والقلق.

القلق على جدّك الحاج يشغلك عن أي أمر آخر، فتلوذين بالصمت والوحدة طول الوقت. لكنك أصبحت الآن أكثر ثقة في العثور عليه، فهو قد مر من (تِيمْبُكْتُو) بلا ريب، والدليل هو ما حكاه لك بائع الكتب، أو بالأحرى تاجر الرقيق. وإذا كنت

الآن لا تصدقين ما سمعته منه من قبل، فالمخطوطة لا تكذب، فهي مخطوطته بلا ريب، وهي الآن معك وفي حوزتك. وعما قريب تلحقين بجدّك وتمنحينه هذه المخطوطة. ليتك كنت تعرفين القراءة والكتابة لتقرأي منها فتعرفي ما الذي يجعل جدّك حريصاً عليها طوال هذه السنوات.

تنطلق القافلة شرقاً عند الفجر في موعد خروجها المضروب. وامرأة في القافلة تلاحظ أنك تسيرين وحدك فتلحق بك لتسير بالقرب منك. وقائد القافلة يكف عن مراقبتك حين يراك تتحدثين مع هذه المرأة، لأنَّه يظن أنَّها أختك الكبرى، أو أنكما مسافرتان معاً. وتكتشفين أنَّها امرأة فقيهة عالمة. وتخبرك أن اسمها «ميمونة»، وأنَّها قادمة من (فاس) بالمغرب، لكنها في طريقها إلى موطنها ببلاد (عَلَوَة). وأنَّها نشأت في (سُوبَا) العاصمة ثم تزوجت أحد أقاربها، وحين كانا في (فاس) توفي زوجها، فقررت العودة إلى ديارها في (سُوبَا) بعد أن قضت أشهر العدة عند أهل زوجها. وتحكي لك أنَّها من الأسر المغربية المقيمة في (سُوبَا) وما حولها، وأنَّهم نزحوا إليها من (دنقلة)، وأن لها أقارب بين البحرين الأبيض والأخضر، وأيضاً من المغاربة رعاة الإبل فيما بين (سُوبَا) والشرق ناحية (البُطَانَة). وتحدثك بِنَسَبِهَا فتخبرك أنَّها بنت «عبد الله ولد عبد الرحمن ولد عبد الخالق ولد عبد الواحد ولد يحيى ولد عبد الصمد ولد الشيخ أحمد ولد عبد الله ولد محمَّد زروق». وأنَّها حفيدة الشيخ «حسوبة» الذي نزح إلى (سُوبَا) منذ مدة، وتوفي منذ أكثر من خمسة وأربعين عاماً،





وأن قبره بـ(سُوبَا). ولهذا فهي تعتبر (سُوبَا) موطنها وموطن آبائها وأجدادها، إضافة لكونها ولدت هناك. وحين تعلم بقصتك تدعوك للنزول عندها، وتعاملك مثل ابنتها، فهي كبيرة لتكون أختك.

تخبرك أن طريق القوافل المتجهة شرقاً من (تِيمْبُكْتُو) يتجمع فيه الحجاج من بلاد (شنقيط)، عبر السلطنات الإسلامية على شواطئ النيجر، ومملكة (كانم) ثم عبر بلاد (عَلَوَة). والنّاس أطلقوا عليه اسم طريق الحج. وقوافل الحجيج تغذيها أفرع صغرى من كافة البلاد التي تمر بها حتى تصل (دارفور)، فتتجمع هناك في مرحلتها الأخيرة (للحجاز) فتصير قافلة ضخمة. القوافل تمر عبر القرى المأهولة بالسكان فتتزود بالماء والطعام، وتريح الجمال من وعثاء السفر. والحجيج يستجمون، وبعضهم يتخلف فيبقى، وبعضهم يتزوج من بنات تلك القرى ويقيم. والبعض الآخر لا يصحب القافلة للحج أصلاً، لكنه يحتمي بها ليبيع تجارته، فالقافلة تذخر بالتجار والفقهاء، والمتصوفة المتجولين، والمهاجرين وأصحاب الحرف والصناعات.

وحين ترى المخطوطة ضمن متاعك تسألك عنها فتجيبين بأنك لا تعرفين عنها شيئاً، غير أنَّها كانت لجدّك الذي خرجت تبحثين عنه، وأنك وجدتها عند أحد تجار المخطوطات يعرضها للبيع في (تِيمْبُكْتُو).

وتخبرك أن هذه المدينة تحفل بآلاف المخطوطات وأن النّاس ينطقون اسم المدينة خطأ، فهي في الأصل (تِنْ بُكْتَا)، وقد أسسها (الطوارق). وهم الذين أطلقوا عليها هذا الإسم، وهو مأخوذ من

وصف مهنة امرأة طارقية من (طوارق) (إمقشرن) كان يطلق عليها (تِنْ بُكْتَاوَانْ)، أي حافظة الأمانات والودائع في فصل الصيف إلى فصل الشتاء للسكان، حيث كانوا يودعون عند هذه المرأة أمتعتهم التي يخزنونها في فصل الصيف إلى فصل الشتاء. وأن هذه المدينة شهدت وفود علماء مشاهير من (الأندلس)، أمثال «الوادي آشي» والد «ابن الملقن التكروري» صاحب كتاب (طبقات الأولياء) والرحالة «ابن بطوطة». وبالطبع أنت لا تفقهين شيئاً مما أخبرتك به، غير أنك أصبحت أكثر سعادة بهذه المرأة الفقيهة العالمة، التي تتحدث عن العلماء والمخطوطات، فتأنسين إليها. وتنطلق القافلة بكما نحو المجهول. وفي الطريق تسألك بلطف:

- هل يمكنني رؤية مخطوطة جدّك؟

- بالطبع. إليك المخطوطة. اطلعي عليها وأعيديها لي.

- بكل تأكيد.

وتعجب «ميمونة» من حرصك على المخطوطة، لكنها حين تطالعها تتملكها الدهشة والعجب، فتسألك على الفور:

- من أين لجدّك هذه المخطوطة يا «صُلَيْحَة»؟ أين وجدها؟

- لا أدري ولكن لماذا تسألين؟ وما الذي تحتويه؟ فأنا لا أعرف القراءة ولا الكتابة!

وتخبرك بمحتويات المخطوطة!

- انظري يا «صُلَيْحَة». هذه المخطوطة لا تقدر بثمن فهي المخطوطة الأصلية. وأنا أعرف خط مؤلفها الذي كتبها هو..





سنوات الحصار

حين فتحت عيني في ذلك اليوم وأفقت من هذه الرحلة العجيبة عدت لواقعي، وعلمت أن جدّتي «صُلَيْحَة» كانت ترى كل هذه الأحداث معي وتعيشها مرَّة أخرى، وأنَّها تركتني أسترسل في السرد حتى أقرر أن أفيق وحدي دون تأثير منها. ولذا فقد قررت ألا تنبهني حتى لا تقطع سير الأحداث. ويبدو أنَّها استغرقت معي في الرؤية فأعجبتها، لأنَّها تركتني طوال هذه المدة، فقد كانت مستمتعة، لكنها حركت يدها دون قصد فلمستني، فانتبهتُ وانقطعت الرؤيا.

أخبرتني أن اليوم الذي أدخلتني من بابه كشف لها تفاصيل أحداث لم ترها حين حكاها لها زوجها - الذي هو جدي - أو الأحداث التي شاهدتها هي وابنها - الذي هو أبي- فقد أدخلتني من باب يوم الاثنين، وهو الباب الذي دخل منه جدي. وأننا رأينا معاً كثيراً من الأيام التي لم يرها جدي معها. لكننا لم نتمكن من رؤية ما دار في بقية تلك الرحلة إلى (سُوبَا). فالطريق كان يمر ببلاد (كانِم) و(دارفور) و(كردفان)، ثم يعبر النيلين إلى (سُوبَا). ويبدو أن أنفاس «صُلَيْحَة» ليست معنية بتسلسل الأحداث، و لا الأماكن، ولا بطريقة حكايتها. فهي فقط تستعيد ما ترغب

«صُلَيْحَة» في رؤيته، أو ما تريدك أن تراه معها. وعليك أن تعيشها وكأنك تشاهد رؤيا منامية، لكنك في واقع الأمر تراها على الحقيقة. وأنت وقتئذٍ لا تملك إلا أن ترى، ولا تملك تغيير تلك الأحداث، ولا التأثير في الرؤيا، فهي قد حدثت وانتهت منذ زمان، وما أنت إلا شاهد عليها. وعرفت الفرق بينها وبين الرؤيا. فالرؤيا تحدث في النوم وتحكي عن شيء لم يقع، لكن هذه الرؤية تحدث في اليقظة وتستعيد أحداثاً قد وقعت في الماضي على الحقيقة.

حين انتقلت معها في المرَّة الأولى ورأيت نفسي في تلك القرية البعيدة في بلاد المغرب كنت كمن يعبر جسراً بين مكانين، فكلما اقتربت من الماضي تلاشى ارتباطي بالحاضر وضعف شعوري به، وزاد ارتباطي بالجانب الآخر، ووضحت لي الأشياء والأصوات والأماكن والأشخاص. النقلة من هاهنا إلى هناك كانت هي تماماً مثل الخروج من باب بيتك إلى الطريق. فكأن بيتك هو الحاضر، بينما الطريق هو الماضي. فجأة تجد نفسك بين النّاس ووسط الأحداث التي مضت قبل خمسين أو ستين من السنين. وما إن تخرج حتى تتلاشى روحك في روح «صُلَيْحَة»، فتصبح أنت بكيانك وعقلك وحواسك جزءاً من ذلك الماضي، وروحاً تسري في أروقته وتسير في طرقاته. لكنك ترى بعين المراقب الغريب وليس بعين «صُلَيْحَة» المشاركة في صناعة الأحداث.

ما رأيته على الحقيقة حين عدت معها إلى ماضيها زادني ارتباطاً بها، مثلما زادني ارتباطاً بماضيها الذي استحوذ على خيالي فغبت





عن دنيا النّاس. صرت بعد ذلك أرى حاضري وكأنَّه قد انتقل جميعه ببيوته وطرقاته وناسه وأحداثه إلى ماضي جدّتي «صُلَيْحَة». وكأن هذا العهد قد عاد إلى الوراء كل هذه السنين ثم بقي هناك، واختلط حاضر أيامي عندي بذلك الماضي البعيد.

حين رجعت إلى بيتي وعملي بعد تلك المرَّة الأولى غدوت ذاهلاً عما حولي. أصدقائي وزملائي لاحظوا هذا فظنوا أنّني وقعت في حب فتاة، فأصبحت ضحية العشق والغرام. لكنِّي تركتهم للظنون، ولم أشأ أن أحكي لهم ما رأيت على الحقيقة، حتى لا يتحول مزحهم حول هذا الهائم المغرم إلى السخرية مني، فلا بد أنَّهم سيظنون أني قد فقدت عقلي، أو أصبحت أعاقر الخمر أو أتعاطى المغيبات والمفترات، أو أصابني مس من الجنِّ أو طائف من الشيطان فخالط عقلي بنصب وعذاب. ربما لو أخبرتهم بما رأيت ما كانوا ليترددوا في حملي إلى الشيخ المعالج ليرقيني ويعوذني، أو يضربني بالسياط.

تمنيت لو أنّني عشت معها زمانها على الحقيقة، فهو مليء بالأحداث مترع بالمغامرات. لقد عاشت جدّتي طفولة معذبة، لكنَّها فيما رأيت حتى الآن كانت طفولة عامرة وممتعة رغم كل ما أصابها. وفي واقع الأمر سرعان ما أدمنت حكاياتها متلهفاً لمعرفة مآلات هذا الهرب الكبير والركض وراء جدّنا الأكبر، إلى أي شيء انتهى، وهل تمكَّنَتْ من اللحاق به أم ياترى خاب أملها فرضيتْ من الغنيمة بالإياب أو البقاء في (سُوبَا)؟

أصبحت أنطلق إليها مسرعاً كلما فرغت من العمل في كل يوم، بل أنّني كنت أسرح بعقلي وخيالي في عالمها حتى وأنا في عملي، فكنت لا أطيق الانتظار حتى أذهب إليها فأجلس معها على سريرها لنعيش تلك الحكايات، ونغيب عن عالم الحضور والشهود.

حين عدت إلى بيت جدّتي «صُلَيْحَة» بعد تلك المرَّة الأولى لم أكن خائفاً، بل كنت متلهفاً لمعرفة المزيد. وحين رأت «صُلَيْحَة» هذا قالت لي:

- أرغب أن تحكي لي هذه المرَّة عن (سُوبَا) وأهلها وحياتي فيها، بل وحياة النّاس كلهم في (سُوبَا) وما حولها. لا أريد أن أعرف المزيد عن الرحلة من (تِيمْبُكْتُو) فقد أنهكني السير وأضناني السفر، وأصبحت أرغب في نسيان ما شهدته فهو ليس مسلياً أبداً. وبدلاً منه أريدك أن تحكي لي عما جرى في تلك المدينة الغريبة المليئة بالمفاجآت والفواجع. أريدك هذه المرَّة أن تطير حراً في أرجائها وأنحائها، وتعرف ما يدور ثم تعود فتحكي لي. أريد أن أعرف عبرك ما لم أره حين كنت فيها. أخبرني أنت به. تعال يا ولدي. هنا مكانك واقترب من جدتك. أسمِعْني وأطربني.

- حاضر يا جدتي. أنا أكثر منك شوقاً وتلهفاً لذلك. فقد حدثوني عن (سُوبَا) وحكاياتها، لكنِّي أريد أن أعرف الحقيقة معك. ولكن هل نستطيع الوصول إليها من فورنا هذا؟ هل يمكننا السيطرة على الأحداث؟ وهل يمكنني الطيران حراً حيث أشاء؟ هذا دون اصطحابك إلى تلك الأماكن؟





– نعم يمكنك ذلك ما دمت أنت من سيحكي ياولدي وليس أنا. فقط أغمض عينيك واحتشد وانس ما حولك. واعزم على رؤية ما ترغب. فسوف تجد نفسك وقد انتقلت إلى المكان، ورأيت النّاس وشاهدت الأحداث. لكن أرجوك اصطحبني معك حتى نرى الأحداث معاً. ها نحن روحان امتزجا. ها أنا قد أدخلتك إلى عالمي لأنظر بعينك أنت. قل لي الآن ماذا نرى أنا وأنت!

– نعم نعم. الآن أغمضت عينى. والآن دخلت معك. وعبرت من خلال روحك وعقلك إلى هناك. ها أنا ذا الآن أرى القافلة تقترب من (سُوبَا). وها أنت ذي يا «صُلَيْحَة» ومعك «ميمونة». الشمس غيرت سحنتك فأصبحت سمراء. والإعياء والتعب الشديد باديان على محياك. ها أنت عند أسوار (سُوبَا) تحطين الرحال. وأهل (سُوبَا) يستبشرون بالقافلة القادمة، فهي قد جاءت بعد انقطاع القوافل فترة من الزمان. القوافل التجارية وقوافل الحجيج تحمل معها خيراً كثيراً. تراودك نفسك بالبقاء في (سُوبَا) لأَنَّهم أخبروك أن القوافل المسافرة للحج لابد أن تمر بهذه المدينة حتماً. وتتساءلين ياترى هل سبقك جدّك في طريقه للحجاز فمر من هنا، أم أَنَّه مازال في الطريق إلى (سُوبَا)؟ وتقررين الانتظار لملاقاة القوافل والسؤال عنه. ياترى هل قابلوا قافلته أو رآه أحدهم أو عرفه؟

وحين أخبرتك «ميمونة» أن قافلتكم قد قطعت المسافة من (تِيمْبُكْتُو) إلى هذه البلاد خلال مدة يسيرة لأَنَّها جدت في السير ولم

تتوقف في الطريق كثيراً يتسرب الأمل إلى قلبك من جديد في أنك قد سبقت قافلة جدّك إلى هنا وأنَّه لابد آت وأنكما ستلتقيان.

وتسيرين في طرقات (سُوبَا) لتتعرفي عليها. وتتجولين في أسواقها فتفاجئين بأنَّها خليط من الألوان والأجناس والأنفس والقبائل. الآن تعرفين أسماء قبائلهم وأعراقهم: العرب و(النوبة) (العَنَج) و(الهَمَج)، بلهجاتهم المختلفة وألسنتهم، لكن العنصر العربي غالب عليها وكذا اللسان، فالجميع يتحدث العربية جنباً إلى جنب مع تلك اللهجات واللغات. ومثلما أدهشك هذا تدهشك المدينة بسحرها وجمالها. ويخبرك أهلها أن (عَلَوَة) ظلت في الزمان القديم تتمدد وتنتشر مثل السحاب فوق أرض (البُطَانَة) فيسري سلطانها شرقاً ليحكم شعب (مرنكا) في أعالي (عَلَوَة) إلى الشرق ثم يمتد إلى (المكادة) و(أكسوم) و(تفلين) وحتى (البجاة) الذين عند ساحل البحر. وينساب غرباً ليحكم قبائل (الحَمَر) و(الفنكور) و(الداجو) و(كاتول) وسحرة (الكرنينا) الذين ينتشرون بين البحرين الأخضر والأبيض اللذين يجريان ماء عذباً في وسط البلاد. ويمتد ظلها جنوباً إلى تخوم شعب (تُكْنَة) العُرَاة في أقصى الجنوب. لكنها في آخر الأمر تعرضت لإغارات مملكة (زغاوة) على طرق القوافل التجارية ما بين بحيرة (كانم) غرباً إلى النيل شرقاً وذلك على مدى أكثر من مائة سنة ماضية. (عَلَوَة) أصبحت هدفاً للغارات، فهي محاصرة بين ممالك طامعة وقبائل مهاجرة، تقاتل من أجل الأرض، وترغب في الاستحواذ على الثروات.





وتخرجين بعد أيام قضيتها طريحة الفراش بعد عناء الرحلة، وتسيرين في الطريق قاصدة سوق الخُضَر. هناك رجلان أمامك في الطريق يتحاوران. هما الآن منشغلان بالحديث ومنفعلان به لدرجة أنَّهما لم ينتبها أنك قريبة منهما، وأنك تسمعين كل كلمة يقولانها، فأنت تسيرين وراءهما مباشرة، فتستمعين بالرغم منك إلى هذا الحوار الذي يدور:

– استدعاني البَطْرِيَرْك أمس إلى مقره يا «أُرْصُد».

– البَطْرِيَرْك من؟

– «دِيرين»! وهل هناك بَطْرِيَرْك غيره في (سُوبَا)؟

– هاها. أضحكتني وكنت حزيناً يا «كُرْشَابْ».

– أليس «دِيرين» هو بَطْرِيَرْك الكنيسة في (عَلَوَة)؟

– أي بَطْرِيَرْك يارجل؟ هذا المحتال الكذاب «دِيرين» ليس بَطْرِيَرْك أصلاً وإنما هو الذي نصب نفسه. والسؤال هو كيف يجرؤ على تنصيب نفسه بنفسه دون موافقة كنيسة الإسكندرية التي تخلت عن (عَلَوَة) منذ زمان وامتنعت عن إرسال الأساقفة أصلاً ناهيك عن تنصيب البطاركة. فكنيسة (عَلَوَة) الآن تائهة لا تتبع للإسكندرية ولا هي كنيسة حبشية ولا هي كنيسة أصلاً. بل هي لم تعد تعرف مذهبها هل هي يعقوبية أم ملكانية.

– فلنقل إنَّه أخطأ في تنصيب نفسه بَطْرِيَرْكَاً بعد أن تجاهلته كنيسة الإسكندرية وتنكرت له الكنيسة الحبشية. أليس هو الرجل

الأول في كنيسة (عَلَوَة) ويحق له أن يستدعي شعب الكنيسة ويتكلم باسمها؟

– هل نسيت أم تريدني أن أذكرك بأن «دِيرِين» لا صلة له بالدين ولا بالمسيحية، وإنما هو جامع كنوز وأموال يتكسب من ورائها، ويخدع المسيحيين البسطاء الذين لا يعرفون شيئاً عن المسيحية أصلاً حتى يتجمعوا حول الكنيسة، فأصبح يستغلهم باسم الديانة، بعد أن رأى انفضاض المسيحيين عنها وزهدهم فيها. وبعد أن رأى الخطر الماحق يتهدد سلطته وأمواله وتجارته؟

– ولكنه على الأقل حاول أن يفعل ما تخلت عنه الإسكندرية.

– يارجل! لو كانت الإسكندرية ترجو منه أو من (عَلَوَة) خيراً لاستمرت في إرسال الأساقفة إلى هذه البلاد. ثم كيف يصبح هو بَطْرِيَرْكاً وهي لا تكون إلا لشخص واحد فقط في زمانه ولا تكون إلا للعظماء؟ بل إنَّه لا يوجد أساقفة أصلاً لينصبوه من بينهم! وكيف يكون هو البَطْرِيَرْك وهو لا يعرف طقوس الكنيسة ويجهل حتى كيفية أداء الصلوات؟ ولم يكن شماساً في يوم من الأيام. من الذي نصبه؟ ألم ينصب نفسه بنفسه؟ ياللسخرية! هذا الرجل لا يفقه إلا في جمع الأموال وتقديم القرابين عند المذبح وتعميد النساء بالماء عندما يختلي بهن. ألم تر ولعه بالنساء وافتتانه بالحسناوات؟ هل هكذا تكون حياة البطاركة؟ هذا الرجل لا شأن له بالكنيسة.

– لكنِّي لا ألومه فالجميع تخلى عن الكنيسة ولم يبق إلا هو بعد



أن قتلوا آخر كاهن بعثت به الإسكندرية إلى (سُوبَا)، وقد امتنع الكهنة بعده عن المجيء خوفاً على حياتهم. وبصراحة أنا لا ألومهم أيضاً فمن يقبل أن يأتي ليكون ضحية للمؤامرات الخبيثة التي تدبر في كل مكان. الكنيسة أصبحت وسيلة لجمع الأموال فقط. ونتيجة لهذا أصبح شعب الكنيسة يجهلون دينهم، فلا هم بالمسيحيين ولا هم بالمسلمين أو اليهود. هؤلاء (العَنَج) فقدوا مسيحيتهم تماماً لكنهم على الأقل يأملون أن يكونوا مسيحيين. الكنائس أصبحت بدون رعاية رجال الدين، فنسوا كل شيء عن المسيحية. (النوبيون) هجروا الكنائس والبَطْرِيَرْك سرق ذهب الكنيسة!.

- ألم تر أنَّه في العام الماضي بعث إلى نجاشي (أكسوم) ليرسل إليه من يرشدهم في دينهم واعتذر النجاشي عن تلبية هذه الرغبة؟

- نعم نعم. واضح أننا أصبحنا في عزلة تامة فمملكة (مقرة) في الشمال سقطت منذ زمان واعتنق أهلها الإسلام. كل من حولنا أصبحوا مسلمين يا «أُرْصُد».

- كِيرْيَالايْصُون، يارب ارحم. ولكن لم تقل لي لماذا استدعاك البَطْرِيَرْك أمس يا «كُرْشَابْ».!

- كان يريدني أن..

وينتبه الرجلان أخيراً إلى أنك تسيرين خلفهما فيلوذان بالصمت، وينشغلان بالنظر إليك عن إكمال الحوار. لكن حوارهما كشف لك عن واقع هذه المدينة ويأس أهلها من الكنيسة. وتتساءلين ما الذي

يجعل «أُرْصُد» حانقاً هكذا على البَطْرِيَرْك وعلى الكنيسة بينما يدافع عنها «كُرْشَابْ» بكل قوة؟ ولا تجدين جواباً فقد انقطع الحوار. وحين تعودين في ذلك اليوم إلى دار مضيفتك «ميمونة» تلاحظين أنَّها ساهمة واجمة وأنَّها غير سعيدة فتسألينها.

- اشنو وَقَعْ مِّي «ميمونة»؟ ماذا حدث؟

- ما زلت تتحدثين باللهجة المغربية مع أنّني علمتك لهجة أهل (سُوبَا)!. تعلمي لغتنا يا «صُلَيْحَة» وإلا لعرف النّاس أنك وافدة من المغرب، وطمعوا في بيعك رقيقاً. هل تصدقين أنّني حين كنت في (فاس) وكنت أتكلم بلهجة أهل (عَلَوَة) كان النّاس هناك ينظرون إلى بعين التعجب، والبعض منهم لا يفهم كلامي ولا لهجتي، مع أنّني أتكلم العربية الواضحة.

- حاضر يُمَّه ولكن ما قلت لي، مالك سرحانة؟

- أهاا ! ها أنت الآن تتكلمين مثلنا! أحسنت. وأجيبك بأن الأمور في (سُوبَا) لا تبشر بخير يا «صُلَيْحَة». لا بد أن «دِيرين» ينوي شراً، فهو يستدعي الجميع ويختلي بهم، ويدس الأموالَ في أيديهم وجيوبهم، ويحرضهم على من بقي من العرب والمسلمين في المدينة. وصلتني الأخبار حين كنت في فاس أن «دِيرين» هو وراء مؤامرة اغتيال الأمير «أُونْدِي» وتشريد زوجته الأَمِيرة «دُوَانَة». والله وحده يعلم أين هي الآن وما الذي حدث لها.

- ولماذا فعل هذا؟





– لأن الأمير «أُونْدِي» هو من سمح للقبائل العربية المهاجرة بالتوسع في المباني في (سُوبَا)، ومنحهم الأرض لبناء الدور، وسمح لهم بالتجارة في أسواق (سُوبَا). وبفضله كثرت أعداد العرب والمسلمين في (سُوبَا) التي تحولت إلى مدينة مسلمة أكثر من كونها مسيحية. لكن «دِيرِين» ذهب خارج (سُوبَا) فجمع الجيوش من (الأحباش) و(البجة)، وعاد توَّاً إلى (سُوبَا) وطرد العرب منها، وأحرق بيوتهم وباع نساءهم رقيقاً وعبيداً. ولن يسكت العرب على هذا الظلم، والحرب لابد واقعة، فمن حولنا من العرب هم في واقع الحال أصبحوا أكثر عدداً من (النوبة) الأصليين في (سُوبَا) وخارج أسوارها وما حولها. وكما ترين (سُوبَا) مدينة محاصرة من جميع الاتجاهات الآن. وعرب (القَوَاسْمَةْ) الغاضبون لسبي النساء العربيات وبيعهن رقيقاً لن يسكتوا أبداً هم وحلفاؤهم. وهم لابد سيدخلون (سُوبَا). وإذا دخلوها فلا بُدَّ أَنَّهم سيدكونها فوق رأس «دِيرِين» وأعوانه.

– أرعبتني !

– هاها. أرعبت من؟ أنت؟ أنت يا «صُلَيْحَة» لا يرعبك شيء ولا تخافين من شيء. ولولا هذا ما أخبرتك.

وفي اليوم التالي تخرجين فتتجولين في السوق الذي يقع خارج أسوار (سُوبَا). وتفاجئين بسوق العبيد الذي حدثتك عنه «ميمونة». تسمعينهم يتحدثون عن تجارة الملك في بيع البشر وأن الكنيسة تغض الطرف عن ذلك، فقد قام الملك مؤخراً بأسر عدد

كبير من العرب الذين كانوا يقطنون (سُوبَا) وباعهم رقيقاً لجيرانه في الشمال، وهذا يحدث لأول مرَّة في تاريخ (عَلَوَة). وواضح أنَّه حدث بتحريض أو مباركة من الكنيسة نفسها. فالملك يطمع في الأموال، وجيران (عَلَوَة) في الشمال والغرب يريدون الحصول على الرقيق بأي ثمن من أجل دفع البَقْط للمسلمين. و(المماليك) أيضاً لا يشترون الرقيق إلا من هنا، ولذلك فهذا النوع من التجارة هو الرائج ويدر الربح الوفير. لكن الملك بعمله هذا أغضب القبائل العربية من سكان (سُوبَا)، وجلب على نفسه وعلى (سُوبَا) السخط والمصائب، فالعرب القاطنون في (سُوبَا) لا يقبلون أن يباعوا رقيقاً أبداً. هذا الصنيع وحده يكفي لإشعال الحرب.

(سُوبَا) أصبح الآن يتهددها الغضب العربي من الداخل، فقد شهدت هجرات عربية كثيفة من قبائل (جهينة) في السنوات الأخيرة، فصبغة سكانها اليوم عربية إسلامية أكثر منها مسيحية، إلا أن مبانيها ما زال يغلب عليها الطابع المسيحي، لأن (عَلَوَة) بها أكثر من أربعمائة كنيسة توزعت في أرجائها، لكن لا يوجد بها غير مسجد واحد فقط، والمسلمون يتجمعون جميعاً للصلاة في نفس المسجد، ومعظمهم من القبائل العربية وقليل من (المَحَسْ) و(العَنَج) سكان المنطقة. ولهذا فإن تجمع المسلمين للصلاة في مكان واحد هو منظر جِدُّ مرعب للكنيسة، لأن أعدادهم تتزايد في كل مرَّة لدرجة أنَّهم أَصبحوا يؤدون الصلوات خارج جدران المسجد، وأحياناً خارج باحته بأكملها، بينما أعداد المصلين في





الكنائس في تناقص. والمدينة تشهد الآن تحولات كبيرة، فما يقوم به الملك من التمادي في تجارة الرقيق يخالف الأعراف والتقاليد. وسيكون وبالاً على (عَلَوَة) كلها، فقد اعتاد النّاس في القديم أن العبيد لا يؤخذون من نفس المدينة التي يباعون فيها، وأن تجار الرقيق لا يكونون من نفس مدينة الرقيق. لكن الملك الماجن أصبح لا يبالي بكل هذا، والكنيسة أصبحت تحرضه على العرب كل يوم. وبالفعل فقد وقعت الخلافات الأخيرة بينه وبين العرب القاطنين حول (سُوبَا)، فعاقبهم بطرد جميع المقيمين منهم داخل أسوار (سُوبَا)، وبالإغارة على مضاربهم خارج الأسوار، وأخذ نسائهم وبيعهن رقيقاً، مما ألَّب عليه القبائل العربية وأوغر صدور أبنائها. لكن الطامَّة الكبرى كانت هي بيع بعض سكان (سُوبَا) من عرب (القَوَاسْمَةْ) عبيداً، فهي التي أوغرت عليه الصدور. والملك الجديد لم يعد مبالياً في الآونة الأخيرة. فمستشاروه قليلو الخبرة والدراية بعد مقتل مستشاره الناصح الحريص الأمير «أُونْدِي» - الذي كان ولي العهد للملك القتيل- في الغارة الأخيرة على (سُوبَا).

انحاز النبلاء للبَطْرِيَرْك «دِيرِين» وللكنيسة في صنيعهم هذا. وأكبر مصيبة حلت على (سُوبَا) هي انفراط عقد الحزم في القصر في عهد الملك الأخير، فالقصر أصبح ماخوراً كبيراً ومكاناً للفجور ونزوات النبلاء والأمراء في مجالس الملك. والرعايا حين رأوا ذلك انغمسوا هم أيضاً في الملذات والشهوات. لقد أمسى مجتمع (سُوبَا) ممزقاً مفككاً ومقسماً.

تخبرك «ميمونة» أنَّها عازمة على اصطحابك إلى بلدة (قَرِّي) إلى الشمال من (سُوبَا)، على مسافة ثلاثة مراحل أو ستة عشر فرسخاً، تقطعانها في مسيرة يومين بالإبل. وأنَّها تنوي قضاء عدة أشهر هناك لتعليم البنات وتحفيظهن القرآن. وأنَّها فرصة لك لتتعلمي القرآن وبعض العلم، فتوافقين على الفور بلا تردد.

وفي صباح اليوم التالي تكتريان راحلتين من سوق الإبل خارج المدينة، وعليهما هَوْدَجان نوبيان، وتنطلقان شمالاً. وحالما تخرجان من (سُوبَا) تدركان أن المنطقة كلها محاصرة بجيوش (القَوَاسْمَةْ)، لكنهم لا يتعرضون لكما بل يسمحون لكما بمتابعة السير حين يعلمون أنكما امرأتان. وفي الطريق تدركين أن المنطقة حتى الحليلة (شُوحَطَتْ) إلى الشمال من (سُوبَا) يسكنها (المَحَسْ) مختلطين بعرب (القَوَاسْمَةْ)، بينما تنتشر القبائل العربية إلى الشمال من ذلك، ومعظمها من قبائل (جهينة).

وبعد مسيرة يومين تصلان قري وتستقبلكما «عائشة» بنت «حمد أبو دنانة» زوجة «عبد الله القِريناتي» زعيم القبيلة، ومعها ابنها الصغير «عجيب» وتنزلان في بيت الضيافة.

«عائشة» هي الزوجة الصغرى لعبد الله، «فعبد الله» له زوجات أخريات أنجب منهن أولاداً فرسان أمثال «إدريس الأنقير» و«محمَّد ديومة» و«أحمد أدركوجه». وتدركين أن «ميمونة» لها حظوة كبيرة عند هؤلاء العرب، فهي عالمة معروفة مشهورة. وتبادر «عائشة» فتسألك:





- ما اسمك يا صبية؟

- «صُلَيْحَة»!

- معقول؟ وهل تعلمين أن لي اختاً اسمها «صُلَيْحَة»؟

- لا أصدق.

- نعم لي أخ واحد فقط هو «الشريف حسن البيتي»، فنحن سبع أخوات، هن «آمنـة» و«مكة» و«حليمة» و«هدية» و«رابعة» و«فاطمة المرضية» الملقبة «صُلَيْحَة».

- و«عائشة» التي هي أنت! هل أنتم (قواسمة)؟

- لا بل نحن (محس)، فوالدي «الشريف حمد أبودنانة» (محسي) أصيل ومعروف نسبه.

- ولكن من أين أتى زوجك «عبد الله القِرِين» يا «عائشة»؟

- كان زوجي «عبد الله» وعشيرته يقيمون في مكان يقال له (جبل مُوْيَة) إلى الغرب من (سنار) أما أنا فقد جئت من الشمال حيث خطبني «عبد الله» من والدي «الشريف حمد أبودنانة » في (دُنْقُلَة) وتزوجنا هناك.

- إذن أصلكم من (دُنْقُلَة)؟

- لا لا. نحن أصلنا من (الأندلس). والدي نزح من هناك إلى (مراكش) ثم حضر إلى هنا عام ٨٧٠ هجرية وجدَّتي والدة أبي هي بنت «الشيخ محمَّد بن سليمان الجزولي».

وتقاطعها «ميمونة»:

- إذن فأنت على الطريقة (الشاذلية) من جهة أبيك يا «عائشة»!

- أبي هو الذي أدخل الطريقة (الشاذلية) إلى هذه البلاد يا «ميمونة». وحين جاء إلى هذه البلاد كان معه أخي «الشريف الحسن البيتي».

- جدّك هو صاحب "دلائل الخيرات" إذن؟

- نعم.

وتقاطعينها:

- "دلائل الخيرات"؟ جدي كان يذكر هذا الاسم وأظنّني سمعت أن لديه المخطوطة الأصلية لهذا الكتاب بخط «الشيخ محمَّد بن سليمان». طبعاً أنا لا أعرف القراءة والكتابة لكن المخطوطة عندي. فربما تكون هي.

- هل المخطوطة معك الآن؟ وهل يمكنني أن أراها؟

- نعم هي معي لا تفارقني. احتفظت بها لجدي. فقد كانت معه لكن يبدو أنَّه اضطر لبيعها في (تِيمْبُكْتُو) ليقتات بثمنها بعد أن أغار قطاع الطرق على قافلة الحج فأخذوا منهم كل شيء. وأنا وجدتُّها هناك مصادفة عند بائع مخطوطات، فعرفتها على الفور لأن جدي كان يحبها جداً ويقرأ منها كثيراً.

وبينما تمتد يدك إلى مخبأتك لتخرجي المخطوطة تقول «ميمونة»:

- نعم هي يا«عائشة». حين رأيتها عندها عرفتها على الفور، وكنت سأقول لها ذلك. لكنّي كنت أعجب من أين لها هذه المخطوطة.





وعلى الفور تصرخ «عائشة» حين ترى المخطوطة، فهي تعرف خط جدّها لأنَّها وجدت مخطوطة الفقه المالكي عند أبيها، وهي بخط يد جدّها الشيخ «الجزولي».

– هذه هي المخطوطة الأصلية لدلائل الخيرات يا «صُلَيْحَة». قيل لنا إن جدّي أهداها للشيخ «الْلَقَّانِي» في (فاس) وهما في طريقهما من (الأندلس). ثم افترقا فذهب جدّي إلى (مراكش) وذهب «الْلَقَّانِي» إلى (فاس).

– نعم جدّي «عبد الحميد الْلَقَّانِي» هو الذي جئت إلى هذه البلاد أبحث عنه يا «عائشة»!.

وتعجبان من هذه المصادفات العجيبة. وتعدك «عائشة» أن تساعدك في البحث عن جدّك ، فزوجها له أتباع في كل مكان، وجيوشه منتشرة في الأقطار. فهو قد تمكن من جمع القبائل العربية ووحد كلمتهم تحت سلطانه ليدير شؤونهم ويخرجهم مما كانوا فيه من الضعف الشديد الذي أحاط بهم من ملوك (العَنَج)، فبايعوه على محاربة هؤلاء (العَنَج). وأنَّه الآن يفتح مدنهم الواحدة بعد الأخرى. ثم رأي أنَّه من الأوفق أن يتعاهد مع ملك (الفونج) المسمى «عمارة دُونْقُسْ» المقيم بجبال (الفونج) بجهة (لول)، على أن يمده ملك (الفونج) بنجدة من عساكره إن احتاج إليها. وأن زوجها تجهَّز بجيوش جرارة من قبائل العرب، وتقدم لحرب (العَنَج) بهذا الجيش العظيم، وأنَّه جالدهم في عدة وقائع حتى الآن.

جَمَّاع

أثناء إقامتكما في ضيافة (القَوَاسْمَةْ) تخبركما «عائشة» بالكثير عن زوجها «عبد الله». كان «عبد الله» يحس بالغبن الكبير وهو يتولى جباية الإتاوات من القبائل العربية المنتشرة حول (سُوبَا) ليدفعها لخزينة (عَلَوَة). فهناك بضع وخمسون قبيلة من قبائل (جهينة) وحدها حول (سُوبَا) عاصمة مملكة (عَلَوَة)، لكنها غير متحدة بل وتخضع لسلطان ملوك (عَلَوَة) وتدفع الإتاوات إلى ملك (عَلَوَة)، بينما يتولى «عبد الله القِرين» بنفسه جمع هذه الإتاوات، فهو المقدم على العرب المسلمين يدفع خراجهم (للنوبة) المسيحية.

«عبد الله القِرين» رجل حكيم وعميق وهاديء الطبع، لكنه في دواخله يتفجر حماسةً وفتاءً وقوة وبأساً وغيرة من أجل العرب جميعاً. وهو قليل الكلام كثير الصمت. لكن صمته يخفي وراءه المفاجآت، وما عليك إلا أن تستفزه للكلام فيتحفك بالكثير من المعلومات في قليل من العبارات، ويدهشك في كل مرَّة. كان يملك كل صفات القائد الهمام. لكنه لا يتكلم إلا بمقدار. ولا يتحدث إلا إذا اقتضت الحاجة. أما صاحبه «عامر» فكان كثير الكلام، وقد اكتسب الجرأة في الحديث من الحوار مع صديقه «عبد الله» لطول عهده به، ولاستمرار الصداقة فقد نشئا معاً وتعاركا معاً منذ أن





كانا صبيين، و«عبد الله القِرِين» يثق بصاحبه ثقة كبيرة، ولهذا فهو يصحبه معه في المهام الخطيرة ليحمي ظهره ويفيده بالنصيحة، ويؤنسه بكلامه في السفر ويكتم أسراره.

كان «عامر» يعلم قلق «القِرِين» على مصير الحرب مع (سُوبَا) لكنه كان يعلم أن «القِرِين» رجل لا تثبطه الصعاب ولا تقعد به التحديات. وفي آخر حوار بينهما علم أن «القِرِين» يسابق الوقت ليسقط (سُوبَا) وحده وأنَّه لا يريد أن يستعين عليها بجيوش (الفونج) أو الغرباء كما يطلق عليهم، فـ(النوبة) يطلقون على الغريب اسم (فونج). و«عامر» يذكر هذا الحوار الذي دار حين سأل ا لقرين:

– أتعبت الخيل يا «عبد الله» ونحن نتنقل في بوادي العربان. نحن بالكاد نبقى يوماً واحداً عند أي قبيلة. فهل لهذا السفر من نهاية؟

– نعم يا «عامر» يوم ندخل (سُوبَا).

– سندخلها إن عاجلاً أو آجلاً فلم كل هذا الاستعجال؟

– نحن نستبق مجيء (الفونج) وتحركهم شمالاً يا «عامر» فهم قوة لا يستهان بها. نريد أن ندخلها وحدنا منفردين قبل أن يدخلوها معنا، لأنَّهم لو زحفوا شمالاً فلا مكان لنا في المنطقة. لكن لو دخلناها قبل مجيئهم نحتفظ بالنيل الأخضر كله من حدودهم إلى حدود بحر (الجعليين).

– أنسيت يا «عبد الله» أنك تدعو القبائل لدخول (سُوبَا) ولم تذكر لهم حكاية الغرباء هذه أو (الفونج) أبداً فهل سيشاركوننا (سُوبَا)؟

– لم أذكر (الفونج) لأنّني أردت أن يتوحد العرب من أجل إسقاط (سُوبَا) ولو علموا أن (الفونج) سوف يشاركون في الحرب فربما يثبط هذا من هممهم قليلاً لأن الفونج سوف تكون لهم اليد العليا في البلاد بعد ذلك، وسيكون العرب مجرد أتباع. فتوحيد العرب هدف في ذاته يا «عامر» وليس إسقاط (سُوبَا). وأنت تعلم أن هؤلاء الغرباء هم تجمعات لقبائل شتى مهاجرة جاء بعضهم من الغرب، وانضمت إليهم أيضاً فلول قبائل (البَرْتَا) التي تسكن التلال الشرقية، وقبائل (بني شَنْقُول) فأصبحوا فجأة قوة لا يستهان بها.

– نعم نعم. لكن أليس هؤلاء عرباً يا «عبد الله»؟

– لا يا «عامر» ليسوا عرباً. لكن أنت تعلم أنَّهم يقودهم رجل هجين هو «عمارة». وهو خليط من العرب وغير العرب، لكنه يزعم أنَّه من سلالة عربية (أموية) هربت من وجه (العباسيين)، وأن أجداده جاءوا إلى (أكسوم) في الشرق ثم توغلوا منها غرباً، وتصاهروا مع القبائل المحلية. وهذا الأمر لا يهمنا، لكن يهمنا أن يكون هناك حلف معه، فهو قد أصبح قوة كبيرة فلو اجتمعنا معاً نملك البلاد كلها.





- لا عجب أنَّه نجح في توحيد كل هذه القبائل.

- العجيب هو أنَّه لا يغضب حين يطلق على مجموعته اسم (الفونج) فهو يعلم أنَّهم غرباء فعلاً، ولهذا فقد قبل بالاسم. نحن نسابق الزمن للاستيلاء على (سُوبَا) يا «عامر» لأنَّه لو قرر أن يدخلها فلا مقام لنا فيها. أنا أعلم أننا لن نستطيع أن نعاديه فهو يملك كل مقومات إقامة دولة كاملة وحده ومستقلاً عن أي مساعدة أو حلف خارجي، لكنني أريد أن أحفظ للعرب حقهم في هذه الأرض، فنحن قد جئنا هنا قبل أن يفكر «دُونْقُسْ» هذا في المجيء إليها.

- «دُونْقُسْ»!! فهذا إسمه إذن! ألم تقل قبل قليل إن اسمه «عمارة»؟

- «دُونْقُسْ» هو لقبه الذي أطلقه عليه أتباعه من (الأمهرة) ومعناها الملك بلغتهم، فهو ملك الغرباء أو إن شئت (الفونج)! ولهذا فربما أسعى إليه لأعقد معه حلفاً لأستبق بذلك هؤلاء (الجعليين) الطامعين في الاستيلاء على المنطقة كلها. لكن الذي يحيرني هو أن «دُونْقُسْ» ليس في عجلة من أمره مثلي، فهو غير مهتم بالتوغل شمالاً ولا غرباً مثل اهتمامه بالاستقرار في (سنار)، بعد أن تقاسم مع بني عمه الأراضي التي حاز عليها من قبائل (البَرْتَا) التي تسكن التلال حتى وصل سهول (أكسوم)، وبعد الانتصار تقاسم مع بني عمه ما حازوا عليه من أراض.

ويصمت «عبد الله» ويستغرق في تفكير عميق. وكان «عامر» قد صحبه في هذه الرحلة دون أن يسأله عن وجهته. فقد كان يظنه متوجهاً إلى أسوار (سُوبَا) ليستطلع الأمر ويتعرف على الأخبار فقد اعتاد أن يفعل ذلك كثيراً بنفسه مؤخراً. لكن القلق بدأ يساوره حين رآه وقد تجاوز الأسوار واتجه جنوباً ثم تجاوز (بُتْرِي) الشرقية عبوراً بمدافن (العَنَج) ثم (أم قحف) حيث مصانع الفخار والآجُرّ المحروق فتململ «عامر» على ظهر جواده ثم غلبه الفضول.

- إلى أين نحن نتجه الآن يا «عبد الله» ؟

- إلى ساقية (شِبيْش) عند منحنى النيل!!

- ساقية (شِبيْش) المهجورة؟

- !!

- ماذا نفعل هناك؟ وهل هناك جنود أيضاً نضمهم لجيشنا؟

- بل هناك جيش كامل يا «عامر»!.

- معقول؟ جيش يعسكر عند ساقية الشيطان؟ هل أصابك شيء؟

- لا لم يصبني شيء، ونعم جيش عند ساقية الشيطان. لكنه جيش من مقاتل واحد. جندي واحد فقط يا صديقي!

- لا بد أنك تمزح! أو أصابتك لوثة الحرب بالجنون.

- بل أنا أعقل منك. فأنت تثرثر كثيراً.



– ولكن الذي أعلمه أنَّه لا يوجد في هذا المكان غير تلك الشيطانة «دُوَانَة». يا إلهي! هل ستستعين بسحر «دُوَانَة»؟

– هشش! لا تذكر اسمها من فضلك، فلا أحد غيرنا يعرف أنَّها مقيمة في هذا المكان. علماً بأنَّها ليست ساحرة. وأنا لا أستعين بالسحرة. لكنّي سوف أستغل رغبتها في الانتقام وتوقها للأخذ بثأر زوجها.

– الآن فهمت! هذا تفكير شيطاني يا «عبد الله».

– بل هي الحرب يا صديقي.

– ولكن كيف عرفت أنَّها تقيم في هذا المكان؟

– ما بك يا «عامر»؟ أنسيت أننا – أنت وأنا – كنا نمرّ من هنا منذ عشر سنوات لنعرف مصدر تلك الأصوات الغريبة، وأنَّا حين وصلنا هذا المكان عرفنا أنَّها تصدر من الساقية عند المنحنى، ثم سمعنا تلك الصيحة المخيفة فدفعنا الفضول لمعرفة مصدرها أيضا؟ ثم رأينا هذه المرأة مثل لبؤة جريحة وعرفنا قصتها بعد ذلك؟

ويمضيان صامتين معظم الطريق. وحين يصلان المكان يترجلان، ويربطان حصانيهما مثلما فعلا آخر مرَّة قبل عشر سنوات. المكان موحش ومخيف ولا أحد يجسر على الاقتراب من هذه الساقية النوبية القديمة، بل إن النّاس يتحاشون المرور بهذا المكان الذي يعلم الجميع أنَّه مسكن الجن. الساقية المهجورة بدت لهما عند منحدر ضفة النهر وكأنَّها أحد أوكار الغيلان، والريح تصفق

دولابها وتدير حلقتها وأسنانها جيئةً وذهاباً فتحدث أصواتاً وأنيناً مثل أنين الجمل السقيم. أهل (سُوبَا) تداولوا الحكاية التي تقول "إن امرأة شيطانة لا يعرفونها تقيم قرب الساقية، وأنَّها المرأة الوحيدة التي لم تخف من الغول الشيطاني الذي يسكن في هذا المكان، بل قصدته واختارته دون غيره من الأماكن لتقيم فيه. وعندما برز لها ذلك الغول ليخيفها سخرت منه وزجرته بل هجمت عليه لتضربه بعصاها الغليظة فأعجبته شجاعتها فكافأها بأن اتخذها صديقة له وسقاها الدهاء والمكر والحيل".

أهل (سُوبَا) لا يعلمون أن المرأة التي لجأت إلى هذا المكان منذ عشر سنوات أو تزيد هي الأميرة «دُوَانَة» بقلبها المفطور، ومعها ابنتها الصبية الصغيرة «أُونَتِّي»، التي لم تبلغ السابعة أو الثامنة، وأن «دُوَانَة» قاتلت لتبقى هي وابنتها على قيد الحياة من أجل هدف واحد هو الانتقام. «دُوَانَة» نَشَّأَت ابنتها على الانتقام لأبيها المقتول غدراً. عاشتا على الثمار البرِّيَّة اليابسة فأكلتا النَبَقَ والدَوْمَ واللالُوبَ هي وابنتها. أكلتا معاً بيض الطيور والحشرات والفئران، وحتى الأفاعي والأسماك الميتة التي يجود بها النيل من حين لآخر. وعندما لا يتوفر ذلك تصطادان الجراد، وتقتاتان من حشائش الأرض. «دُوَانَة» وابنتها أكلتا الأرضة والنمل وأوراق الشجر. وحين يكون الطعام قليلاً لا يسد الرمق كانت الأم تربط حجراً على بطنها ثم تطعم ابنتها أي شيء. أي شيء ليسكت جوعها. أو تجلس بجوارها تفلي شعرها وتهدهدها لتنام على المسغبة وتصحو على المسغبة.





كان النّاس يخافون من الاقتراب من هذا المكان ويهابونه لأنَّهم ظنوا أن الغيلان تسكن فيه، فقد اعتاد أهل (أُمِّ قِحْف) أن يسمعوا صيحة الانتقام الرهيبة التي كانت «دُوَانَة» تطلقها كل مساء من قلب مفطور وصدر مفجوع، فظنوا أن هذا الصوت هو صوت الغول حين يخرج ليتشاجر مع المرأة الساحرة، أو حين يصطاد الفرائس ويمزقها فيطلق صيحة الانتصار. لم يكونوا يعلمون أن «دُوَانَة» كانت تقف عند شاطيء النيل بعد مغيب الشمس في مثل ساعة مقتل زوجها الأمير «أُونْدِي» وتطلق تلك الصيحة. صيحة الغضب الذي لا يسكت، والغل الذي لا يهدأ بل ويتجدد كل ليلة. سكان المنطقة كانوا يخيفون أطفالهم ويمنعونهم من الخروج وحدهم ليلاً حتى لا يخطفهم الغول الذي يطوف في الطرقات يبحث عن السِّعْلاة، أو يصطاد الأطفال ليأكلهم. سكان المنطقة اخترعوا هذه الحكاية لما عجزوا عن معرفة سر هذه الصيحة، لكنهم لم يجرؤوا على الاقتراب من ساقية الشيطان.

«دُوَانَة» بقيت هناك هي وابنتها الصبية «أُونَتِّي» التي كبرت وأصبحت فتاة. بقيتا وحدهما عند تلك الساقية سنوات طويلة حتى نسي النّاس أمرهما، فقد اختارت مكاناً يخشاه أشجع الرجال ولا يقتربون منه.

حين رأتهما قادمين من بعيد لم تعرهما أي اهتمام في بداية الأمر ولم تأبه لهما، بل استمرت في الاهتمام بشأنها ولكن حين اقتربا من وكرها نهضت وانتفضت واقفة، ليس لتحييهما، بل لتأخذ عصاها

الضخمة وتتأهب للقتال إذا اقتضى الحال، رغم السيفين اللذين انتطقهما هذان الرجلان، لكنّهما أبقياهما في غمديهما وهما يتقدمان نحوها، علامة على أنَّهما لم يجيئا لقتال. إلا أنَّها وقفت هناك متأهبة متحدّية غير هيابة ولا وجلة، وهي تنظر إليهما شزراً ولم تنبس بكلمة. وانتظرت مبادرتهما. وحين ألقيا التحية اكتفت بالنظر لكنّها لم تفتح فمها ولم ترد عليهما بمثلها. كانت تعلم أنَّهما لو أرادا قتلها أو إيذاءها فلن يمنعهما شيء، لكنّها ما كانت لتتركهما يقتلانها أو يؤذيانها دون عراك، فهي مثل نمرة جريحة شرسة تعودت ألا تثق في الرجال. لكنّهما حين اقتربا جداً عرفتهما على الفور «فعبد الله القرِين» أشهر من نار على علم، فهو الذي يجمع الجبايات من قبائل العرب ليؤديها إلى ملك (سُوبَا). والكل يعرف أنَّه قائد جيش عرب (القَوَاسْمَةْ) الذي بقي يحاصر (سُوبَا) عامين كاملين، وأنَّه طاف على القبائل العربية مؤخراً يجمع شتاتها، ويؤلف بينها ويحرضها على غزو (سُوبَا) حيث عدوها اللدود. وذاك الذي معه هو «عامر» صديقه وساعده الأيمن.

حين أصبحا على بعد خطوات من وكرها تمكّنا من تبين معالم وجهها وجسدها. كانت كأشد ما تكون النساء نحافة، وقد تركت شعرها منتفشاً كأنَّه وَبَر قِطٍّ يتهيأ للعراك. وكانت عيناها حمراوين مثل جمرتين قد اختفتا في محجريهما وانطفأ بريقهما. لم يبق لهذه المرأة أي معلم من معالم الأنوثة، فقد كانت مثل ميت نبشوه من قبره للتو، رغم أن من يتفرس في معالمها جيداً سرعان ما يدرك أنَّها





كانت من أجمل النساء قبل أن يصيبها ما أصابها. من يصدق أن هذه المرأة الذابلة التي أصبحت مثل زنبقة سوداء أحرقتها شمس الظهيرة، والتي تقف نصف عارية وحافية القدمين، كانت من أجمل أميرات (عَلَوَة)، ومن أكثرهن مالاً وأوسعهن ثراء، بل كانت من أشدهن احتراماً وسط النبلاء والنبيلات والقصر وسكان (سُوبَا)!.

– سلام سلام أيتها الأميرة. جئنا في سلام. ما جئنا لنؤذيك. هلا نحيت هذه العصا فضلاً؟

– ماذا تريدان؟

– تعلمين أنّي «عبد الله القِريناتي» قائد جيوش (القَوَاسْمَةْ)، وهذا «عامر» صديقي. وأعترف أنّا تأخرنا كثيراً في المجيء إليك، لكننا على كل حال جئنا لنساعدك. ولتستعيدي كرامتك المجروحة. ألا تحبين أن ترى من آذوك وغدروا بزوجك أذلة تحت قدميك؟

حين سمعت هذا الكلام تغيرت نظراتها، وارتسمت علامات الحزن على وجهها مختلطة بالصرامة والتصميم. لكنَّها لم تتكلم وكان صمتها هو إشارة لـ«عبد الله» ليستمر في الكلام. و«عبد الله» جد بارع في استرعاء الانتباه فهو ينتقي كلماته بحذر ويعرف المداخل لاستمالة محدثه.

– نحن بالطبع نعلم ما الذي حدث لزوجك. وكيف تآمروا عليه ثم غدروا به فقتلوه. وكيف سلبوك أموالك ومزارعك وقصرك وممتلكاتك. الكل يعلم هذا ولا يخفى على أحد فلا شيء في (سُوبَا)

يبقى سراً. وربما أصبحت تعلمين ما يجري الآن فالملك الذي تم تنصيبه بعد مقتل الملك السابق «عفايق» أصبح ألعوبة في أيدي الكاهن «دِيرِين» المجرم وعصابته من القتلة والسفاحين. (سُوبَا) أصبحت مرتَعاً للظلم والفسق ومفرخة للمؤامرات والحروب. والعرب الذين حول (سُوبَا) كلهم أجمعوا على الأخذ بثأرهم والقضاء على هؤلاء الظلمة الذين تسلطوا على رقاب النّاس. ونحن لا نرغب في سفك المزيد من الدماء أكثر مما سفكوه لكننا نريد أن نترفق بشعب (سُوبَا) المظلوم. وأنت تعلمين أننا حاصرناها وقطعنا عنها المؤن والإمدادات، وقطعنا طرق القوافل الوافدة إليها، وما زلنا نحاصرها، لكننا لا نريد أن يطول هذا الحصار حتى لا يموت عامة الشعب من الجوع والأوبئة، فقد مضت سنتان على الحصار، والقوافل انقطعت عن المجيء إلى هنا وضاق الحال بالنّاس.

- وماذا تريدان منّي؟

- أنت تعلمين الكثير عن (سُوبَا) أكثر منا بحكم وجودك في القصر ومع النبلاء، وبحكم زوجك المغدور به. تعرفين القادة والأسرار وتعرفين أين تكمن قوة الجيش، فزوجك كان قائد الجيش قبل أن يغدر به النبلاء. لا أظن أنك تحتاجين منا إلى أي مساعدة بل نحن من يطلب منك المساعدة بإعادة الأمور إلى نصابها. وحين تفعلين أعدك باستعادة كل ما سلبوه منك وإرجاعه إليك.

- وهل يمكنك ذلك؟ وهل تقدر على إعادة الماضي؟





كان واضحاً من سؤالها الاستنكاري أنَّها تقصد زوجها المقتول غدراً.

– بالطبع لن أستطيع أن أعيد إليك زوجك الأمير «أُونْدِي» فهو قد ذهب ضحية الخسَّة والدناءة، لكنِّي أعدك بأن أمكنك ممن غدروا به لتفعلي بهم ما تشائين، حتى يعلم النّاس جميعهم في (عَلَوَة) أنَّك قد أخذت بثأرك. كما أعدك أن أعيد إليك كل أملاك زوجك التي سلبت منه جنباً إلى جنب مع أملاكك.

ساد صمت طويل. كانت «دُوَانَة» واقفة في أثنائه وكأنَّها تمثال من تماثيل (سُوبَا) السمراء بجسدها الخُلاسي النحيف وتفاصيلها الدقيقة. لكن نظراتها كانت تقول كلاماً كثيراً. بقيت واقفة وتركت الريح تعبث بشعرها الأشعث وبقايا ثيابها القديمة المهترئة. ثم أومأت أخيراً بالموافقة. ولم تنظر إليهما. ثم قالت كلاماً وعبارات جعلت شعر رأس «عامر» يقف من هول ما سمع.

– لا أريد أموالاً ولا أملاكاً فقد وهبتكم كل أموال (سُوبَا) وأملاكها غنائم حين تدخلونها. خذوها جميعها. زوجي هو الذي كان أحق بالملك بعد مقتل الملك السابق «عفايق». وطالما أنّني وريثته من بعده فقد وهبتكم جميع رجالها عبيداً وبناتها ونساءها إماءًا. لكنّي أطلب منكم بالمقابل أن تمكنوني من القتلة. لقد بقيت عطشانة للأخذ بثأر زوجي عشر سنوات وكأنَّه اغتيل اليوم. أريد أن أروي ظمأي فأشرب من دم الكلب «مَنْدُو» مخلوطاً بدم الخنزير «دِيرِين». أريد أن أرى قصورهم خرائب ينعق فيها البوم،

وكنائسهم مسواة بالأرض والحرائق مشتعلة في بيت كل إنسان في (سُوبَا) رأى رأس زوجي الأمير «أُونْدِي» ولي العهد مقطوعاً ومعلقاً في ساحة المدينة ولم تمتد يده لتنزله من حيث علقوه. أريد أن أقطع كل يد لم تحمل السلاح لتنتقم من أولئك السكارى القتلة.

- لك ذلك. أعدك أنا «عبد الله القِريناتي» ألا يبقى في (سُوبَا) حين أدخلها بيت قائم إلا نقضت أركانه وهدمت بنيانه ولا ظالم إلا علقت رأسه عند أبواب (سُوبَا) وفوق أشجارها وفي أسواقها.

حين طلبت «دُوَانَة» تشويه وجهها وتمزيق ثيابها وحلق شعرها أدرك «عامر» أن هذه المرأة مستعدة لأن تفعل أي شيء في سبيل الانتقام. وأنَّه لن يقف أمامها شيء. تغيرت قناعاته حول «دُوَانَة» وازداد إيمانه بأن هذه المرأة ليست من البشر قطعاً. لا بد أن تكون جنياً في ثياب إنسان. وفي الوقت الذي كان «عامر» يقف محتاراً فاغراً فمه من المفاجأة كان «عبد الله القِرين» يقوم بحلق شعر رأسها ثم تشويه وجهها بأعصاب باردة ودون أن تطرف له عين. وحين أطلقت «دُوَانَة» صيحة ألم مكتومة إثر الجرح الغائر الذي أحدثه السيف في وجهها استيقظت ابنتها - التي كانت نائمة داخل الوكر- فزعة لما سمعت صوت أمها، فخرجت شاهرة خنجراً في يدها. ولما رأت «عبد الله القِرين» ممسكاً بسيفه والدم يسيل منه ظنت أنَّه جاء ليقتلهما فانقضت عليه دون تفكير، لكنه تفادى طعنتها في آخر لحظة، قبل أن يتحرك «عامر» ليمسك بها ويهديء من روعها، ثم يشرح لها أن هذا الذي يحدث هو لمصلحتهما معاً هي وأمها.





واستغرقت «أُونَتِّي» وقتاً طويلاً قبل أن تفهم هذا الذي يجري أمام عينيها، وهي ترى شعر أمها الطويل متناثراً على الأرض، ووجهها المشوه، ودمها وقد سال يلطخ ثيابها. ولم تصدق أن هذين الرجلين لا ينويان بأمها شراً إلا حين رأت أن أمها لم ترفع يداً في وجه هذا الفارس الذي انتصب شامخاً بعد أن أعاد سيفه إلى غمده دون أن يخشى انتقام أمها أو غضبتها.

«أُونَتِّي» صبية فارعة الطول فائقة الجمال. يفتتن بها على الفور كل من يراها. شعرها الطويل المنسدل جدائل على ظهرها وكتفيها يأخذ بالألباب. ووجهها كأنَّه قطعة قمر بل هو القمر. مسحة الحزن المرتسمة فوق عينيها تزيدهما جاذبية وسحراً ووحشيتها غير المصطنعة هي سر الفتنة. «عبد الله القِرين» نفسه فوجيء بظهورها فانشغل بالنظر إليها للحظة قصيرة عن إكمال مهمته مع «دُوَانَة» وهو الشيخ الذي لا تهزه المغريات ولا تشغله عن مهمته المفاجآت. لكنه حين نظر إليها لمعت في ذهنه فكرة غريبة فابتسم قبل أن يكمل مهامه مع «دُوَانَة» التي لم تستفق من صدمة الجرح الذي فوق جبينها ووجهها إلى أن أسر إليها في أذنها بكلمات حرص ألا تسمعها ابنتها ولا صديقه فأبرقت عيناها وارتسمت ملامح العزم على محياها. ثم حرص أن تسير «دُوَانَة» من فورها وحدها متوجهة إلى (سُوبَا)، لكن تبقى ابنتها «أُونَتِّي» في الوكر تنتظر الإشارة للحاق بأمها في اليوم التالي أو الذي يليه أو أي يوم آخر. «أُونَتِّي» كان تصميمها على الانتقام أكثر من تصميم «دُوَانَة» نفسها. فقد ذاقت اليتم مبكراً،

بل رأت أباها مقتولاً ورأت رأسه معلقاً في ساحة المدينة والنّاس يتفرجون. حفر هذا المنظر في قلبها عميقاً. وكانت ترى مثيلاتها يسرن مع آبائهن في الطرقات، لكنها كانت تنظر فترى أنَّها أصبحت بلا أب. وحين هربت مع أمها وعاشت في هذه المنطقة المهجورة بلا مأوى كافحت لتبقى على قيد الحياة من أجل هدف واحد هو الانتقام. فأعدت نفسها واستعدت لذلك اليوم جيداً.

النّاس في (سُوبَا) كانوا يظنون أن الأميرة «دُوَانَة» قُتلت أو هاجرت أو بيعت ضمن قوافل الرقيق المتجهة شمالاً إلى بلاد (المماليك). عندما كانت في القصر عند زوجها القتيل ما كانت تغادر القصر إلا نادراً، وكان زوجها يغار عليها فأبقاها بعيدة عن الأعين، فلم يكن قد رآها قبل ذلك إلا قلة قليلة جداً من الخدم والحشم، أو صديقاتها المقربات حين كن يزرنها في قصرها. ولهذا فلم يكن أهل (سُوبَا) مستعدين أن يصدقوا أن هذه الهزيلة العجفاء المشوهة ذات الملابس الممزقة التي تسيل منها الدماء هي نفسها الأميرة «دُوَانَة» سليلة النبلاء، زوجة الأمير «أُونْدِي» قائد الجيوش ومستشار الملك وولي العهد من بعده. كان مظهرها يوحي بأنَّها قد تعرضت لصنوف العذاب.

رآها النّاس صباح ذلك اليوم عند أبواب (سُوبَا) فأيقنوا أنَّها من النساء الهاربات من بطش (القَوَاسْمَةْ). فالشائعات كانت قد انطلقت مؤخراً أن (القَوَاسْمَةْ) قد جاءوا لينتقموا من كل من باع النسوة العربيات اللاتي كن في (سُوبَا) عبيداً (للمماليك)، وأنَّهم





كلما أمسكوا بامرأة من (النوبة) (العَنَج) جعلوها من السبايا أو باعوها لتجار العبيد أو شوهوا وجهها وألقوا بها أمام بوابة (سُوبَا). لم يخطر على بال أحد أن يربط بينها وبين الأميرة «دُوَانَة» بأي حال من الأحوال فالمقارنة مستحيلة أو منعدمة.

في ذلك الصباح حين شاهد حراس البوابة هذه المرأة أسرعوا فأخبروا «طَمْبَلْ» قائد الحرس. و«طَمْبَلْ» من الذين تم تعيينهم مؤخراً وكان يطمع في التقرب من الملك بأي وسيلة فكان لا يجد فرصة أو مناسبة توصله لباب قصر الملك إلا واهتبلها وطار بها طيراناً. وحين كان لا يجد شيئاً ذا بال يختلق الأمور التافهة فيصنع منها مسائل تبدو عظيمة حتى يقابل الملك. وكان الملك يعرف هذه الخصلة لدى «طَمْبَلْ» لكنه لم يتبرم به فالملك كان يبحث عن أعوان مخلصين مؤخراً لأن المؤامرات على القصر كثرت والأعداء تكالبوا عليه من كل مكان، والمخلصين أصبحوا قلة، والطامعين في الملك من حوله من الأمراء والنبلاء لا يتورعون عن فعل أي شيء من أجل أن يصفو لهم الملك آخر الأمر حتى لو تآمروا على الملك نفسه. و«طَمْبَلْ» كان رجلاً يكتم الأسرار ويعرف كيف يدخل السرور على قلب الملك. وحين جاءه الحرس يخبرونه بأمر هذه المرأة دفعه الفضول لمعرفة الأمر، فأمر بإحضارها إلى مقره. ولما كان حديث العهد بالقصر لم يتعرف على حقيقة هذه المرأة المشوهة فسمع منها قصتها وتبين له أنَّها امرأة (نوبية) من ضحايا «القِرِين» وأنَّها هربت بكل ما أوتيت من قوة بعد أن تم أسرها لتباع ضمن قوافل الرقيق

وبعد أن حلقوا شعرها تمكنت من مقاومة هؤلاء العرب، وأصيبت بالجرح في وجهها وهي تحاول الهرب بعد أن طعنت حارسها بنصل كانت تخفيه في ثيابها، ثم ولت الأدبار لتحتمي منهم داخل أسوار (سُوبَا).

وبالفعل أبدى «طَمْبَلْ» تعاطفه معها. ولم يخالجه أي شك في أن هذه المرأة المظلومة تعرضت لصنوف العذاب والاضطهاد، ومحاولة الأسر والاسترقاق، فلم يبد عليها أَنَّها كانت رقيقاً من قبل فهو يعرف صفات الإماء وتصرفاتهن، ويستطيع التفريق بينهن وبين من لم يتعرضن للأسر من قبل. هذه المرأة كانت مرفوعة الرأس رغم ما لحق بها من هوان، وكانت تنظر إليه في عينيه وهي تكلمه، وكانت قوية الحجة فلم يبد عليها انكسار الرق أو ذل العبودية.

سرعان ما أخذها وأسرع بها إلى قصر الملك الذي لما سمع قصتها من «طَمْبَلْ» أكبر فيها شجاعتها، وأمر بأن تلحق بأحد أجنحة الضيافة التابعة للقصر. وبالطبع لم ينس «طَمْبَلْ» أن يضفي على قصتها شيئاً من ألوان البطولة، ويضيف من عنده فصلاً من فصول ذكاء المرأة وشجاعتها. وحين وجه الملك بالاعتناء بها أخذ «طَمْبَلْ» هذا الأمر مأخذ الجد وحمله محمل الأمر الهام، وأضفى عليه السرية والكتمان، كأَنَّها توجيهات من الملك لا يجوز أن يطلع عليها إلا «طَمْبَلْ»، فهو وحده من يعرف باقي الحكاية ولهذا فقد أمر بإحضار الطبيب النطاسي لمداواتها وعلاج جراحها. «طَمْبَلْ» رأى في الاعتناء بهذه المرأة سبباً للتردد على القصر كما أَنَّه بدأ يحلم





بأن يتخذها مدخلاً للتقرب إلى زوجة الملك أيضاً ليقوى نفوذه بذلك في القصر وليكون من المقربين. فلم يصدق أن هذه الفرصة قد أتيحت له من بعد طول ترقب وانتظار.

رحبت «دُوَانَة» بهذا الاعتناء بالطبع فطاوعته في ما كان يسعى إليه، ولم تبد أي نوع من أنواع الرفض أو الدلال، بل وجدت فيه مطية لتحقيق مآربها في القصر. ومضى «طَمْبَلْ» في تنفيذ خطته فقدمها لزوجة الملك التي استمعت إليها ولم يخالجها شك في أن هذه المرأة (النوبية) كانت ضحية اعتداء وحشي من عرب (القَوَاسْمَةْ) الذين حاولوا استرقاقها وبيعها. وأعجبت الملكة بشجاعة هذه المرأة وأسلوبها في الكلام، والذي لا يشبه أسلوب بقية نساء (سُوبَا) فصادقتها ووثقت بها.

***

أُوتتي أجمل أم القمر؟

رغم أن (سُوبَا) شهدت سنوات صعبة وحروباً امتدت لعشر سنوات ماضية قبل مجيئك إليها يا «صُلَيْحَة» قتل فيها الملك السابق «عفايق» وهرب البَطْرِيَرْك «دِيرِين» ثم عاد بجيوشه فطرد العرب وقتل عدداً كبيراً منهم من الذين كانوا داخل أسوار (سُوبَا) وأسر نساءهم وأطفالهم وباعهم عبيداً (للمماليك) وأصبح مجتمع (سُوبَا) شديد الاضطراب وأضحت شوارعها غير آمنة إلا أنك كنت تخرجين كل يوم تطوفين شوارع (سُوبَا) وتنتظرين القوافل لعلك ترين وجه جدّك. كنت تتوقعين رؤيته عند كل منعطف في شوارع (سُوبَا) وكان خياله يتراءى لك في وجه كل شيخ كبير قادم من جهة البوابة الشرقية، وكل قادم إلى السوق وكل خيال يلوح من بعيد في ساحة المدينة. وحين تأوين إلى فراشك آخر اليوم متعبة منهكة تحلمين به يحدثك عن مغامراته وكيف وصل إلى هنا. ثم لا تلبثين أن تنهضي صباحاً على أمل واحد فقط هو أن ترى جدّك حين تخرجين إلى الطريق فتفاجئين به فاتحاً ذراعيه ليتلقفك في حنان غامر، لكنك كنت تعودين خائرة القوى عند مغيب شمس كل يوم ليتجدد الأمل عندك في صباح يوم جديد. لم يفلح تعاقب الأيام ولا كر الشهور في أن تفقدي الأمل في لقائه ولا أن تنسي محياه وطلعته. كنت تعيشين من أجل جدّك، فهو الأمل الوحيد الذي يجعلك





تتشبثين بهذه الحياة البائسة. كنت لا تبالين بما يحدث حولك من أحداث وما يجري في (سُوبَا) من تقلبات.

وتخرجين صباحاً في أحد الأيام كعادتك متجهة إلى بوابة المدينة تنتظرين قدوم القوافل. «ميمونة» اعتادت منك هذا فهي قد عودت نفسها ألا تسألك إلى أين حين تراك عند عتبة الباب باكراً كل صباح وأنت تهمين بالمغادرة. ويبدو أن فقدان الزوج والأنيس جعلها تتقاسم معك هذه المشاعر وتتعاطف معك. لكنها غيرت عادتها في ذلك الصباح حين استيقظت فرأيت الحزن والقلق باديين على وجهها وهي تحاول أن تخفي عنك مشاعرها وتتشاغل بترتيب الفراش ثم إيقاد النار للطبخ. كانت غير سعيدة وبدت مشاعرها مضطربة في ذلك الصباح. طلبت منك أن تبقي في البيت في ذلك اليوم. مع أنَّها كانت تعلم أن هذا الأسلوب لا يعجبك وأنك لن تستجيبي. وتسألينها:

– لماذا يا أمي؟ ما الذي حدث؟

– طلب مني «طَمْبَلْ» أن أعتني بهذه المرأة التي وجدوها عند أسوار المدينة في ذلك الصباح، وأن أرافقها وأبقى معها دائماً. يبدو أنَّه يدبر أمراً ما فقد حدثني عن أهمية وجود حاشية ترافق هذه المرأة كلما ذهبت لمقابلة الملكة. ولم أفهم هل كان يريد مني أن آتيه بأخبارها وما يدور بينها وبين الملكة أم ماذا يريد؟

– ولماذا اختارك أنت ؟

– هذا ما يحيرني. فالمرأة من (النوبة). ولا أظنها مسلمة. وأنا امرأة عربية ومسلمة. لا أدري فربما يريد أن يوهم الملك بمهارته في التأليف

بين سكان (سُوبَا) العرب و(النوبة) والمسلمين والمسيحيين. وهذا ما يريده الملك، فـواضح أن (سُوبَا) قد اضطرب أمرها كثيراً في الآونة الأخيرة وتمايز أهلها خاصة بعد أحداث قتل (القَوَاسْمَةْ) واسترقاقهم.

- خذيني معك إذن.

- أريدك أن تبقي في البيت فربما أحتاجك في أي أمر حتى إذا عدت إلى البيت وجدتك حاضرة.

- سوف لن أتأخر خارجاً يا أمي.

وتسكت «ميمونة» على مضض فهي تعلم عنادك وإصرارك في الخروج اليومي للبحث عن جدّك الذي أَصْبَحَتْ متأكدة أنَّه لن يأتي فالقوافل انقطعت عن المجيء إلى (سُوبَا) منذ مدة، والأجواء في (سُوبَا) صارت متوترة.

وتخرجين من البيت متجهة نحو البوابة الجنوبية. كان الوقت باكراً، والحرَّاس يتمطون ويتمغطون غير مبالين وكأنَّهم استيقظوا من النَّوم، مع أنَّه من الطبيعي أن يسهروا للحراسة، فالمدينة يتهددها الأعداء.

كانت نسمة الصباح الباردة تنفح وجوههم، وكان بعضهم متدثراً بالأغطية من البرد فالوقت شتاء. الجميع يتلفعون هنا في الشتاء ويغطون رؤوسهم وأعناقهم حتى لا يصيبهم البرد. حين فتحوا البوابة في ذلك الصباح دلفت منها صبية متلفعة بثيابها وقد غطت وجهها ولم يبد منها غير عينيها لكن الحراس حين نظروا إليها وعلموا أنَّها فتاة سمحوا لها بالدخول. لكنهم لم يسألوها أين حمارها ولا أين وعاء الحليب فقد كانوا يظنونها إحدى البائعات البدويات، رغم أنَّه لم يكن معها أي شيء تحمله. لكنها دلفت داخل أسوار





(سُوبَا) ومضت في طريقها. تلاحظين خطواتها المضطربة فتتبعينها. وحين تقتربين منها تجدين أنَّها في مثل سنك أو أكبر قليلاً، لكنها فاتنة فائقة الجمال. سرعان ما تنتبه إلى أنك تتبعينها فتسرع الخطى وتحاول أن تختفي منك في أحد الأزقة لكنك ما زلت تلاحقينها. تقف عند أحد البيوت مسندة ظهرها إلى الجدار وتنظر إلى الأرض ثم تسرق النظر إليك. تشاهدين الخوف في عينيها فتقتربين منها وتسألينها:

– هل أنت غريبة؟

– ...

– أنا أيضاً غريبة مثلك. من أين أتيت؟

حين تعلم أنك غريبة تطمئن إليك قليلاً، لكنها ما زالت صامتة.

– لا تخافي. كلنا غرباء هنا في (سُوبَا). أنا اسمي «صُلَيْحَة» وأنت ما اسمك؟

تجيبك في صوت منخفض ويبدو عليها التوتر والتردد:

– «أُونَتِّي».

– الله ! «أُونَتِّي» اسم جميل. ولكن ماذا يعني باللغة المحلية؟

– القمر!

– فعلاً أنت جميلة كالقمر!

تنظر إلى الأرض في حياء. لكنها تبتسم ثم تكشف عن وجهها.

– يا الله! أنت أجمل من القمر.

وسرعان ما تطمئن إليك وتأنس بك.

– إلى أين تذهبين يا «أُونَتِّي»؟

- بصراحة لا أعرف! جئت أبحث عن أمي.
- من أين جئت؟ وما اسم أمك؟

وتتردد في الإجابة وكأنَّها بوغتت بالسؤال فهي لم تتوقعه. وتتمتم بكلمات خافتة ثم تصمت متحيرة وهي تنظر إلى الأرض.

- ها ها لا تعرفين من أين جئت؟ ولا تعرفين اسم أمك؟ عادي! عادي. حتى أنا لا أعرف أمي فقد ماتت منذ زمن طويل. لكنني أعرف من أين أتيت. أنا جئت من بلاد (شنقيط) من مكان بعيد جداً. أبعد مما تتخيلين. واضح أنك جائعة. هيا معي لنأكل شيئاً.

وحين تدعينها للأكل تستجيب لك فوراً ودون تردد فمن الواضح أنَّها لم تأكل منذ مدة. وتتعاطفين مع هذه البنت الوحيدة فقد اعتدت تقديم المساعدة للغرباء والترحيب بهم. هل تذكرين «لُلَّاحَسِينَة» حين جاءتك وهي غريبة تبحث عن الطعام والمأوى؟ ثم آوتك حين كنت هاربة تبحثين عن جدّك؟ الفتاة تثق بك لكنها تتردد فلا تخبرك باسم أمها، وأنت لا تلحين في السؤال. وتقررين أن تأويها مع «ميمونة» ريثما تجد أمها. وفي الطريق تتذكرين أن «ميمونة» عند تلك المرأة المقيمة في أحد أجنحة الضيافة الملحقة بقصر الملك، فتقررين أن تذهبي إلى هناك لتستأذني من «ميمونة» فهي صاحبة الدار في المقام الأول، وأنت لا تملكين الحق في استضافة النّاس في بيتها وإطعامهم دون علمها أو موافقتها. لكنك متأكدة أنَّها لن تمانع أبداً فهي مضيافة كريمة. وحين تصلان قصر الملك تدلفان من البوابة الخلفية المخصصة لجناح الضيافة الملحق بالقصر، وتطرقان





الباب فتفتح لك «ميمونة» وتفاجئين بمنظر تلك المرأة النحيفة بوجهها الشاحب المشوه، ورأسها الخالي من الشعر. لكن «أُونَتِّي» حين ترى المرأة تصرخ وتركض إليها وتلقي بنفسها بين ذراعيها. وبالطبع تفهمين أن هذه المرأة المشوهة هي أمها. حدث كل هذا وسط حيرة «ميمونة» ودهشتها وهي ترى هذه البنت الفاتنة الجميلة في أحضان تلك المرأة. وتسألها وفمها مفتوح من الدهشة:

- ابنتك هذه؟

- «أُونتِّي»؟ نعم نعم. هي ابنتي. وانا اسمي «هِيتِي»!

وتزداد دهشة «ميمونة» فتوجه إليك الأسئلة:

- من أيت أتيت بها؟ أين قابلتها؟ وكيف عرفت أنَّها ابنتها؟

وتبتسمين وتلوذين بالصمت، وتراقبين هذا اللقاء الجميل بين الأم و«أُونتِّي» وهي في حضن أمها. وتبتسم «أُونَتِّي» حين تعلم أن أمها اتخذت اسماً جديداً. المرأة بادرت بذكر الاسم الجديد لتعلم ابنتها فتلوذ بالصمت. وتعلمان أن المرأة تحتاج أن تختلي بابنتها قليلاً فقد بقيتا صامتتين تنظران في عينى بعضهما وتتحدثان بلغة العيون منذ حضور ابنتها، فتستأذنان للخروج على أن تعودا غداً باكراً. لكن «أُونتِّي» تمسك بيدك وتطلب منك البقاء فهي قد أحست أنَّها وجدت فيك صديقة. وحين تمانعين في البقاء تلح عليك «هِيتِي» فتعلمين أنَّها لا تمانع هي الأخرى في وجودك معهما. وبعد أن تخرج ميمونة تنتحي «هِيتِي» وابنتها في الغرفة ناحية، وتتهامسان قليلاً ثم تعودان. وتمضين سحابة النهار مع «أُونتِّي» تمشطين لها شعرها الأشعث. وحين ألقت ذلك الثوب الذي لفت به جسدها

تلاحظين أنَّها تلبس ثياباً رثة بالية، وكأنَّه قد مضى على خياطتها ألف عام. وتلاحظين أيضاً أنَّها عاطلة عن الزينة التي تلبسها الفتيات في (سُوبَا) وأن أذنها ماتزال غير مثقوبة. فتسارعين بالخروج وإخبار «ميمونة» التي لم تتردد في إبلاغ «طَمْبَلْ» بكل هذا.

وسرعان ما يأتي «طَمْبَلْ» بثياب جديدة للأم وابنتها فيأتي بفردتين من غزل القطن، وقَنْجَة منسوجة على النول وقَرنْ وفِرْكَة قَرْمَسِيسْ حريري وطِرْقَة ومِلْحَفَة وقُرْقَاب يُلبس تحت الثياب وزينة تحتوي على عقد من حبات العقيق والسُكْسُك والودع وسوار فضي وقرطين كبيرين، ومرآة مصقولة وعطور وزيت ودهن ولوفة للاستحمام. وتلاحظين أن «هِيتِي» بارعة جداً في تزيين «أُونَتِّي» والاهتمام بها فبعد مجهود قليل بدت وكأنَّها إحدى الحوريات الفاتنات. أنت لا تقلين عنها جمالاً يا «صُلَيْحَة» لكنك لا تأبهين لزينتك وشعرك، فأنت مشغولة بجدّك كثيراً، في حين بدت «أُونَتِّي» في أبهى منظر. وفي تلك الليلة تقرران الخروج لتريها ساحة المدينة حيث يجتمع الشباب والشابات للرقص في الساحة على إيقاع الطبول وغناء الجواري. وسرعان ما تلفت «أُونَتِّي» الأنظار بقامتها الفارعة وجسدها الفاتن ونظراتها البريئة. كل من يراها كان يفتتن بها على الفور. «أُونَتِّي» تملك عينين واسعتين جميلتين ووجهاً منيراً مستديراً وابتسامة ساحرة وقامة ممشوقة جميلة.

وحين عدتما في ذلك المساء كانت «أُونَتِّي» قد بدت سعيدة جداً وقد امتلأ وجهها حياة وأومضت عيناها ببريق الرضى. «أُونَتِّي» لم تعش طفولة سعيدة ولا عرفت مثل هذه المناسبات ولا اتخذت





صديقات ولم ترقص أبداً في حياتها. عاشت حياة مثل حياة الكلاب الضالة، تتنقل بين الظلال وتقيل تحت الأشجار، وتنام على التراب. لكنها الآن بدأت تحس بحياة جديدة وتتذوق طعمها، فانطلقت مثل غزال بري كان مقيداً مربوطاً ثم أطلق قيده فأصبح حراً، أو أحد طيور القمري وجد باب قفصه مفتوحاً بعد أن طال حبسه فطار محلقاً في الهواء. «أُونتِّي» حَلَّقت في ساحات المدينة وحلقات الرقص كما لم تفعل أي فتاة من قبل. والجميع لاحظ هذا.

وتمضي الأيام. وتتقبلك «هِيتِي» مثل ابنتها. وتعاملك مثلها فهي الآن تعلم حقيقتك وقصتك. وسرعان ما تكشف لك مكنونات فؤادها حين تنادينها:

– سوف نخرج يا «هِيتِي» أنا و«أُونتِّي» اليوم عصراً.

– اسمي «دُوَانَة». توقفي عن مناداتي «هِيتِي»!

وتجحظ عيناك من هول المفاجأة وتفغرين فمك في ابتسامة بلهاء وأنت تقبلين عليها. فقد كنت تحسين أن هناك سراً كبيراً تخفيه هذه المرأة الغريبة التي لا تتصرف مثل عامة النساء فكل حركة كانت تأتي بها تدل على رقي ووعي كبيرين. كنت تلاحظين هذا لكنك لم تجرؤي على سؤالها أبداً لكنها الآن تتبرع بالكلام. وتسألينها:

– كنت أعلم هذا! اسمك ليس «هِيتِي». علمته حين سألتُ «أُونتِّي» عن اسمك فلم تخبرني. ثم تأكدت حين رأيت الدهشة في عينيها وأنت تقولين لنا إن اسمك «هِيتِي». فمن تكونين على حقيقتك؟

– أنا «دُوَانَة» يا «صُلَيْحَة». وكنت أعيش هنا منذ أكثر من عشر سنوات.

– أووو. هنا؟ أين؟ في هذا القصر؟ وما الذي جرى لكم؟ ولماذا خرجتم من (سُوبَا)؟

– رويدك رويدك يا «صُلَيْحَة». سوف أخبرك بكل شيء. كان لنا قصر خاص بنا مثل هذا القصر تماماً. وخرجنا لأنَّهم قتلوا زوجي. غدروا به.

– زوجك من؟ ومن الذي قتله؟ ولماذا؟

تجيبك في حزن عميق وهي تكاد تبكي لكنها لا تفعل:

– زوجي كان هو الأمير «أُونْدِي». ولي العهد والمرشح للملك.

– ياوييلي!

– أثق في أنك لن تخبري أحداً بهذا. تعدينني؟ لأنَّه لا أحد هنا يعرف أنّني «دُوَانَة» التي كانت زوجة الأمير «أُونْدِي». إلا أنت الآن!

– نعم نعم أعدك. بكل تأكيد لن أخبر أحداً. ولكن لماذا تخبرينني بهذا يا «هِيتِي»؟ أقصد يا «دُوَانَة»؟

– لأنّني أثق بك. أنت لن تخبري أحداً بهذا. وأنا أحتاج لشخص أثق به لأخبره ببعض أسراري حتى ينزاح بعض ما أحس به من نار تفري كبدي. وأنت الآن صبية بالغة وعاقلة. وسنك قريبة من سن «أُونتِّي». كم عمرك اثنا عشر عاماً؟ أو أكثر؟ بعد قليل تصيرين امرأة. نعم يا «صُلَيْحَة». قتلوه بغير شفقة ولا رحمة. اتهموه بالخيانة والتواطؤ مع العرب وأنّه هو سبب الهزيمة.

– وأين كان الملك؟ ولماذا لم يدافع عنه؟





- لم يكن هناك ملك يومها فالملك «عفايق» كان قد قتله (القَوَاسْمَةْ) في الغارة الأخيرة على (سُوبَا). ولم يكونوا قد ولوا أي ملك بعده حين قتلوا زوجي، فتم لهم ما أرادوا لأن العرش كان خالياً. حدث هذا منذ عشر سنوات يا «صُلَيْحَة». قبله كان ولاء النّاس للملك النجاشي الأعظم في (سُوبَا) مضرب الأمثال. فقد كان هناك أكثر من نجاشي في دولة (عَلَوَة). كان هناك نجاشيون كثيرون في كل أرجاء (عَلَوَة) لكنهم يدينون بالولاء للنجاشي الأعظم في (سُوبَا) ولا يجرأون على عصيان أوامره. والنجاشي يستمد هيبة الملك من الشعب نفسه. النجاشي الأعظم كان هو راعي الكنيسة فكانت تدين له بالولاء ولهذا فقد اجتمع أهل الدولة وأهل الديانة تحت طاعة الملك. صحيح أن الكنيسة كانت تتململ بين الحين والآخر لتخرج عن طوعه وسلطته، وتفرض حكمها وهيبتها. لكن النجاشي كان لها بالمرصاد في كل مرَّة. إلا أن الأحوال تغيرت كثيراً خلال الأعوام الماضية، فالملك ما عاد يهتم بالديانة ولا بالكنيسة. الملك «عفايق» لم يكن متديناً أصلاً. كما شهدت الدولة هجرات الكثير من القبائل العربية المسلمة ونزوحها إلى المنطقة، فأحاطوا بالدولة من الخارج إحاطة السوار بالمعصم، وتوغلوا داخل (عَلَوَة) وأنشأوا الكثير من القرى الجديدة واستقروا فيها. وشهدت (سُوبَا) تحولات كبيرة في بيئة أهلها فقد كثر العرب والمسلمون القاطنون في (سُوبَا) وامتهنوا الزراعة والتجارة والحرف الأخرى.

- ولكن لماذا قتلوا زوجك يا «دُوَانَة»؟

- سوف أحكي لك القصة كاملة يا «صُلَيْحَة». أنت مثل ابنتي تعالي واسمعي مني. زوجي المقتول الأمير «أُونْدِي» ولي العهد ومستشار الملك كان يدرك أن مستقبل الكنيسة في هذه الدولة إلى اضمحلال ثم إلى زوال. فقد رأى بأم عينيه منذ أن كان صغيراً وقد نشأ في هذه المدينة أن النّاس فيها ما عادوا مسيحيين، بل ما عادوا متدينين أصلاً، والكنيسة لم تعد مهتمة إلا بالمظاهر فقط والإسكندرية تخلت عن (عَلَوَة) وعن الكنيسة في (سُوبَا) مثلما تخلت عنها الكنيسة الحبشية في (أكسوم). وحين تخلت كنيسة (أكسوم) عنها تخلى الملك عن لفظ النجاشي وأصبح اسمه الملك فقط. وواضح أنَّه تخلى عن المسيحية أيضاً لكنه لم يظهر هذا للشعب. وفي الوقت نفسه رأى الأمير تضاعف أعداد السكان العرب وإقبال الكثيرين منهم على الإسلام كديانة جديدة بديلة وبذلك فقد شهدت (سُوبَا) تحولات كبيرة في العهود الأخيرة.

- ولكن كيف عرفت كل هذا؟

- كنت قريبةً من زوجي وكان يعرف أموراً كثيرة فأخبرني ببعضها. الأمير «أُونْدِي» رأى كل هذه التحولات وأدرك بفطنته وحنكته أن المستقبل لهؤلاء العرب الوافدين وليس لسكان (سُوبَا) الأصليين فأخذ يقرب العرب منه ويسمح لهم بالتجارة داخل أسوار (سُوبَا)، بل وبالسكن في أحيائها، وبذلك كثرت أعدادهم وتضاعفت المباني في رباط المسلمين، وزادت أحياء العرب. لكن الكنيسة لم يعجبها الحال فتململت. وكان ذلك واضحاً في حرصها على الاحتفالات بالأعياد، والمبالغة في الإكثار من المناسبات





المسيحية، وفي حضور مجالس الملك، والسعي للوقيعة بين المسيحيين والعرب عنده لينفرط عقد الأمن فيشعر الملك بالخطر ويطرد العرب من داخل أسوار المدينة. لكن الملك «عفايق» حين أقلقه فعل الكنيسة واستشار زوجي الأمير «أُونْدِي» هدأ من روعه وأخبره أن الأمور سوف تسير سيراً حسناً وأن هؤلاء العرب لا يشكلون أي خطر ما لم نتعرض لهم بالظلم أو الاسترقاق. وأنَّهم سيكونون مصدر قوة للدولة مع مضي الوقت، لأن الخطر الذي يتهدد (سُوبَا) من الخارج هو خطر عربي في المقام الأول. وسوف يتردد العرب كثيراً قبل التفكير في غزو إخوانهم داخل (سُوبَا). وأن وجود هؤلاء العرب الحاليين داخل الأسوار لن يشكل خطراً على الملك ما دامت السلطة تنتقل للسكان الأصليين من (العَنَج) بالتوارث. والعرب أصلاً يدفعون الإتاوات للملك و(للعنج) كل عام. واستطاع بهذا أن يقنع الملك ليتبنى سياسة القبول بهؤلاء العرب داخل أسوار (سُوبَا). لكن ذلك الأمر زاد من حنق الكنيسة ومن كان يواليها من النبلاء والأمراء في بلاط الملك الذين رأوا ميل الأمير «أُونْدِي» للعرب، وأنَّه يقربهم إليه ويبعد هؤلاء النبلاء عن مجالسه وأن وجود العرب في (عَلَوَة) وسيطرتهم عليها هي مسألة وقت ما لم تتدخل الكنيسة.

– إذن فقد كانت الكنيسة والنبلاء على حق لأن العرب سيتمكنون من (سُوبَا) لا محالة بهذه الطريقة.

– لا لم يكونوا محقين. فزوجي الأمير «أُونْدِي» ما كان يريد أن يتمكن العرب من (سُوبَا). وما كان يخشى ذلك لأنَّه كان يقرب

البعض منهم فقط وليس كل العرب. فكان يريدهم عوناً له ضد بقية القبائل العربية الأخرى خارج (سُوبَا). وكان يعلم أن الخطر الماحق هو من العرب (الجعليين) الذين في الشمال والذين في الغرب، فقد قويت شوكتهم جداً، فكان يرغب في اتقاء شرهم بالتفريق بينهم وبين (القَوَاسْمَةْ). وكان يدرك أن (القَوَاسْمَةْ) هم أيضاً من الأعداء الذين لا يستهان بهم، فكان يلعب لعبة التفريق بين هذه القبائل حتى لا تجتمع ضده. لكن الوقت لم يسعفه لذلك.

- وكيف كان يلعب هذه اللعبة يا «دُوَانَة»؟

- هي ليست لعبة حقيقية مثل لعب الأطفال يا «صُلَيْحَة». الحرب ليست لعبة، لكن المقصود هو أنَّه كانت له تدابيره التي يقوم بها. كانت عيونه ترصد تحركات أمير (الجعليين) «حميدان» ملك النيل الأبيض شرقه وغربه، لأنَّه كان يعلم نواياه، فقد كان يطمع في الاستيلاء على النيل حتى بلاد (البديرية) و(الحاكماب) وجزيرة (بادن). لكن (سُوبَا) كانت تقف بينه وبين ذلك. ثم علم أنَّه اجتمع مع أمراء قبائل (قَحْطَان) وشرق النيل الأخضر وغربه ليدبروا كيف يتخلصون من (العَنَج) و(النوبة) ويحتلون (سُوبَا). وأنَّه اجتمع بالأمير «حيدر» رئيس قبائل (قَحْطَان)، وبابن عمه الأمير «عبد الله القَرِين»، واتفقوا وتعاقدوا على زمن محدد. وزوجي الأمير «أُونْدِي» سعى بكل ما أوتي لصد هذه الغارة، وكان يعلم أنَّه لو اجتمع العرب جميعهم فسوف تسقط (عَلَوَة) لا محالة، فسعى للتفريق بينهم. لكنه قبل أن يتمكن من فعل ذلك قطعت جيوش «حميدان» البحر الأبيض من مخاضة (أبي زَبَد) في حذر





وتكتم. وفي سهل الجزيرة التقت بقبائل وأمراء (قَحْطَان) الذين ضموا جيوشهم إليه، وسرعان ما زحفوا على (سُوبَا) ونازلوا جيش زوجي الأمير «أُونْدِي» في حرب ضروس دامت أياماً. وأثناء الحرب وقع الخلاف بين الكنيسة والملك حول إدارة المعركة لأن الكنيسة كانت لا تستجيب لأوامر وخطط الأمير «أُونْدِي»، فانسحب مقاتلو الكنيسة، وضعف جيش الملك، فوقعت الهزيمة وانتصر العرب. وقُتِل الملك «عفايق» في تلك المعركة، وانسحب زوجي الأمير «أُونْدِي» بمن معه إلى خارج (سُوبَا) ليعيد الكرة على العرب الذين دخلوها. وبمقتل الملك عفايق أصبحي زوجي هو الملك تلقائياً، فقد كان هو ولي العهد آنذاك، لكن لم يتم تنصيبه فالحرب كانت دائرة وهو كان في الميدان.

- ياللهول يا «دُوَانَة».

- العرب حين دخلوا (سُوبَا) قتلوا المقاتلة وأحرقوا المساكن لحد المربعات، وسبوا النساء والأطفال، وكان البَطْرِيَرْك «دِيرين» قد هرب قبل ذلك، ولم يتبعه العرب بعد قتل المَلك «عفَايق» فاكتفوا بقتل الملك، وظنوا أن هذه هي نهاية الأمر.

- وماذا حدث بعد دخولهم (سُوبَا)؟

- قسموا (عَلَوَة) بينهم فاتفقوا أن يكون النيل الأخضر إلى «عبد الله القِرين» و«حيدر» وقومهم، وأطلقوا عليه البحر (الجهني). وجعلوا النيل من (كركوج) وأمامها هو بحر (الجعليين). وجاء «القِرين» بعرب (القَوَاسْمَةْ) إلى (سُوبَا) واستوطنوا فيها وملكوها. لكن «القِرين» بعد ذلك غادر (سُوبَا) ولم يبق فيها فقد كان يهمه

توحيد العرب الذين خارج (سُوبَا) أكثر من بقائه ملكاً على (سُوبَا) نفسها.

– وماذا فعلت الكنيسة والأمراء والنبلاء وزوجك؟

– زوجي اعتبر أن البَطْرِيَرْك «دِيرِين» هو سبب الهزيمة، لأنَّه انسحب بجيشه من المعركة فهو رجل خائن، بينما اعتبر البَطْرِيَرْك أن زوجي هو المسئول عن الهزيمة لأنَّه وقف في صف الملك السابق ضد الكنيسة في حين وقف بقية الأمراء جميعهم مع الكنيسة ولهذا فقد ذهب وجمع الجيوش من (النوبة) و(الأحباش) و(البجا) وأطلق عليهم جيش الكنيسة، وكان يقوم على مصاريفهم من مدخرات الكنيسة، وتمكن من العودة إلى (سُوبَا)، وهجم على عرب (القَوَاسْمَةْ) القاطنين في (سُوبَا) فقتلهم وسبى نساءهم وأطفالهم. ولكى ينفرد بالملك ويحول بين زوجي وتوليه الملك بعد الملك «عفايق» الذي قتل في المعركة السابقة فقد أعلن أن «أُونْدِي» خائن، وساعده بقية الأمراء الذين ينتمون للكنيسة وأموالها، فقبضوا على زوجي وصلبوه في ساحة المدينة، ثم قطعوا رأسه وعلقوه ليراه الجميع باعتباره خائناً. تصوري يا «صُلَيْحَة» يقتلون البريء ويتركون الخائن. وبهذا جمع «دِيرِين» بين سلطة الملك والكنيسة، وخلت له الساحة بعد أن قام بتولية صديقه ليكون هو الملك الجديد.

كانت «دُوَانَة» تبكي من الغيظ وتصر بأسنانها وهي تحكي هذه الحكاية المؤلمة عن حادثة اغتيال زوجها. وأنت لم تكوني تملكين إلا مشاطرتها هذه اللحظات المؤلمة. «دُوَانَة» قصت عليك ما حدث بعد ذلك، وأنَّهم حين قبضوا على زوجها بحثوا عنها،





لكنها اختبأت منهم في إحدى الغرف السرية المبنية تحت القصر، ثم غادرت سراً عن طريق ذلك القبو، وأخذت ابنتها وتوجهت جنوباً فبقيت في ساقية الشيطان عشر سنوات حتى نسيها النّاس، ولم يعودوا يذكرونها ولا يذكرون أن لها ابنة. و«دِيرين» انشغل عنها أيام مقتل زوجها ولم يلق لها بالاً، فقد كان كل همه هو القضاء على «أُونْدِي» وها هو حلمه قد تحقق.

وقصَّت عليك أن «عبد الله القَرِين» بعد أن تم الاعتداء على قومه عزم الهجوم على (سُوبَا) والأَخذ بثأر قومه، واستعادة السبايا من النساء والأطفال الذين باعهم «دِيرين». فذهب يجمع القبائل ويؤلبهم ضد (سُوبَا) لكن العرب (الَجعليين) لم يعاونوه هذه المرَّة لأنَّهم اعتبروا أن البحر (الجهني) ليس من شأنهم، فهو يتبع (للقواسمة) وما يحدث فيه هو شأن داخلي يخص «القَرِين» وحده. فزاد ذلك من حنق «القَرِين» الذي جمع أعيان عشيرته وقال لهم:

- نحن أحق بالبلد من (الجعليين)، (فالجعليون) ملكوا الجزائر والبلد إلى (دُنْقُلَة) وأنا أرى أن نحاربهم ونطردهم من البلد.

لكن (القَوَاسْمَةْ) ما وافقوا على هذا الرأي وقال له «عامر»:

- إذا حاربت (الجعليين) يهلك العرب، و(النوبة) سيملكون البلد، ولن يراعوا العرب لأنَّهم موتورون. فالصداقة بيننا وبينهم ذهبت من يوم قتل الملك ورجاله في (سُوبَا).

لكن «القَرِين» ليس هو الرجل الذي تسد أمامه السبل فسرعان ما أخذ طائفة من رجاله وأهله وذهب إلى جبال (البُرُون) ليجتمع بالملك «عمارة دُونْقُسْ» ولد الملك «عدلان»، وضمن له الملك عموم

البلد، واتفقا على إنشاء دولة واحدة قوية تقوم على أنقاض (سُوبَا). وتعاهدا على أن يكون المُلك «لعمارة» وقومه (الفونج)، بينما تكون جباية الأموال وقيادة الجيوش والخيل من نصيب (القَوَاسْمَةْ).

وتصمت «دُوَانَة» بعد اجترار هذه الذكريات، فحزنها على زوجها يقفز إلى عينيها كلما استطردت في الحديث، وكنت تشفقين عليها من كل هذا الحزن العميق، لكن يبدو أنَّها وجدت متنفساً ولو قليلاً لتجيش بمكنوناتها التي أثقلتها بالحزن بعد كل هذه السنوات من الصمت، واجترار الأحزان والحياة القاسية التي عاشتها منبوذة وحيدة هي وابنتها. ويبدو أنَّها قصدت أن تتحدث إليك حتى تنفس عن مكنون فؤادها.

«دُوَانَة» اطمأنت إليك كثيراً بعد هذا الحوار الذي دار، فقد وجدت فيك ابنة أخرى تثق بها، وصاحبة لابنتها «أُونَتِّي». لكنكما كنتما أنت و«أُونَتِّي» ترغبان في الخروج للساحة، فتعدينها بالاستماع لبقية هذه الذكريات في وقت آخر. وقبل أن تخرجي مع «أُونَتِّي» تحذركما «دُوَانَة» من الأمير «مَنْدُو»، وتنصحكما بتفاديه بكل ما أوتيتما، وبعدم الاقتراب منه أصلاً ومن أعوانه وحاشيته، فهم شياطين في زي بشر. وهم لا يتورعون عن خطف الفتيات والاعتداء عليهن دون أن يخشوا عاقبة أفعالهم. كما تحذركما من المدعو «كُرْشَابْ»، فهو جاسوس البَطْرِيَرْك وسيفه الذي يضرب به الأعداء. وتحذركما من «أُرْصُد»، فهي تَعتقد أنَّه هو الذي نفذ عملية الصلب لزوجها الأمير «أُونْدِي»، وهو الذي أنزله من الصليب بعد ذلك بأيام وقطع رأسه بأمر من «مَنْدُو» وعلقه في ساحة المدينة.





تخرجان إلى ساحة المدينة في حذر. ولا تختلطان مع البقية في البداية بل تراقبان ما يدور في الساحة. الشباب يبدأون بالتجمع قبل مغيب الشمس، وحينها يبدأ دق الطبول النحاسية مؤذناً بنهاية اليوم ودخول الليل. ساحة المدينة هي مكان الرقص واللعب. وفيها يتعارف الفتيان والفتيات وتعقد الصداقات البريئة، ويختار الشبان زوجات المستقبل. مجتمع (سُوبَا) أصبح مجتمعاً هجيناً من العرب و(النوبة) وغيرهم. العادات والتقاليد أصبحت شديدة التباين والاضطراب، لكن الجميع يحترم الجميع ما عدا التوترات التي تظهر بين الفينة والفينة من عصابات «مَنْدُو» و«أُرْصُد» أو مجموعات «كُرْشَابْ».

أنتما لم تشاهدا مثل هذه المظاهر من قبل، وخاصة «أُونَتِّي» التي كانت ترقص لأول مرَّة في حياتها فهي لم تعرف الرقص ولا الفرح أبداً فقد عاشت مع أمها حياة مضطربة بائسة. لكنها اليوم تطلق العنان لجسدها ليفعل ما يشاء على إيقاع الطبول النحاسية، ولروحها لتحلق في أجواء تلك الساحة المكتظة في (سُوبَا)، فهي متنفس أهلها ومكان لقاءاتهم. «أُونَتِّي» أغمضت عينيها ورقصت مع كل إيقاع. رقصت بتأن أحياناً، وبجنون في أحيان أخرى كثيرة. جسدها الفاتن ورقصها البدائي المتوحش جعل الأعين تتبعها جيئةً وذهاباً، وانتبه لها كثيرون. البعض تركوا الرقص وجاءوا يتفرجون ويشاهدون، فقد رأوا شيئاً جديداً في ساحات الرقص (بسُوبَا). و«أُونَتِّي» كانت مغمضة العينين وهي ترقص، فلم تلاحظ تحلق الشباب حولها. ومضت منسابة ترقص في الساحة مثل حمائم (سُوبَا) التي اعتادت التجمع في الساحة صباح كل يوم لتلتقط الحب من أيدي النساء والأطفال.

دُوَانَة ومَنْدُو

حين أفقت هذه المرَّة الثانية لاحظت أن جدّتي «صُلَيْحَة» كانت مبتهجة كما لم أرها من قبل. رغم أن الأحداث الماضية كانت كلها عن ما دار في (سُوبَا) من مؤامرات ومآس. لكن يبدو أنَّها كانت تسترجع هذه الأحداث معي وكانت لَا تريدني أن أفيق. ولما انتبهت انزعجت لكنها حثتني على المضي قدماً. قلت لها:

– جدتي، بدا لي أن (سُوبَا) أصبحت على مفترق طرق. فالأعداء يتهددونها من الخارج ويحاصرونها. والمؤامرات والخلافات تغمرها من الداخل. أين أنت من كل هذا يا جدتي؟ معقول أنك نجوت من كل هذا؟

– ألم نتفق أنك من سيخبرني عن كل هذا؟ وعلى كل فسوف أخبرك هذه المرَّة فقط.

لقد كنتُ حينها صبية مندفعة ومتطلعة للحياة. ورغم أنّني جئت وحيدة أسعى وراء جدي إلا أن ما وجدته ورأيته في هذه المدينة شغلني عن كل شيء. ولا أكتمك أنّني وجدت في «أُونَتِّي» صديقة العمر. فقد كانت صبية تنضح بالبراءة وتضج بالجمال. وحين جاءت إلى (سُوبَا) كانت كمن اكتشفت الجنة التي لم تكن تظن أنَّها موجودة أصلاً نظراً لما رأت في حياتها من شقاء. «أُونَتِّي»





نشأت بائسة عند ساقية الشيطان. كان ذلك هو كل عالمها. لا تعرف عالماً سواه. والبشر جميعهم كانوا مختزلين في أمها «دُوَانَة». وحين جاءت إلى (سُوبَا) كنت أنا أول من تعرف عليها فتعلقتْ بي كما لم تتعلق بأحد من النّاس. ثم حين دخلتْ (سُوبَا) اكتشفتْ عالماً جديداً، ووجدتْ جنتها في (سُوبَا) البائسة الخائفة. وكنتُ لها بمثابة الأخت التي تحميها، فأمها كانت مشحونة بشهوة الانتقام، ومستغرقة في الأفكار الشيطانية. وهي في سبيل ذلك كانت مستعدة أن تضحي بحياتها، وبحياة ابنتها التي لا ذنب لها سوى أنَّها ولدت من رحم هذه المرأة ومن أبيها المقتول. أنت لم تر شيئاً من شرور هذه المرأة. وأنا الآن متشوقة لتريني ماذا فعلتْ. بالله عليك لماذا أفقت في هذه اللحظات؟ تعال هنا وأغمض عينيك وادخل في روحي وامتزج بأنفاسي ثم أكمل. وأطربني برؤيتها وهي تتلون وتتلوى مثل أفعى تلتف حول رقبة الضحايا. يالهذه المرأة العجيبة.

- نعم يا جدّتي أنا مثلك متشوق لذلك. وأعجب من هذه المرأة. وأرغب في أن أرى ما فعلت. لكن ألا تري معي أنَّها كانت ضحية ولا ذنب لها؟ ها قد أغمضت عيني. اقتربي يا جدّتي ولنكمل الحكاية. أين كنّا؟ أين كنا؟ نعم كنّا في بيت «هِيتِي» أو «دُوَانَة». نعم دعيني أذهب بك إلى هناك. ها نحن قد وصلنا. نحن الآن في صبيحة اليوم التالي لذهاب «أُونَتّي» إلى ساحة الرقص. والأخبار أصبحت متداولة بين النّاسِ حتى بين أولئك الذين لم يشهدوا رقصها في الساحة. خروج «أُونَتّي» إلى الساحة ورقصها

مع الشباب في (سُوبَا) لفت الأنظار فأصبحت هي حديث النّاس وشغلهم الشاغل. وتناقل النّاس الأخبار بأن هذه البنت الجميلة هي ابنة «هِيتِي»، تلك المرأة التي وجدوها عند باب المدينة منذ مدة. وسرعان ما طرق الخاطبون باب «هِيتِي» يطلبون يد «أُونَتِّي» الفاتنة. توافد عليها الخاطبون من مختلف طبقات (سُوبَا). جاء «أُرْصُد» ومعه خاطبة. أرسلهما «مَنْدُو» للتقدم لـ«أُونَتِّي»، وحتى «طَمْبَلْ» كان يطمع في خطبة هذه الجميلة الساحرة. ومن الأعاجيب أن «دِيرِين» أرسل إحدى أمهات الكنيسة لتسأل هل «أُونَتِّي» مخطوبة أم يتقدم هو الآخر لخطبتها؟

«دُوَانَة» طلبت من الأم العاملة في الكنيسة أن تبلغ «دِيرِين» بالحضور سرّاً لمقرها، وأن يحضر وحده ليلاً لأن الكتمان مطلوب حتى يتم الأمر في أسرع وقت ودون تأخير. كما طلبت منها أن تبلغه أن يحضر معه خاتم الخطوبة، وذلك نظراً لأن الأمر لا يحتمل التأجيل، فهناك من يريد أن يتقدم لخطبتها، وهي بهذا تريد أن تستبق الأمر.

وقتئذٍ صرفت الخاطبة، وأخبرت «أُرْصُد» أن يطلب من «مَنْدُو» الحضور وحده ليلاً إن أراد التقدم لـ«أُونَتِّي»، وأخبرت الخاطبة أن هديتها ستكون قيمة، وأن حقها محفوظ عند إتمام الخطبة. لكن يلزم الكتمان في بداية هذا الأمر حتى يتم بنجاح، وتصرف عنه العوارض، فـ«مَنْدُو» له زوجتان، ولو علمتا بأنَّه ينوي الزواج من أخرى ثالثة فربما تلجآن للسحرة لتؤذيانه أو تؤذيان «أُونَتِّي»،





و«دُوَانَة» لا تقبل لابنتها الأذى. ولم تنس أن تقدم هدية للخاطبة قبل انصرافها، وتطلب منها الانصراف سراً حتى لا يراها «طَمْبَلْ». وحين اقتربت الخاطبة لأخذ الهدية من يد «دُوَانَة» ورأتها من قريب في ضوء المصباح بدت ذاهلة عن تلك الهدية، وبدلاً من النظر إلى الهدية كانت تنظر في عيني «دُوَانَة» بدهشة كبيرة، لكنها ابتسمت وخرجت ثم قصدت أن تتلكأ عند الباب وتشاغلت بإصلاح ثوبها حتى يراها «طَمْبَلْ» قبل أن تطير طيراناً إلى قصر «مَنْدُو» لتبلغه بما طلبته منها «دُوَانَة». وفي تلك الليلة كان هناك من يطرق باب «دُوَانَة» متخفياً وملثماً!

«دُوَانَة» حرصت أن يأتي كل خاطب في وقت معيَّن حددته بدقة، وحرصت حين يأتي كل خاطب أو رسوله أن يرى الخاطب الآخر معها، لكنها في ذات الوقت تصرف الذي عندها حين تستقبل الآخر، دون أن يتسنى لهما الكلام معاً. كانت تبعث برسالة لكل خاطب أن هناك من تقدم لابنتها غيره لتثير غيرته وتوغر صدره، وكانت تحرص على وداع المغادر بكل حفاوة مع العبوس في وجه القادم عند استقبالها له، ليتأكد المغادر من صدق كلامها معه حينما كان عندها.

كان «مَنْدُو» هو أول القادمين. أدخلته «دُوَانَة» وأخمدت السراج. وحين رأت دهشته أخبرته أنَّها حريصة ألا يراه أحد عندها فهناك مشكلة. كانت لا تريده أن يتعرف عليها، فقد كان «مَنْدُو» رجلاً شديد الملاحظة عظيم الدهاء، وهو يعرف زوجها الأمير «أُونْدِي»

جيداً، لكنه لم يرها هي إلا مرَّة واحدة. وفي العادة فإن تلك المرَّة الواحدة تكون كافية لأن يتعرف عليها لولا أنَّها شوهت وجهها وحلقت رأسها، ولولا أنَّها أصبحت نحيفة البدن هزيلة شاحبة بفعل الجوع والمسغبة. ولهذا فعندما أخمدت وهج السراج في تلك الليلة لم يتبين «مَنْدُو» قسمات وجهها. وحين سألها عن السبب وراء كل هذا الحرص والكتمان قالت له:

– يا سيدي أنا حريصة عليك وعلى مصاهرتك وأرغب أن تكون أنت زوج ابنتي اليتيمة هذه، فلن أجد خيراً لها منك ليكون زوجاً حنوناً وأباً عطوفاً. لكنِّي حريصة على الكتمان، لأن هناك من سبقك بالتقدم إليها وهذه مشكلة كبيرة. أرجو أن تساعدني في حلها.

– لا لن تكون هناك مشكلة اطمئني يا سيدتي.

– بل في واقع الأمر هناك مشكلة يا سيدي.

– أخبريني من الذي تقدم إليها وأنا سوف أجعله يحجم عن ذلك إن لم يندم، فكيف يجرؤ أيّ إنسان في هذه المدينة على التقدم إلى «أُونَتِّي» دون إذني بل ودون علمي! لا يتم شيء في (سوبَا) إلا بعد أن يوافق عليه «مَنْدُو».

– ...!

– أخبريني من هو ولا تخافي. أخبريني ولك الأمان.

– في واقع الأمر هو.. هو المبجل.





- تعنين سيدي الملك؟ لا. لا. أؤكد لك أنّني لن أصدق لو قلت أنَّه حضرة الملك فأنا أعرفه. هو لا ينوي الزواج بامرأة ثانية، إطلاقاً.

- لا ليس الملك. لكنه نيافة الكاهن المقدس.

- «باخوم»؟ هاها. دعي أمره لي فأمره هيِّن. الكاهن «باخوم» رجل لعوب. هو زير نساء، أعرفه جيداً. سوف يتخلى عنها بعد أيام. وقد فعل مثل ذلك من قبل. أتركي لي أمره.

- ليس «باخوم» يا سيدي.

وتصمت «دُوَانَة» فترة يدرك فيها «مَنْدُو» أي مصيبة عليه أن يواجهها فيقول في تلعثم:

- دِير.. تعنين البَطْرِيَرْ.. معقول هذا؟ متى حدث هذا؟

- الليلة. الليلة يا سيدي. سبقك فجاءني متخفياً. وطلب يدها للزواج ووعدني بالذهب والمجوهرات وبالمال الوفير. وبأن يبني لها قصراً!

- وماذا قلت له؟ وهل وافقت؟

- في واقع الأمر أنا في مشكلة كبيرة يا سيدي. فأنا لا أريد البَطْرِيَرْك زوجاً لابنتي فهو يكبرها بسنوات كثيرة. لكنَّك شاب وأمير، فأنت مناسب لها وعندك أموال كثيرة. صحيح أنَّها ليست مثل أموال البَطْرِيَرْك، لكنني لا أريد الأموال، بل أريد سعادة ابنتي.

- نعم نعم. مؤكد هذا.

وتدخل «أُونَتِّي» الفاتنة وكأنَّها ملاك طاهر تنزل من السماء في هالة من نور، وقد لبست أجمل الثياب وتفوح منها عطور الصندل والعود، وتتهيأ للجلوس لكن أمها تصرفها برفق. وتثور الدماء في عروق «مَنْدُو» الذي يتبعها بنظرات شرهة مثل أسد جائع رأى فريسة. لكنه لا يقدر على افتراسها أو الوثوب عليها ويغمغم بصوت غاضب:

– هذا العجوز المتصابي «دِيرين». ماذا يريد بعد كل هذه السنوات وعنده كل شيء. أنا لم أصدق أن «أُونْدِي» قد ذهب حتى يظهر لي «دِيرِين» عند كل منعطف، وفي كل طريق، بوجهه القبيح ولحيته الشعثة. اسمعي يا سيدتي. لا تلقي بالاً لـ«دِيرِين». أنا سوف أسوي هذه المسألة قطعاً.

– إن أردت ابنتي وكنت تحبها حقاً فأريدك أن تخلصني من هذا الكاهن «دِيرِين». أنت أحق بابنتي بكل تأكيد. أخرجني من هذه الورطة ياسيدي وابنتي لك. أعدك وعداً صادقاً بالمسيح والعذراء أن تكون ابنتي لك.

– كم مهراً تطلبين لو خلصتك من «دِيرِين»؟

– لا أريد مهراً. رأس «دِيرِين» هو مهرها يا سيدي! هذا هو الحل الوحيد. وبدون ذلك لن تنتهي المشاكل والمصائب أبداً.

– يالك من ماكرة!

ويبهت «مَنْدُو» ويفاجأ. فلم يكن يتوقع مثل هذا المهر الغالي. لكن عينيه تلمعان في الظلام. يتململ. ويضم قبضتيه في تصميم





وإصرار. فهو عنيد ولن يتخلى عن «أُونَتِّي» مهما كان الثمن حتى لو كان رأس الملك نفسه.

- هذا مهر غالٍ لكنّي أقبل به! و«أُونَتِّي» ستصير لي. تأكدي من هذا. لكن سيكون هذا سراً بيننا إلى الأبد. ولو عرفه أحد في أي يوم من الأيام فعليك أن تتأكدي أنّني لن أتردد في صلبك يا امرأة. سوف أقتلك بكل تأكيد وسوف أقتل «أُونَتِّي» أيضاً!

- نعم نعم يا سيدي أفهم هذا. سيكون هذا سرنا الكبير. لكنّي أريد أن أنبهك إلى شيء هام جداً. وهو إن حدث هذا الأمر فتأكد أن يتم ليلة اكتمال البدر وذلك لأن المنجمين أخبروني أن هذه ليلة سعد لي ولابنتي «أُونَتِّي» ولمن يتزوجها أيضاً.

ويهز «مَنْدُو» رأسه موافقاً، فهو لا يفقه في أمور السعد والنحس هذه شيئاً، لكنه أصبح الآن يثق في هذه المرأة. أو يريد أن يثق بها لأنَّه يرغب في الزواج من ابنتها بأي ثمن. وسرعان ما يغادر بيتها مسرعاً. وفي نفس تلك الليلة كان البَطْرِيَرْك يطرق باب «دُوَانَة» متخفياً، بينما يقف «كُرْشَابْ» في الخارج يراقب الطريق.

أخبرته «دُوَانَة» هو الآخر أنَّها أرسلت إليه ليأتي سراً لأن هناك مشكلة. قالت له إنَّها طلبت منه إحضار خاتم الخطوبة لتؤكد له أنَّها ترغب في الرباط المقدس بابنتها، وأنَّها تريد إتمام طقوس الخطبة الليلة في الكنيسة، لكنها تريد أن يتم هذا الأمر سرَّاً. ثم أخبرته أن الأمير «مَنْدُو» أرسل إليها بأنَّه يريد أن يتقدم لابنتها «أُونَتِّي»

خاطباً، وحين اعتذرت إليه بأن البَطْرِيَرْك «دِيرِين» يريد أن يتقدم لخطبتها بنفسه هو أيضاً سخر وهدد بالانتقام منه لو فعل، وبأنَّه سوف يأخذها قسراً حتى من البَطْرِيَرْك نفسه، وأنَّه لا يبالي. وهي لا ترغب في أن تبيع ابنتها للأمير «مَنْدُو» الماجن الذي لا يتورع عن ارتكاب مثل هذه الجرائم. لكن البَطْرِيَرْك طمأنها بأنَّه لن يحدث شيء من هذا، وأنَّه سيتكفَّل بالأمير «مَنْدُو» أو غيره بكل تأكيد.

قالت له إنَّها ترغب في أن يكون الزواج مسيحياً صرفاً في الكنيسة، وأنَّها لا تريد أموالاً ولا أي شيء آخر، لكنها طلبت منه أن يكون المهر رأس «مَنْدُو» مقدماً في طبق من ذهب للفاتنة «أُونَتِّي» ليلة اكتمال البدر في السماء، وذلك لأن «مَنْدُو» أهانها وأهان ابنتها، وزعم أنَّه سوف يأخذها بأية وسيلة، وأنَّه سوف يسفك دم كل من يقف بينه وبينها. ويذعن البَطْرِيَرْك لكل طلباتها دون نقاش، فتلك الفتاة «أُونَتِّي» قد خلبت لبه وذهبت بعقله، وهو لم ير في حياته فتاة أجمل منها قط. كما أن هذه فرصة للتخلص من هذا الشيطان «مَنْدُو» أيضاً. فيكون قد اصطاد عصفورتين بحجر واحد.

يذهبان معاً إلى الكنيسة في نفس تلك الليلة. وفي الطريق تحدثه أنَّها طالما حلمت أن يأتي الشمامسة بالخطيبين في زفة كنسية بلحن أبوؤرة، وتأتي «أُونَتِّي» خطيبة على يمين خطيبها البَطْرِيَرْك نفسه، فيجلسان على الكرسيين المعدين لذلك في الكنيسة، حسب المزمور القائل: "جلست الملكة عن يمين الملك" فحواء خلقت من جنب آدم الأيمن. وأن يتم الرَّشْمُ باسم ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع





المسيح، مشرع شريعة الكمال، وواضع ناموس الأفضال، فتتم في ذلك المحفل خطوبة الابن المبارك البَطْرِيَرْك «دِيرين»، ويرشم الكاهن على الخطيبين والشبكة ويصلي: "مبارك الروح القدس المعزي آمين". بينما يرد الشمامسة: "آمين". ثم يصلي الجميع: "أبانا الذي في السموات" ويصلى الكاهن صلاة الشكر. وتكون الألحان والمَرَدَّات بالفرايحي وبعد انتهاء صلاة الشكر يرتل الشمامسة أكيوس (آجيوس) وما يلائم هذه المناسبة من الألحان.

وبالفعل ينفذ البَطْرِيَرْك في تلك الليلة كل ما طلبته منه «دُوَانَة». ويتم إلباس الدبلتين والشبكة للخطيبين. ويسلم الكاهن دبلة الخطيبة للبَطْرِيَرْك فتمد «أُونَتِّي» يدها اليمنى فيلبسها الدبلة في أصبعها البنصر الأيمن، بعد أن يحرص على إمساكها من يدها. وبعد ذلك يقول الكاهن طلبة مكونة من أربع قطع، كل قطعة تنتهي بمرد آمين يقوله خورس الشمامسة. في القطعة الأولى: "يطلب الكاهن من الله أن يفيض على الخطيبين برضاه وفضله وأن يبارك مشروع الزواج هذا ويكتب له التوفيق وحسن الختام". وفي القطعة الثانية: "يطلب أن تكون هذه الخطبة طاهرة وشرعية، ومقدمة لمصاهرة فاخرة مرعية، وأن يملأ قلب الخطيبين بالتهاني والحبور، وأن يبلغهما نيل الأماني بوافر السرور". وفي القطعة الثالثة: "يطلب الكاهن من الله أن يقرن هذه الخطبة بحسن القبول، وأن يمنح الخطيبين حياة هنيئة وأن يحفظهما ناهجين في طاعة الله، وأن يرتبطا بأصول الإيمان والفضائل، وأن يحفظهما مصونين من شوائب الخلاف والرذائل،

وأن يتمم لهما الفرح بحفل الإكليل المبارك". وفي القطعة الرابعة: "يطلب الكاهن من الله أن يحفظ رئاسة الكنيسة قداسة البَطْرِيَرْك «دِيرِين»، وأسقف الكنيسة، وأن يبارك الحاضرين في هذا الاحتفال السعيد المبارك.ثم يصلى الجميع "أبانا الذي في السموات." ثم قانون ختام الصلوات الإجتماعية، بينما الكاهن يصلي البركة على رأسي الخطيبين بالصليب، وهما خاضعين تحت يديه، حتى يكمل صلاة البركة، فُيَقبِّل الخطيبان الصليب، ويقبلان يد الكاهن. فيقول الكاهن: "بخرستوس بينوتى" وهو يرشم الشعب. ويقول الجميع: "آمين ايس ايشوبى"، فيقول الكاهن: "يا ملك السلام أعطنا سلامك" واجعلنا مستحقين أن نقول بشكر: "أبانا الذي". ثم يعطيهم التسريح: "امضوا بسلام. سلام الرب فليكن معكم".

وحينها يأمر الكاهن الشمامسة بأخذ الخطيبين بزفة إلى باب الكنيسة حيث يقفان ليتقبلا التهاني من الحاضرين، لكن «دُوَانَة» اعترضت بقوة وطلبت ألا يخرج الخطيبان خارج الكنيسة، وذلك منعاً للفأل السيء، فمن الخير أن يبقيا داخل الكنيسة محاطين بعناية ربنا يسوع المسيح. لكن في آخر الطريق كانت هناك أعين ترصد كل هذا، ثم تذهب فتبلغ الأمير «مَنْدُو» بما دار في الكنيسة. بينما كانت «دُوَانَة» تقف خلف الخطيبين بشفتين مطبقتين، وعينين يتطاير منهما الشرر، وقلب لا يعرف الوجل.

لكن الأيام التالية تشهد أحداثاً عاصفة، وتتوالى الأخبار على (سُوبَا) أن الملك «عمارة دُونْقُسْ» نزل من الجبال ومعه عشيرته





وجيشه الكثير العدد، واختط مدينة اطلق عليها (سنار) وجعلها مقر جيشه وقاعدة ملكه. وأن «عبد الله القِرين» تحالف معه، ودانت له كل البلاد والقبائل، ولم تبق إلا (سُوبَا). لكن (سُوبَا) يحاصرها «القِرين» منذ سنتين، فبقي «دُونْقُسْ» في (سنار) يراقب مآلات الأحداث.

الأجواء في (سُوبَا) زاد توترها بعد تولي الملك الجديد، لكن البَطْرِيَرْك «دِيرين» بقي هو الكل في الكل، وهو المدبر لأمر الملك والكنائس. وأَصبح هو قائد جيش الكنيسة المكون من (النوبة) والأحباش والبجا. لكن الأمير «مَنْدُو» كان هو السبب الرئيسي في تمكين «دِيرين» من السيطرة على الأمور وتحول ميزان القوة للكنيسة، بعد أن كانت عند الملك ومستشاره الأمير السابق «أُونْدِي»، فأعقب هذا كله اضطراب حبل الأمن وذهاب الاستقرار في المدينة. «مَنْدُو» تآمر على كل من حوله. تآمر حتى على نفسه بأن تسبب في ذهاب هيبة مجلس حكماء الملك - وهو أحد أعضائه - مما أضعف هيبة الملك، فأتيحت الفرصة بالمقابل للكنيسة أن تسيطر على الأمور في الدولة وتسود. وحين حدث ذلك تسنى للبَطْرِيَرْك «دِيرين» طرد العرب القاطنين داخل أسوار (سُوبَا)، فأخلى بيوتهم وأَحياءهم، فذهبوا وانحازوا إلى عرب (القَوَاسْمَةْ)، وكان ذلك هو قاصمة الظهر. حدث هذا كله بالطبع بعد مقتل الأمير «أُونْدِي» الذي كان أعظم فاجعة لأهل (سُوبَا)، فبمقتله ذهب الأمن في (سُوبَا) إلى غير رجعة.

الأمير «أُونْدِي» كانت بيده مفاتيح الاستقرار في السابق، فقد كان رجلاً حكيماً يسيطر حتى على نزوات الملك نفسه. لكن «مَنْدُو» كان من أشد النّاس حنقاً على «أُونْدِي». كان يرجو أن يكون هو محل الثقة والأمر والنهي والسلطة، والسيادة والثراء وكل شيء. ولكن الحسد أعمى قلبه عن رؤية أعمال الأمير «أُونْدِي» وما قدمه لدولة (عَلَوَة). ولهذا فما وجد فرصة للكيد له إلا وانتهزها دون تردد. وفي ذلك المجلس المشهود حرض الأمراء والنبلاء عليه بعد أن امتلأت البطون بالمأكولات، ودارت الرؤوس من أثر شراب العَرَقْ المقطر من نقيع التمر والذرة، فدفعت (سُوبَا) الثمن غالياً. ثم بعد ذلك بدأ «مَنْدُو» يتآمر على البَطْرِيَرْك سراً ويصادقه جهراً. كان «مَنْدُو» ينتظر الفرصة المواتية للقضاء على البَطْرِيَرْك لينفرد بالمُلك.

ورغم الحصار المضروب على المدينة بواسطة عرب (القَوَاسْمَةْ) وأعوانهم من القبائل الأخرى، إلا أن الملك والنبلاء كانوا يسهرون في القوارب الشراعية أحياناً، ويقيمون الاحتفالات كل أسبوع في القصر أو في ساحة المدينة أحياناً أخرى، ليظن أهل (سُوبَا) أن الأمن مستتب في البلاد، وأنَّه لا يوجد ما يدعو للقلق والتوتر. كان الملك والنبلاء يجتمعون فيشربون المَزَرْ المصنوع من الذُّرَة البيضاء القَصَّابِي، وهو مشروب قوي لكنه غير مسكر، إلا أن البعض منهم يَلجأ لشرب العَرَق المُقَطَّر، وهو مشروب مسكر يجلبونه من الأسواق خارج (سُوبَا)، وأحياناً يصنعه الكارَنِينَا الذين يقطنون بين النهرين الأبيض والأخضر. الملك والنبلاء كانوا يتصرفون





وكأنَّهم قد أيقنوا أن هؤلاء العرب لن يتمكنوا من دخول (سُوبَا)، فهي حصينة بأسوارها، والجيش يرابط خارج تلك الأسوار ليمنع الغزاة من الاقتراب، وقد مضى عامان على الحصار وعلى دخولهم المدينة آخر مرَّة، وواضح أنَّهم لن يتمكنوا هذه المرَّة في وجود جيش الكنيسة الذي يعد بالآلاف. لكنكِ كلما بقيتِ في (سُوبَا) فترة أطول تلاحظين أن هناك مشكلة في (سُوبَا) من أول يوم وضعتِ قدميك في أرضها. تلاحظين أن هذه المدينة حذرة ومتوترة أكثر من أي مدينة أخرى مررت بها وأنت في طريقك إلى هنا. النّاس هنا حين يسيرون يتلفتون في الطرقات، ينظرون للمارة، ويراقبون كل حركة، ويتأهبون عند سماع أي صوت. تشد انتباههم التجمعات، ويسترعي أنظارهم الغرباء. أصبحوا ينظرون للقوافل نظرة التوجس، يظنون كل قافلة قادمة غارة مسلحة هاجمة عليهم، فالعرب الذين تم طردهم من (سُوبَا) وبيعت نساؤهم رقيقاً لن ينسوا ثاراتهم أبداً وأهل (سُوبَا) يعلمون هذا جيداً.

أصبحت حياة الملك شديدة الاضطراب مؤخراً. مؤامرات الكنيسة على أشدها والبَطْرِيَرْك لم يترك حيلة للاستيلاء على مقاليد الأمور إلا وفعلها. وفي نهاية الأمر لجأ إلى فرض الأمر الواقع بأن تجاهل أوامر الملك، وفرض أوامره وتعليماته على الأمراء والنبلاء معتمداً على جيش الكنيسة وأموالها، فانشطر الولاء في سوبا إلى شطرين متباينين. ولم يبق أمام الملك إلا أن يجمع حوله أصدقاءه المخلصين وأتباعه وحاشيته، ليتمكن من إعادة الأمور إلى نصابها.

188 ومن المؤسف أن البَطْرِيَرْك سعى لاستمالة عم الملك في صفه ليقلبه على الملك صهره وزوج ابنته، فأغراه بالذهب والأموال. لجأ إلى ذلك بعد أن فشل في أن يوغر صدر الملكة على زوجها، بعد أن كشفت أمر البنات الفاتنات اللاتي أرسلهن البَطْرِيَرْك إلى مخدع الملك دون علمه، ثم دسَّ للملكة من يشي بهن عند الملكة، ليثير فيها الغيرة فتنتقم من الملك. لكن الملكة سرعان ما كشفت الأمر، فقد كانت مدركة لألاعيب البَطْرِيَرْك «دِيرِين». الملكة كانت تعتقد في السحر والسحرة. ولهذا فعندما سمعت بحكاية «هِيتِي» وأنَّها نجت من جنود «عبد الله القِرين» تأكدت بما لا يدع مجالاً للشك أن هذه المرأة ساحرة لأن الكل يعلم أن «عبد الله القِرين» رجل شديد البأس، لا يكاد ينجو من بطشه أحد. وبعد مدة وجيزة أمرت «طَمْبَلْ» بإحضارها إلى جناحها في القصر. كان الفضول يدفعها لسماع حكايتها منها. لكنها كانت تطمع في أكثر من هذا. ولما رأت منظر «هِيتِي» بوجهها المشوه ورأسها الأصلع الحليق الذي نبت القليل منه أيقنت أن هذه المرأة ساحرة بالفعل، وأنَّها لابد سوف تصنع لها تعويذة حتى لا يتزوج الملك عليها، فهى ابنة عم الملك ولم تنجب منه رغم أنَّه تزوجها منذ فترة طويلة. والملك يرغب في ذرية تخلفه في الملك. ولو تزوج عليها فسوف ينتقل الملك منه إلى أبنائه من الزوجة الأخرى. ولهذا فسرعان ما أفضت «لهِيتِي» بأسرارها، وأخبرتها بخوفها من أن يتزوج الملك عليها، فقد كانت عاقراً لم تنجب للملك أي ذرية.





ولم تفوت «دُوَانَة» الفرصة فطلبت منها أن تحضر لها بعض شعرات من صدر الملك ولحيته بدون علمه حين يكون نائماً، حتى تصنع لها تعويذة وشَبْشَبَة مَحَبَّة، فلا يقدر الملك على أن يتزوج عليها أبداً. بل وعدتها بالذرية العاجلة من الملك نفسه. وأعطتها خنجراً حاداً بمقبض أحمر اللون لتستخدمه في قطع الشعرات، وتضمن القطع دون أن ينتبه الملك من نومه. وطلبت منها أن تفعل ذلك حين يكتمل القمر بدراً، وذلك لأن التعويذة لن يسري مفعولها إلا إذا تم أخذ الشعرات في تلك الليلة، وأن تقطع بنفس الخنجر ذي المقبض الأحمر لأنَّه خنجر سحري وبه تعويذة!

وقبل ليلة الرابع عشر من الشهر القمري بيوم واحد استعدت «دُوَانَة» بأن أعادت حلق شعر رأسها الذي نما البعض منه فحلقته من جديد. ولبست ثياباً رثة قديمة ثم طلبت مقابلة الملك لأمر هام. وحين دخلت عليه سجدت بين يديه وقدمت التحية، فأمرها أن ترفع رأسها فكشفت عن رأسها الحليق، ونظرت إلى الملك نظرات مخيفة لكنَّها خاطفة وسريعة، قبل أن تحني رأسها إلى أسفل. ثم التمست من الملك أن يصرف الحاشية التي معه، فهي تريد أن تكلمه في أمر هام. وحين وافق الملك بعد تردد قام الحراس بتفتيشها فلم يجدوا معها شيئاً، فاطمأنوا لها وتركوها مع الملك وخرجوا.

«دُوَانَة» أخبرت الملك أنَّها علمت بواسطة الجن الذين يخدمونها أن هناك مؤامرة تحاك ضد الملك لاغتياله. فاستشاط الملك غضباً وهددها بأنَّه لو تبين أنَّها كاذبة فسوف يأمر بقطع رأسها على الفور.

قالت «دُوَانَة»:

- الأمر حقيقي وجد خطير يامولاي. ولولا هذا ما جئت بنفسي لأخبرك. لكنني أطلب منك بالمقابل، وقبل أن أخبرك بتفاصيل الأمر أن تعطيني الأمان.

- لك الأمان يا امرأة فما الأمر؟ أخبريني ولا تكتمي عني شيئاً.

- حسناً حسناً سوف أخبرك يامولاي. إِنَّهُ عم وصهر مولاي جلالة الملك!

- عمِّي أنا؟ ماله عمِّي؟

- عمك يا سيدي اتفق مع ابنته مولاتي الملكة على قتلك ليتولى هو الملك من بعدك.

- ماذا تقولين يا امرأة؟ هل أنت مخبولة؟ مجنونة أنت؟ عمِّي لا يفعل هذا ولا زوجتي. مستحيل هذا.

- لا يا جلالة الملك. أنا عاقلة والخُدَّام الذين يأتونني بالأخبار من الجن الأحمر هم صادقون ولا يكذبون أبداً فقد سمعوا كل كلمة تفوه بها عم جلالتكم مع ابنته مولاتي جلالة الملكة. وهم عازمون على تنفيذ هذا الأمر الليلة فالجريمة سوف تتم الليلة. أؤكد لك هذا يا سيدي.

- غير معقول أبداً. وتقسمين على هذا؟

- والمسيح والعذراء لا أكذب.

- وكيف سيتم هذا؟ وكيف أتأكد من أنَّك صادقة وماذا أفعل لأمنعهم؟





– أنا سأقول لك يا مولاي. مولاتي الملكة ستنفذ هذا الأمر الليلة. هي التي ستحاول قتلك بخنجر ذي مقبض أحمر. وعليك ألا تنام. لكن تظاهر بالنوم وراقب ما الذي سيحدث. لكن انتبه جيداً وإياك أن تغفل أو تغمض عينك يامولاي. فقط تظاهر بالنوم.

– ولماذا تقتلني وهي زوجتي؟ وأنا أحبها! ما الذي يدفعها لهذا؟

– هي لا تملك أمر نفسها يا مولاي ولا تفعل هذا بإرادتها فهي مسحورة ومغيبة تماماً. أؤكد لك.

ويرسم الملك الصليب على صدره ثم يخاطب «دُوَانَة»:

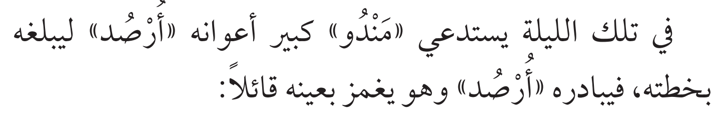
– اسمعي يا.. ما اسمك؟

– خادمتك «هِيتِي» يامولاي.

– اسمعي يا «هِيتِي». لو تبين أن هذا الأمر صحيح فسوف تكونين محل الثقة عندي للأبد، وسوف يكون لك كل ما تطلبين. سوف أكافئك بالذهب والأموال. لكن لو تبين أنك كاذبة فعليك أن تتأكدي أنّني سوف أرسلك للجحيم في نفس الليلة. لن أبقيك حية حتى الفجر.

– سمعاً وطاعة يا مولاي.

– أنت مقيمة في جناح الضيافة الملحق بالقصر كما أخبرني «طَمْبَلْ». الزمي غرفتك ولا تغادري أبداً حتى يأتيك رسولي. ياحرس تأكدوا أنَّها لن تغادر جناحها. وانتظروا أوامري في هذه المرأة.



قَبْوُ المَعْبَد

في تلك الليلة يستدعي «مَنْدُو» كبير أعوانه «أُرْصُد» ليبلغه بخطته، فيبادره «أُرْصُد» وهو يغمز بعينه قائلاً:

- ما رأيك أن آتيك بهذه البنت ليلاً في مخدعك يا «مَنْدُو» فتقضي معها ليلة ليلاء إن كنت حقاً ترغب فيها؟

- أي بنت يا «أُرْصُد»؟

- أنت تعلم... «أُونَتِّي».

ويفاجأ «مَنْدُو» بهذا الكلام فيقفز من مقعده وكأنما لدغته أفعى.

- مجنون أنت؟ ماذا تقول يا رجل! هذه البنت ستكون زوجتي يوماً ما. وقريباً جداً. هل تفهم؟

- معقولٌ هذا؟ أنت لك زوجتان غيرها! هل أنت متأكد من هذا الكلام ياسيدي؟وهل تستحق هذه البنت أن تكون زوجتك فعلاً يا «مَنْدُو»؟ صدقني لقد كنت أظن إعجابك بها ومراقبتك لها مجرد نزوة مثل المرات السابقات. ولهذا فقد اعتبرت زيارتها ومحاولة خطبتها من أمها مجرد مناورة ليس إلا.

- لا. لا يا «أُرْصُد». هذه المرَّة مختلفة عن أي مرات سابقات. أرغب حقاً أن أتزوجها وأن أعلن هذا لجميع النّاس. ومن يدري





فربما تكون هي الملكة في يوم من الأيام دون بقية زوجاتي. هذه الفتاة تستحق أن تكون ملكة. أنا متأكد من هذا.

– مؤكد مؤكد يا سيدي. أنت مرشح لخلافة ملكنا الحالي. بلا منافس بالطبع. وحين تصبح أنت الملك فلا بد أنَّها ستكون الملكة. سامحني يا ملكنا القادم فقد كنت أظنك تريدها في مخدعك لليلة واحدة فقط، وأنَّه ما يمنعك من هذا إلا أن أمها مازالت تحت حماية ووصاية الملك، ولهذا فقد فكرت أن أخطفها وآتيك بها سراً.

– لا يا «أُرْصُد». أؤكد لك أن الأمور مختلفة هذه المرَّة. «مَنْدُو» يرغب في الزواج من «أُونَتِّي». يريدها زوجة وليس خِدْنَاً له، عليك أن تفهم هذا. وفي سبيل هذا فأنا مستعد لأن أفعل أي شيء، ليس فقط من أجل الحصول عليها، بل من أجل الزواج منها. هل فهمت؟ أي شيء يا «أُرْصُد».

– نعم نعم فهمت. أي شيء يا «مَنْدُو». أي شيء يا سيدي. أي شيء يا مليكنا المنتظر المعظم.

وفي تلك الليلة تلقى «أُرْصُد» أوامره كاملة من «مَنْدُو» فهو الآن يعرف ما يريد وكيف سيفعله بالتفصيل. «مَنْدُو» قرر التخلص من البَطْرِيَرْك بطريقة ذكية. فقد أمره أن يجهز أعوانه للقيام بعمل ما في تلك الليلة. كان «أُرْصُد» ينوي أن يستعين ببعض المرتزقة من جيش الكنيسة من الذين لم يدفع لهم البَطْرِيَرْك أمواهم التي وعدهم بها حين استعان بهم للالتحاق بجيش الكنيسة. كان هناك بعض

المقاتلين المتذمرين الذين تركوا أهلهم وديارهم وانضموا لجيش الكنيسة، لكنَّهم لم يتلقوا معاملة مُنْصِفَة أو متساوية مع رصفائهم من سكان (سُوبَا) فأحسوا بالغُبْن. «مَنْدُو» كان يعرف كل هذه التفاصيل بواسطة جواسيسه المندسين في جيش الكنيسة، فأراد أن يستخدمهم مخلب قط لينفذ عملية التخلص من «دِيرِين»، بأن يجعلهم ينقلبون عليه فيحصل هو على كل شيء: الكنيسة، وأموال الكنيسة، وجيش الكنيسة، ثم الملك من بعد ذلك. ووعدهم بأن يغدق عليهم في تلك الليلة من الذهب والمال والكنوز، فكانوا مستعدين للقيام بأي عمل من أجل الحصول على المال. «مَنْدُو» كان يعلم أين يخبيء «دِيرِين» ذهب الكنيسة وأموالها، فقد عرف عن طريق «كُرْشَابْ» حين جعله يَثْمَل فيفضي إليه بكل الأسرار المتعلقة بذهب الكنيسة. ولهذا فقد وضع خطة محكمة للسيطرة على هذه الأموال وسلب «دِيرِين» منها. وفي تلك الليلة كان «أُرْصُد» قد جمع نفراً من أعوان «مَنْدُو» وجلب بعض الحمير ليحملوا على ظهورها ما سوف يحصلون عليه من ذهب الكنيسة، بعد أن يقوم «مَنْدُو» بسرقته بنفسه. وكان «مَنْدُو» قد عرف من «كُرْشَابْ» أين يحفظ «دِيرِين» ذهب الكنيسة، وطريقة فتح الباب الحجري الذي يفضي إلى القبو السري. ولهذا فقد قرر أن يستولي على الذهب في تلك الليلة، ثم يخبر بقية جيش الكنيسة أن البَطْرِيَرْك لا يملك الأموال، وأنَّه يكذب عليهم. وحين يواجهونه بذلك ويذهب ليجلب لهم الذهب حتى يروه ويطمئنوا يسقط في يده حين لا





يجد ذلك الذهب حيث خبأه، لأن «مَنْدُو» يكون حينها قد أخذه ونقله بعيداً، وبذلك يتأكد جيش الكنيسة أن البَطْرِيَرْك كان يكذب عليهم فعلاً، وكان يخدعهم ويستغلهم، فيقتلونه أو يتحولون عنه ليصبحوا تحت إمرة «مَنْدُو» الذي سيمنحهم ذلك الذهب وتلك الأموال المسروقة فعلاً.

كان «ديرين» يعلم أن كنيسة مارية تقوم فوق بقايا المعبد المَرَوِيّ القديم. وأنَّه تحت هذا المعبد توجد ثلاثة أقبية سرِّيَّة تحت الأرض، كان الرومان قد أنشأوها منذ القدم. وأن هناك قبواً سرياً يقع تحت هذه الأقبية، وله منفذ واحد فقط من السقف، وهو مغلق بأقفال متينة. وأن هذا الباب لا يفتح إلا من الخارج، وهو يفضي إلى القبو بجدرانه الحجرية السميكة. وكان هذا القبو يسمى قبو "الوديعة"، فقد كان الرومان يحفظون فيه أغلى الكنوز التي يحصلون عليها من بقايا كنوز مملكة مروي القديمة. يضعونها ودائع في هذا القبو قبل نقلها إلى روما، وذلك لأن النفاذ إليه مستحيل، إلا من ذلك الباب الحجري الضخم الذي يفتح بطريقة ذكية يعرفها البَطْرِيَرْك، فهو قد ورثها من الكاهن الأسبق الذي تنيح منذ عدة أعوام. ولهذا فقد حرص أن يحفظ كنوز الكنيسة وذهبها وودائعها في ذلك القبو السري. وأعلى هذا القبو توجد أقبية أخرى مجاورة فارغة، كانت في القديم مليئة بجرار الذهب. وكان البَطْرِيَرْك قد نقل الجرار جميعها من تلك الأقبية إلى القبو السري المغلق. ولم يكن يسمح لأي كاهن أو خادم في الكنيسة أن يقترب من هذه الأقبية جميعها فبقي الولوج إليها محظوراً.

قبل ذلك بيومين وحين قرر البَطْرِيَرْك أن يتخلص من «مَنْدُو» أرسل إلى «كُرْشَابْ» ليوافيه أمام كنيسة منبالي ساعة الغروب. وحين لقيه أخبره بالخطة كاملة، فبدأ «كُرْشَابْ» تنفيذها على الفور. حمل «كُرْشَابْ» إنائين أحدهما مليئ بعَرَق الذُّرَة المُقَطَّر المُسْكِر والآخر مملوء ماء لكن به القليل جداً من الخَمْرحتى يظن «مَنْدُو» أن به شراب العَرَق هو الآخر. ولما كان «مَنْدُو» يحرص على قضاء الوقت مع «كُرْشَابْ» لعله يتمكن من تحريضه ضد البَطْرِيَرْك أو الحصول على المعلومات منه فقد كان يعلم أن البَطْرِيَرْك يثق في «كُرْشَابْ» كثيراً فلم يتردد «مَنْدُو» في قبول الدعوة لقضاء تلك الليلة معه، مثلما لم يتردد في قبول إناء الخمر الذي جلبه «كُرْشَابْ». لكنه كان حريصاً ألا يثمل وفي الوقت نفسه كان يود أن يشرب «كُرْشَابْ» إناءه كله فيثمل ليفضي بما عنده من معلومات. «كُرْشَابْ» احتفظ لنفسه بالإناء المملوء ماء وبدأ يشرب منه قليلاً قليلاً ويري «مَنْدُو» أنَّه بدأ يثمل. ولم يشك «مَنْدُو» قط أن «كُرْشَابْ» قد ثمل فعلاً حين بدأ يثرثر ويقول لـ«مَنْدُو» إنَّه يعرف أين يخبيء البَطْرِيَرْك ذهب الكنيسة. وحاول «مَنْدُو» استدراجه بذكاء ليعرف المكان، ولم يفاجأ حين أخبره «كُرْشَابْ» بمكان القبو السري فكثيرون كانوا يعرفون أن هناك قبواً سرِّيَّاً لكنهم لا يعرفون أين مكانه ولا كيفية النفاذ إليه. وكان «مَنْدُو» يحلم بالحصول على تلك المعلومة بأي ثمن ولكن دون جدوى. ولدهشة «مَنْدُو» الشديدة في تلك الجلسة فقد أخبره «كُرْشَابْ» بطريقة الوصول وكيفية فتح الأقفال





حين سأله «مَنْدُو» إن كان يعرف سر فتح الأقفال. كان «كُرْشَابْ» يهذي كالسكران تماماً، ورائحة الخمر تفوح من فمه. كان يقول أنَّه سوف يستولي على هذا الذهب يوماً ما ويبني به قصراً كبيراً فهو ذهب كثير. ولما سأله «مَنْدُو» ضاحكاً كيف يمكنك الدخول دون أن يُمْسِكَ بك البَطْرِيَرْك أخبره أنَّه يعرف أن البَطْرِيَرْك ينام وقت السَّحَر نومة عميقة ولا يستيقظ أبداً مهما جرى من أحداث أو سمع من أصوات. وانطلت الحيلة على «مَنْدُو» فصدق كل كلمة تفوه بها «كُرْشَابْ» (السكران)! وسرعان ما صرفه «مَنْدُو» بعد أن عرف طريقة فتح باب القبو السري. ثم أرسل يستدعي «أُرْصُد» على وجه السرعة. وحين وصل «أُرْصُد» أمره أن يجهز أعوانه ومعهم الحمير خلف كنيسة مارية لتحميل بعض البضائع إلى مخبئه الخاص في القصر تلك الليلة. وأن يأتوا فرادى كل واحد يقود حماراً فيختبيء خلف شجرة الأراك في انتظار إشارة «مَنْدُو»، وحين يرى الإشارة يتقدم ليحمل ما يجلبه «مَنْدُو» ويذهب به إلى المخبأ المعد لهذا العمل. ولم يخبره ما هو نوع البضاعة التي سيتم تحميلها من الباب الخلفي لكنيسة مارية عند شجرة الأراك. الجميع فهم دوره وانتظر الإشارة.

في تلك الليلة التي سبقت ليلة اكتمال البدر أي في ليلة الثالث عشر من الشهر قرر «مَنْدُو» الحصول على أموال الكنيسة ونقلها إلى مكان أمين قبل أن ينفذ خطة القضاء على البَطْرِيَرْك في الليلة التالية. كان هو الوحيد الذي يعرف طريقة فتح القفل أو هكذا كان

يظن، فقد أفشى «كُرْشَابْ» ذلك السر الرهيب في تلك الليلة. ولم يجهد نفسه ليسأل نفسه كيف عرف «كُرْشَابْ» هذا السر، أو ربما ظن أن «كُرْشَابْ» يعرف طريقة فتح القفل منذ أمد لكنه لا يجرؤ على الاقتراب من القبو، وأنَّه باح له بالسر حينما كان ثملاً. ولهذا قرر «مَنْدُو» أن يجرب فتح القفل بنفسه، ويجلب الذهب قبل أن يفيق «كُرْشَابْ» من سكرته فيحول بينه وبين الوصول إلى غايته.

في تلك الليلة تسلل «مَنْدُو» إلى الكنيسة بعد أن تأكد أنَّها خالية، وأنَّه لا يوجد من يراه وهو يفتح باب السرداب الذي يفضي إلى الأقبية، تحت ذلك المعبد المروي القديم المهجور. السرداب كان مليئاً بالغبار والفئران، وسقفه مليئ بالخفافيش ورائحة المكان نتنة. لم يصدق أن ذهب الكنيسة وكنوزها يمكن أن تكون محفوظة في هذا المكان القذر. لكن «مَنْدُو» كان يتمتع بالجرأة وروح المغامرة، فمضى قدماً إلى نهاية السرداب دون خوف أو وجل. وهناك رأى السلم الذي يقوده إلى أسفل فنزل. وسرعان ما ظهرت الأقبية الثلاثة ورأى باب القبو السري على أرضية أحدها. ورأى ذلك الحجر فأداره بالطريقة التي شرحها له «كُرْشَابْ». ولدهشته انفتح القفل وانزاح الحجر. لقد نجح إذن! ولم يكن «كُرْشَابْ» يخدعه أو يكذب عليه.

نظر داخل القبو. وكان هناك عدد من الصناديق الخشبية الضخمة ذات الأقفال النحاسية مرصوصة جنباً إلى جنب وكان أحدها مفتوحاً وبريق الذهب يلمع في ذلك الصندوق تحت وهج





القنديل الذي أضاءه «مَنْدُو». ولم يتردد «مَنْدُو» فقفز إلى الأسفل، وفي لحظة كان داخل القبو مهرولاً نحو الصندوق المفتوح. «مَنْدُو» لم ينتبه للمصيدة التي نصبت له إلا حينما سمع تلك الهمهمات ووقع الأقدام المسرعة، ثم رأى الباب الحجري يغلق تماماً ويسود الصمت المطبق والظلام، إلا من بصيص القنديل الضعيف الذي في يده. «مَنْدُو» وجد نفسه محبوساً داخل القبو الحجري وفوق رأسه باب مصمت يزن أطناناً من الحجر الصَّوَّان الذي لا ينفذ منه الضوء ولا الهواء. نظر في حسرة إلى الصندوق المفتوح الذي لم يكن يحتوي إلا على القليل جداً من الذهب للتمويه والخداع. إذن فقد كان «دِيرِين» يخدعه منذ البداية بعد أن نقل الذهب إلى مكان آخر، ثم نصب هذا الكمين ليتخلص منه إلى الأبد. كانت الصناديق الأخرى كلها فارغة. وحتى لو كانت مليئة بالذهب والمجوهرات فلم يكن «مَنْدُو» ليتمكن من إخراج مثقال واحد منها، فلا يوجد مخرج والقبو أصبح قبره إلى الأبد.

راقب «مَنْدُو» القنديل وهو يتراقص قبل أن ينطفيء حين نفذ الهواء من القبو تماماً. جلس فوق أحد تلك الصناديق الفارغة يستعرض سيرة حياته التعسة. كان يضحك على خيبته بصوت عالٍ، ولكن لم يسمعه أحد فالقبو مصمت تماماً. لكنه لم يستمر في الضحك المختلط بالبكاء كثيراً قبل أن يختنق داخل القبو ويخِرَّ على الأرض. وهكذا اختفى «مَنْدُو» ولم يعرف مكانه أحد بعد ذلك اليوم وتلك الليلة. إلا البَطْرِيَرْك «دِيرِين» وحليفه «كُرْشَابْ».

لاحظ البَطْرِيَرْك أحدهم متوارياً خلف شجرة الأراك وهو يسوق حماراً ففهم بقية الحكاية وأمر «كُرْشَابْ» أن يقوم بالواجب. أخذ «كُرْشَابْ» خنجره وتهيأ ثم كمن خلف الباب الخلفي لكنيسة ماريا.. ثم رفع يده بالإشارة علامة على الشروع في نقل البضائع. وكان صاحب أول حمار هو «أُرْصُد». جاء ليقابل «مَنْدُو» ويفوز بشرف نقل أول حمولة. كان متأكداً أن «مَنْدُو» يسرق الذهب من كنيسة مارية، لكنه حين وصل باب الكنيسة عاجله «كُرْشَابْ» بطعنة نافذة وصلت إلى القلب، فانكفأ ينزف فوق الحمار الذي انقلب يحمل الجثمان عائداً به إلى بقية المختبئين خلف شجرة الأراك. ولما وصلهم الحمار رأوا الدماء تسيل منه إلى الأرض، ورأوا «أُرْصُد» مقتولاً فتركوا حميرهم وفروا هاربين. البَطْرِيَرْك أمر «كُرْشَابْ» أن يتبع ذلك الحمار فيأخذه بعيداً ثم ينزل الجثة من على ظهره ويدفنها هو وأعوانه سراً في تلك الليلة قبل أن يطلع الفجر.

وفي صباح ذلك اليوم كانت الأجواء متوترة. «مَنْدُو» اختفى ولا أحد يعرف مكانه. وقد مات «أُرْصُد» مقتولاً ومجموعته تتهامس فيما بينها ولا تقدر على البوح بما فعلوه تلك الليلة ولا يعرفون أين اختفت جثته. البَطْرِيَرْك تنفس في ارتياح فقد خلت له الساحة وأصبح متأكداً أنَّه سيفوز بالفاتنة «أُونَتِّي».

***



في مخدع الملك



كانت ليلة الرابع عشر من الشهر القمري ليلة هادئة والسماء خالية من السحب. وحتى ساحة المدينة أمست هادئة على غير العادة. لم تشهد صخب «مَنْدُو» وأعوانه، واختفى «أُرْصُد». و«كُرْشَابْ» لم يحضر للسمر مثلما اعتاد كل ليلة. الحضور كان قليلاً والألحان فاترة وسرعان ما انفض الحفل الليلي باكراً عند أول الليل.

كان الملك قلقاً تلك الليلة يفكر. وكان مضطرب المشاعر فهو يحب زوجته حباً شديداً ولهذا فقد امتزج قلقه بالغضب، إذ كيف تجرؤ زوجته على التفكير في هذا الأمر لو كان صحيحاً! لكن ما جعله يتأكد من صحة كلام «دُوَانَة» هو أنَّه لاحظ قلق زوجته أيضاً، فقد كانت تخرج وتدخل كثيراً على غير عادتها. لكنَّه لم يفاتحها في الأمر فبقي صامتاً. وكانت تراقبه خلسة لكنه لم يشأ أن يشعرها بأنَّه يراقبها حتى لا تنتبه أنَّه قد كشف أمرها. وكان قد أعطى الأوامر للحرس ليراقبوا قصر عمِّه ويتأكدوا من وجوده داخل القصر وأنَّه لن يغادره إلى أي مكان في تلك الليلة. وأمر حرسه الخاص أن يكونوا قريبين من مخدعه ليناديهم في أي لحظة لو احتاجهم. كما استدعى أمين سرِّه وأسرَّ له ببضع كلمات ثم صرفه فمضى في صرامة نحو قصر عم الملك. لاحظ بقية الحرس قلق الملك لكنهم بالطبع لا يجرؤون على الكلام ولا السؤال فبقوا مستعدين ومتأهبين لأوامر

قائدهم الذي همس له أمين سر الملك ببضع كلمات قبل أن يغادر القصر.

بقيت «دُوَانَة» في جناحها مترقبة. كانت تخرج إلى باحة القصر فتتنصت ثم تعود إلى جناحها قلقة. وكان الحرس الذين وكلهم بها الملك يراقبونها صامتين. فقد كانوا يحسون أن في الأجواء أمراً غريباً غير اعتيادي.

«طَمْبَلْ» قائد الحرس ظهر فجأة وطلب «دُوَانَة» ليتحدث معها على انفراد في أمر هام في غرفتها. كان قلقاً ومنزعجاً. «دُوَانَة» توجست شراً من مجيئه في هذه الساعة ومن القلق الواضح في تعابير وجهه. سبقته نحو الغرفة فجلست ودعته للجلوس. تردد قليلاً ثم جلس لكنَّه بقي صامتاً فترة من الوقت، ونظر إلى الأرض قبل أن ينظر إليها في وجهها. ثم تكلم أخيراً:

– «هِيتِي»! تعلمين أنّني من قدمك إلى الملكة.

– نعم أعلم!

– وأنّني أنا من جعلت الملك والملكة يكرمانك ويؤويانك. وأحسنت إليك وجلبت لك ولابنتك الملابس والطعام وكل ما تحتاجين إليه.

– نعم نعم. أعلم هذا كله وأنا ممتنة لك ولا أعرف كيف أكافئك على صنيعك هذا يا «طَمْبَلْ» ليتني كنت أملك شيئاً. إذن لقدمته لك.

– بلى تملكين. وتستطيعين أن تكافئيني.

– لا بد أنك تمزح فأنا لا أملك مالاً يا «طَمْبَلْ» ولا أملك أي شيء آخر.





- زوجيني «أُونَتِّي» وتكونين قد كافأتني.

- ماذا؟. أُزَوِّ.. حتى أنت يا «طَمْبَلْ»؟

- حتى أنا ماذا؟ تعنين أنّني لا أستحقها يا «هِيتِي»؟ أنا قائد حرس مولاي جلالة الملك.

- بلى.. أقصد لا. لا. أنت تستحقها وزيادة. لكنِّي ما قصدت هذا.

- ماذا تقصدين إذاً؟

- أقصد أن كثيرين غيرك سبقوك فتقدموا لخطبتها يا سيدي. وحين طلبتَها الآن قلت لك حتى أنت أيضاً تريد أن تتقدم لخطبتها؟

- كثيرين؟ مثل من؟ أخبريني.. آآآ. فعلاً. فعلاً أخبرتني الخاطبة أن الأمير «مَنْدُو» قد تقدم لخطبتها. من غيره أيضاً؟

- ياللهول! الخاطبة أخبرتك؟ هذه المرأة لا تكتم سراً.

- الخبر منتشر في المدينة يا «هِيتِي». لا شيء يبقى سراً هنا. لكن أحذرك من «مَنْدُو» فهو يفعل هذا دائماً كلما رأى فتاة جميلة. وسوف يقضي معها ليلة أو ليلتين ثم يرميها كما فعل مع كثيرات في سوبا. لا تزوجيها لهذا الشيطان «مَنْدُو». هو أصلاً لا يحتاجها، فله زوجتان غيرها، لكن أنا لم أتزوج بعد. أرجوك يا «هِيتِي». أنا مناسب لها وسوف أحميها وأفديها بروحي. صدقيني أنا أحب ابنتك أكثر من أي شيء في هذا العالم. وسوف لن أسمح لك ببيعها رخيصة للأمير «مَنْدُو».

- ولكن. ولكن ياسيدي!

– لا تقولي لكن هذه.. لا أحب أن أسمعها.

– اسمعني يا «طَمْبَلْ». أنت رجل طيب القلب وأحسنت إلينا أنا وابنتي، لكنِّي لا أستطيع أن أزوجك «أُونَتِّي» فقد تقدم إليها.. الأمير «مَنْدُو» كما تعلم.

– نعم أعلم. وأعلم أنَّه تقدم إليها البَطْرِيَرْك أيضاً وأن مراسم الخطوبة تمت في الكنيسة سراً يا «هِيتِي». هلَ تظنين أنّني غبي مثلاً وأنّني لا أعلم ما يدور من حولي؟ ما الذي تنوين فعله يا امرأة؟ لو كنت تظنين أنَّه يمكنك ابتزاز هؤلاء الرجال بابنتك فأنت مخطئة. لأنَّهم لو اكتشفوا هذا فأنت حتماً في عداد الأموات.

وتشعر «دُوَانَة» أن سرها يوشك أن ينكشف لكنها تتمالك نفسها وتستمر في حبك حبائلها حول رقبة «طَمْبَلْ» قائد الحرس.

– ها ها. ها أنت قد كشفت سري يا سيدي. فعلاً لا شيء يبقى سراً في هذه المدينة ولكنِّي لا أبتز أحداً بابنتي. هم من تقدموا لخطبتها وأنا أخبرتهم كما أخبرتك الآن أنَّها لا تصلح لهم. لكن السؤال هو هل أنت مستعد يا «طَمْبَلْ» لأن تفعل أي شيء أطلبه منك مقابل أن تتزوج «أُونَتِّي»؟ أنا صادقة معك في هذه المرَّة.

– نعم. نعم. فعلاً أنت صادقة معي ومع«مَنْدُو» الذي خدعته وحتى مع البَطْرِيَرْك الذي أتم مراسم الخطوبة في الكنيسة. أنت صادقة معهم كلهم.

أحست «دُوَانَة» بالتهكم في لهجة «طَمْبَلْ» لكنها تجاهلتها وحاولت أن تمضي في خداعه غير أنَّه فاجأها:





- لكن قولي لي ماذا ستفعلين بخطبتها للبَطْرِيَرْك وللأمير «مَنْدُو»؟ وهل توجد ضحية ثالثة غيرهما يا «هِيتِي». أَقصد يا سمو الأميرة «دُوَانَة»؟

- سمو الأميرة؟ «دُوَانَة»؟ ولكن كيف عرفت؟

- ألم أقل لك إنَّه لا شيء يبقى سراً في هذه المدينة؟ واضح أنك نسيت أمر الخاطبة التي تعرف كل من عاش في (سُوبَا). حتى لو غاب عنها عشر سنوات. وإلا فكيف أصبحت خاطبة؟ هي لا تنسى الوجوه حتى لو تم تشويهها يا سمو الأميرة «دُوَانَة». أنسيت أنَّها هي التي خطبتك لزوجك الخائن المصلوب «أُونْدي»؟ وبالطبع تعرفت عليك فور أن رأت وجهك تلك الليلة فجاءت وأخبرتني. لكن قولي لي بربك أين كنت طوال هذه المدة؟ ولماذا عدت سراً إلى سوبا؟ وما الذي تنوين فعله هذه المرَّة؟

- والآن بعد أن كشفت سرِّي الكبير يا «طَمْبَلْ». ماذا تنوي أن تفعل بي؟

- لا شيء. أعدك ألا أفعل أي شيء لو زوجتني «أُونَتِّي» دون خداع. وسوف أكتم سرك للأبد. وسوف أتكفل بأمر تلك الخاطبة فتصمت إلى الأبد.

- موافقة!

- لماذا وافقت بهذه السرعة وقد كنت تراوغين منذ قليل؟

- ماذا تريد يا «طَمْبَلْ». لقد احترت في أمرك.

كان «طَمْبَلْ» في تلك اللحظات يضع يده على مقبض سيفه وهو يتحدث بغضب:

- كنت أنوي أن أقبض عليك أيتها المحتالة وأكشف أمرك للجميع فلا بد أن هناك شراً تدبرينه لنا وتخفينه وإلا فلا شيء يجعلك تعودين إلى (سُوبَا) متخفية بعد أن هربت منها سراً. لكنِّي محتار في أمرك فلو قبضت عليك وأخبرت الملك فسوف يتهمني بالتقصير والحماقة والغباء، فأنا من وثقت بك منذ البداية وقدمتك إليه، وربما يعزلني عن قيادة الحرس. والحل عندي هو أن أقوم بقطع عنقك حالاً أنت وابنتك أيتها الماكرة الخبيـــ....

لكنه سقط على الأرض قبل أن يكمل عبارته. فقد باغتته «أُونَتِّي» بضربة قوية على رأسه من قاعدة جرة الفخار الممتلئة ماء. «أُونَتِّي» كانت مختبئة قريباً منه واستمعت للحوار كله، وتدخلت في الوقت المناسب فأسقطته على الأرض بتلك الضربة. وعلى الفور أسرعتا فأوثقتاه بالحبل الذي يستخدم لربط ستائر غرفة الضيافة الملكية، ووضعتا لثاماً على فمه حتى لا يصيح منادياً الحرس إذا استيقظ من إغمائه. ثم أخذتا تفكران كيف يمكنهما التخلص منه قبل أن يفقده الحراس فينكشف أمرهما. وفي تلك الأثناء كان القمر قد اكتمل بدراً وتوسط السماء.

وبينما كانت «أُونَتِّي» تراقب المكان من الخارج، و«دُوَانَة» منشغلة بالتخلص من قائد الحرس سمعتا ضجة وأصوات أقدام مسرعة، ثم رأت أحد الحراس مهرولاً خارج القصر، ثم عاد بعد قليلٍ ومعه مجموعة من الحرس المسلحين، وأضيئت المشاعل





في القصر. خرجت «دُوَانَة» فبقيت مع ابنتها خارج الغرفة وهما ترتجفان من الرعب. وحين توجه الحراس نحوهما تجمدتا في مكانهما تنتظران ما يحدث بعد ذلك. ثم رأتا أحد الحراس يجري صوبهما وهو يصيح:

- أين هذه المرأة «هِيتِي»! يا «هِيتِي». تعالي معي يا امرأة. هيا بسرعة.

- من أنت وإلى أين آتي معك؟

أمرها الحارس بأن تصحبه بسرعة إلى مخدع الملك وأبلغها أن هذه هي أوامر الملك. وحاولت «دُوَانَة» التظاهر بالثبات لكن صوتها كان مليئاً بالقلق والخوف وهي تسأل:

- ما الذي يجري يا رجل؟ ولماذا يطلبني الملك في مثل هذه الساعة من الليل؟

- هذه أوامر سيدي الملك. واستعجلي يا امرأة فالأمر جد خطير.

- ماذا؟ ما الذي حدث؟ أنا لم أفعل شيئاً.

- مولاي الملك ذبح الملكة بالسكين. قطع عنقها. ويريدك الآن فوراً. أسرعي أسرعي.

- يا إلهي ماذا تقول!! كيف جرى هذا؟ أخبرني. بحق ربنا يسوع المسيح أخبرني.

- الملك كان مهتاجاً ويسب ويلعن وكان يصيح بأن مولاتي الملكة هجمت عليه في مخدعه بسكين وكانت تريد أن تذبحه فأمسك السكين وذبحها بها فوراً. هيا هيا الملك يريدك الآن.

وابتسمت «دُوَانَة» سراً بالرغم منها حين سماع هذا الخبر، ولمعت عيناها من الإثارة والحماس للمضي في خطتها، فطلبت من الحارس أن يسبقها إلى قصر الملك وأنَّها آتية خلفه وستلحق به فوراً. وما إن ذهب الحارس حتى تسللت «دُوَانَة» من الباب الخلفي لجناحها وركضت بأقوى ما تستطيع من قوة تجاه قصر عم الملك وحين اعترض الحرس طريقها أخبرتهم أنَّها تحمل رسالة خاصة من الملكة لأبيها. ولم يكن الحرس قد وصلتهم إشارة الملك بعد ولم يكونوا يعلمون بمقتل الملكة فسمحوا لـ«دُوَانَة» بالدخول لما رأوها تلهث من الجري. وحين اقتربت من مخدع عم الملك صاحت بأعلى صوتها وهي تبكي بأن الملك قتل ابنتك وهو قادم إليك الآن.

لم يصدق عم الملك ماسمعه فأمر الحرَّاس بالقبض عليها وإحضارها. لكنَّه حين استمع لقصتها التي روتها أدرك صدق ما تقول. أصيب بالصدمة مما سمع وسرعان ما تمالك نفسه وأحس بالغضب يسري في كل ذرة من كيانه، فأمر قائد حرسه أن يجمع أتباعه جميعاً، ثم قاد حرسه وتوجه بهم إلى قصر الملك. كان مصدوماً وغير مصدق في نفسه، لكنه أحس بالخطر فتهيأ له.

كان عم الملك من أنصار الكنيسة وقد حاول «دِيرين» استمالته بكل ما أوتي ليقف معه ضد الملك ووعده بأن يكونَ هو الملك من بعده لكن العم كان مشفقاً على ابنته وعلى ابن أخيه، فهو صهره وليس من المروءة أن يخونه ويطعنه في ظهره من الخلف. لكن هذا الخبر وقع عليه كالصاعقة. فابنته قد ذهبت والذي قتلها هو





زوجها وصهره وابن أخيه. فلم يبق له بعد هذا ما يخشاه أو يخاف عليه. امتشق سيفه وانطلق كالمجنون صوب قصر الملك. الحراس كانت قد وصلتهم الأوامر بالتحرك نحو قصر عم الملك للقبض عليه فواجهوا عم الملك في الطريق. ونشب القتال..عم الملك كان أحد الفرسان الشجعان المقاتلين. كان يقاتل بشراسة وأمر فرسانه بقتل كل من يعترض طريقه، وأخبرهم أنَّه سيدخل قصر الملك ويذبحه انتقاماً لابنته.

في الطريق إلى قصر الملك سالت دماء كثيرة وسقط العديد من الحرس والمقاتلين. والخبر انتشر مثل الصاعقة أن الملك قتل زوجته ابنة عمه، وأن صهره يحاصر القصر مطالباً بدم ابنته. وسرعان ما تدخل الجيش منحازاً لصف الملك فحاصر عم الملك وأعوانه وفرسانه. وانتهز البَطْرِيَرْك «دِيرين» هذه الفرصة فانحاز هو وجيش الكنيسة لعم المَلِك وحاصَر القصر المحاط بجيش الملك. ودارت المعركة في طرقات (سُوبَا). واختلط المقاتلون واشتعلت المدينة في تلك الليلة وسالت الدماء. «دُوَانَة» لم تكن في حاجة لإعطاء الإشارة لجيش (القَوَاسْمَةْ) فقد نقل إليه رجاله المبثوثون في المدينة كل شيء. وكانت الحرائق المشتعلة هي بمثابة الإشارة أن (سُوبَا) قد أصبحت جاهزة لاستقبال الفاتحين.

لكن «دُوَانَة» لم تبق في (سُوبَا) فقد غادرت المدينة عند السَّحَر قبل طلوع الفجر. وحراس المدينة عند الأبواب لم يتعرَّضوا لها فقد كانوا يعلمون منزلتها في المدينة. كانوا يعلمون أنَّها في ضيافة الملك والملكة. ولهذا فحينما رأوا هَوْدَجها فوق تلك النَّاقة الضخمة

متجهة نحوهم عرفوها فتنحوا وأفسحوا لها الطريق. لكنها لم تكن هناك وحدها داخل ذلك الهَوْدَج النوبي العتيق فقد كانت معها ابنتها الرقيقة الفاتنة ”«أُونتّي»”. كلتاهما غادرتا المدينة في ذلك الوقت من الليل. وفي الطريق رأتا جموع الغزاة تتدفق نحو المدينة.

الأمير «عبد الله القِرين» قائد جيش (القَوَاسْمَةْ) أرسل معهما من يحرسهما ويحميهما. رغم أن «دُوَانَة» ما كانت تحتاج جيشاً للحماية فهي بمثابة جيش جبار فقد فعلت وحدها ما لاتقدر الجيوش مجتمعة على فعله. «دُوَانَة» أدت مهمتها بنجاح وسط أمراء (عَلَوَة) وكبارها ونبلائها وتمكَّنت من تفكيك واحدة من أقوى الدول في المنطقة في زمانها فخربتها، ثم خرجت سالمة بل ظافرة منتصرة. وربما تعود لترقص فوق أطلالها وتشفي غليلها وتطفيء حرّ كبدها المكلومة على زوجها المقتول غدراً، وكرامتها المهدرة، ومجدها المعتدى عليه. عند الفجر سقطت (سُوبَا).. !! وعند الفجر ذهب مجد (عَلَوَة) إلى الأبد..

***





ذكريات الأرض الأخيرة

- جدَّتي.. هل مازلت ترغبين أن نواصل هذه الرحلة المجنونة؟ بصراحة لا أعرف كيف أعبر عن إعجابي بشجاعتك. أين كنت حين هجم جنود (القَوَاسْمَةْ)؟ وأين كانت «ميمونة»؟ وماذا حدث لكما بعد ذلك.

- قبل دخول (القَوَاسْمَةْ) كنت أمضي سحابة النهار مع «أُونَتِّي» ثم أعود ليلاً إلى بيت «ميمونة» وذلك حتى قبل اختفاء «مَنْدُو» ومقتل زوجة الملك. ومن بعدها بقيت في بيت «ميمونة» فلم أخرج لأن «ميمونة» لم تكن موجودة داخل (سُوبَا) يوم دخلها (القَوَاسْمَةْ). لكن في صباح ذلك اليوم وقبل أن يهدموا بيت ميمونة خرجت منه فرأيت كل شيء. وكنت واقفة حين دخلوا من جميع بوابات المدينة وحين طاردوا جنود الكنيسة. ورأيت القتل والدماء وجثث الموتى ورأيت الهدم وانهيار المباني والبيوت والكنائس. ورغم أنّني كنت واقفة فوق مكان عالٍ إلا أنّني كدت أختنق من الغبار والتراب والدخان. كثير من جنود الكنيسة اختلطوا ببقية الكهنة حتى يظن القادمون أنَّهم كهنة فلا يتعرضوا لهم بالأذى. أما الكهنة والرهبان الحقيقيون الذين احتموا بالكنائس فقد خلعوا منطقاتهم الذهبية وجميع الحلي الذهبية التي كانوا يلبسونها

في أيديهم وأعناقهم، واكتفوا بملابس الكهنوت، فلبسوا التُّونِيَات والبِتْرَاشِيلات والبُلِّينَات والبَرَانِس. وبعضهم خلع التيجان وصفائح الإكليل الذهبية فبدت رءوسهم صلعاء عارية وملابسهم عاطلة من كل زينة. وكانوا يقطعون صلواتهم كلما اقتربت الخيل أو مرت بجانب الكنيسة ينظرون في فزع ويرقبون الخيل كلما جاءت راكضة عند منعطف الطريق وعلى ظهورها الفرسان الغاضبون، ثم تتبعها أعينهم الوجلة حتى تغيب عن الأعين أو يغطيها الغبار. وكثير من الشمامسة الذين كانوا قد انقطعوا عن الكنيسة فترات طويلة فتخلوا عنها وعن المراسم والصلوات والمناسبات والأعياد عادوا في ذلك اليوم مهرولين وقد لبسوا تونياتهم وزنانيرهم ولبسوا ملابس الكنيسة حتى لا يتعرض لهم الفاتحون.

كانت (سُوبَا) بمثابة محرقة ضخمة وكأن بركاناً تفجر من كل بيت وفي كل شارع. وكان النّاس يهربون من بيت إلى بيت كلما جاء عرب (القَوَاسْمَةْ) لهدمه. فكرت في الاحتماء بقصر الملك لكن تبين أنَّها فكرة غبية فقد بدأ به الفاتحون فهدموه ولما غادروه ليهدموا بقية المباني ذهبتُ فصعدتُ فوق حطامه ووقفتُ على أطلاله وكنت أراقب ما يحدث في بقية أنحاء (سُوبَا). ومن هناك رأيت كل شيء فقد كان القصر عالياً ومشرفاً على بقية الأحياء. هناك صعدت على أعلى تلة من بقايا الطوب والحجر وبقيت أراقب منظر (سُوبَا) وهي تحترق. وتذكرت «أُونَتِّي» و«دُوَانَة» لكنِّي حين نظرت ناحية جناح الضيافة وجدته مسوى بالأرض وليس ثمة إنسان حول المكان. لا





«دُوَانَة» ولا «أُونَتِّي» ولا غيرهما. ويبدو أن الفاتحين هدموا جناح الضيافة فوق رأس «طَمْبَلْ» قائد الحرس الذي كان فاقد الوعي وموثقاً فدفنوه حياً تحت الركام.

وتذكرت وقتذاك حديث «ميمونة». كانت «ميمونة» قد قالت لي حين رأت «دُوَانَة» لأول مرَّة أنَّها تحسُّ بأن هذه المرأة ستكون شؤماً على (سُوبَا) وأهلها. ولم تطمئن لمنظرها رغم أنَّها ساعدتها وبقيت معها. وبالفعل تحققت نظرة «ميمونة» في «دُوَانَة». وحين قصت عليَّ «دُوَانَة» قصتها لم أخبر «ميمونة» فبقي سرُّها مكتوماً في صدري ولم أبح به لأحد حتى حدثتني به أنت الآن يا ولدي.

– فعلاً هذه المرأة كانت هي سبب الخراب.

– النّاس لم يكونوا قد عرفوا أن «هِيتِي» ليست هي سوى الأميرة «دُوَانَة» جاءت لتأخذ بثأر زوجها المقتول وملكها المغصوب فأطلقوا عليها اسم (عجوبة) من بعد ذلك فقالوا "عجوبا خربت (سُوبَا)"..!!

– والخاطبة لم تخبر النّاس بحقيقتها؟

– من الأعاجيب أنّني وجدت جثة تلك الخاطبة وسط الحطام والركام ويبدو أنَّه قد سقط فوقها أحد الجدران حين كانت تحاول الهرب.

– فعلاً يا جدَّتي. هذه المرأة «دُوَانَة» داهية فعلت الأعاجيب في (سُوبَا). لكنِّي مع ذلك لا ألومها فهي مظلومة وموتورة. وأين كانت «ميمونة» في ذلك الوقت؟

- كانت قد ذهبت إلى (شُوحَطَتْ) تستقبل «فاطمة المرضية» الملقبة «صُلَيْحَة» شقيقة «عائشة» زوجة «عبد الله القِرين» وكانت «عائشة» قد دعتني أنا و«ميمونة» لحضور زفاف شقيقتها «فاطمة». والعريس أراد أن ينقلها إلى قريته وهو من أهلها (المَحَسْ) المقيمين بمنطقة (الحليلة شُوحَطَتْ).

- وما اسم العريس يا جدَّتي؟

- هو «محمَّد الأرباب بن علي بن قرين بن قندل بن إدريس بن فلاح» وأمه هي «الشريفة أم حسُّون بنت الشريف موسى». وبعد أربع سنوات من الزواج ولدت له ذلك الولد الصالح المسمى «إدريس»..

- تقصدين «إدريس بن محمَّد الأرباب»؟

- نعم يا ولدي. أنت تعرفه والنّاس أطلقوا عليه لقب (أبوفِرْكَة). فقد ولد ملفوفاً بغشاء ملون يشبه فِرْكَةَ القَرْمَسِيسْ الحريرية في تعدد ألوانه وذلك هو سبب اللقب.

- وماذا حدث في (سُوبَا) بعد هذا يا جدَّتي؟

- ما بك يا ولدي؟ هل سأحكي لك الحكاية كلّها؟ أنت من سيحكي لي. هيَّا تعال لنكمل سوياً أنا وأنت. وأنت من سيقص بقية الحكاية.

- حاضر يا جدّتي لكن ما رأيك أن نكملها غداً؟

- فليكن إذن. أنتظرك غداً .



ولم أنم في تلك الليلة فقد استعرضت كل هذه الأحداث في ذهني. وما عدت أفرق بين واقع الأحلام وخيالات الواقع فحلمت بها في النوم. وهرعت إلى بيت جدّتي في اليوم التالي فأخذت أحدثها بما أراه عما حدث في (سُوبَا) بعد سقوطها فرأيت أن المنطقة أصبحت خالية والنّاس هجروها فتوجهوا جنوباً. والعشائر بدأت تنحاز إلى قبائلها. (المَحَسْ) (البُدَاناب) و(أولاد جامع) من الذين كانوا في (شُوحَطَتْ) إلى الشمال نزحوا جنوباً واستقروا في (بُتْرِي) الشرقية. والنّاس كانوا خائفين من السكن في (سُوبَا) فكانوا يتجنبونها ويظنون أنَّها مساكن الجن فيتجاوزونها جنوباً. ومعظم (العَنَج) و(الهَمَج) الذين كانوا في (سُوبَا) حين خرجوا منها نزحوا جنوباً حتى وصلوا منطقة اسمها (رُوصِيرِصْ) فاستقروا هناك وأسسوا قرية اسمها (سُوبَا). و...

لكن جدّتي سرعان ما أيقظتني هذه المرَّة فلم تتركني أكمل وقالت:

- لقد اكتفيت من حكايات (سُوبَا) فحدثني عن جدي. اشتقت إلى سماع أخباره. احك لي عنه!

- حاضر يا جدتني. ها أنا قد أغمضت عيني. وها أنا الآن أراه ماثلاً أمامي. جدّك الحاج أمضى سنة كاملة في هذه الرحلة الطويلة ذهاباً وإياباً. رافق قافلة الحج في سيرها الطويل المضني وهاجمهم قطاع الطرق أكثر من مرَّة وفي أكثر من مكان، وتفرقت القافلة وفقد أشياءه ونقوده، فاضطرَّه الجوع للتخلي عن مخطوطته التي

كان يحبها ويحرص عليها من أجل لقمة يسد بها رمقه في (تِيمْبُكْتُو). وكابد عطش الصحراء وبردها وحرَّها وجوعها وليالي الخوف والعواصف الرملية. أضنى جسده السفر ونحتته ظهور الرواحل وأنهكه السير الطويل. ثم وصل البحر ولم تكن معه أجرة العبور فاضطر للعمل في المركب خادماً لرُبَّان السفينة، لكن الرُّبَّان حين رأى أنَّه شيخ كبير أعفاه من العمل وحمله بلا ثمن.

وحين عبر البحر ذهب إلى (مكة) فأدَّى فريضة الحج ودعا في (عرفات) وعند (المشعر الحرام) وفي الكعبة بأن يجمع الله بينه وبين حفيدته «صُلَيْحَة». قال إنَّه لا يريد في هذه الدنيا سوى «صُلَيْحَة». هي كل همه. لا يريد شيئاً سوى ذلك. وكان «عبد السميع» قد فارقه في منتصف الرحلة إلى بلاد (النوبة) قبل بلوغ (تِيمْبُكْتُو) حين هوجمت القافلة في المرَّة الأولى. البعض هربوا خوفاً أن يتم القبض عليهم فيباعوا عبيداً وكان «عبد السميع» من بين أولئك الهاربين. ثم لم يجتمع شمله مع بقية من تخلَّفُوا مع القافلة. كان على جدّك أن يقاسي مشقة السفر في رحلة الحج وحده دون عون ودون مرافق، حتى وصل (مكة).

لكن جدّك الحاج قابل «عبد السميع» في الطواف عند البيت فعلم أنَّه نجا من قطاع الطرق فلحق به وأمسكه من الخلف وهما في الطواف ثم أديا الفريضة معاً. «عبد السميع» لزم جدّك الحاج يخدمه وكان يعمل نهاراً ليأتيه بالطعام ليلاً. ومع الوقت أصبح «عبد السميع» هو صديق جدّك المقرب. وبعد أداء الفريضة سارع





جدّك بعبور البحر عائداً إلى المغرب. لكن «عبد السميع» تخلف في بلاد (النوبة) فبقي في (البُطَانَة) الشرقية شرق البحر الأخضر حين أعجبه المكان.

ويواصل جدّك الرحلة المضنية وحده هذه المرَّة أيضاً. ستة أشهر قضاها في الطريق عائداً إلى القرية. لكنَّه عند وصوله يفاجأ بأنَّها أصبحت مهجورة وخاوية على عروشها. لا حياة ولا حركة فيها. ولا أحد يسير في الطرقات إلا الكلاب المسعورة. وروائح الموتى تفوح من داخل البيوت. ويهرع إلى زاوية سِيدِي «محمَّد المختار» لكنه يجدها فارغة تسكنها الطيور والخفافيش. يهرع إلى الغرفة حيث تركك. فيجد الغرفة فارغة.. ويتلفت باحثاً عن «بُرْهَامِي» أو أي من رواد الزَّاوية. يرفع صوته منادياً فيجيبه الصدى الغبي مردداً نداءه الحزين وصوته المفجوع. الجميع رحلوا إذن وغادروا القرية أو أقفلوا عليهم أبواب بيوتهم وماتوا داخلها فلابد أن الوباء قد عاد وتفشى فيها مرَّة أخرى. يعود إلى بيته فيجده خاوياً كئيباً. لا شيء في القرية غير الصمت الذي تقطعه زقزقة الطيور على الأغصان بين الفينة والأخرى. ولا أحد ليسأله.

يجلس في الساحة واضعاً يديه على رأسه. لأول مرَّة في حياته يشعر بغصة في حلقه وألم في قلبه فيبكي ندماً على تفريطه فيك وينتحب حزناً عليك. لم يبك حين مات والداك في ذلك المرض فجدّك الحاج رجل مؤمن بالقضاء والقدر. لكن هذه المصيبة هي فوق كل احتمال. جدّك كان يعلم فاجعة اليتم لصبية لا حول لها ولا

قوة. ويعلم أنَّه تخلى عنك حين كان هو ملاذك الوحيد. جدّك جلس يبكي عليك كما لم يبك في حياته قط. بكى حتى أحس أن كبده مشتعلة ناراً تفري جوفه. بكى حتى جفت الدموع ونضبت مقلتاه. كان قد تشبث بالحياة من أجلك. قطع الفيافي والقفار والصحارى من أجل أن يعود فيراك. لم يكن شيء يشغله إلا أنت. كان يتعجب من نفسه كيف سمح لنفسه أن يتخلى عنك بهذه السهولة ويتركك وراءه. لكنه حين عاد لم يجدك. ندم على هذا أشد الندم. لكنه حين أغفى وهو في تلك الحال رآك يا «صُلَيْحَة». رآك في حال حسنة. هناك في البعيد. امتزجت روحه مع روحك وحلقت به ليراك. تردد صدى صوتك في أعماق روحه. سمع كلماتك حين كنت تودعينه في ذلك اليوم قبل أكثر من عام:

– جدي أنا وَلِّيتْ كْبيرة. نِتْسَنَّاك وننتظرك ولو بعد مِيَّاتْ عام وتعود. سير آجدي غير سير. وتهللا فْرَاسَك. وانتبه لنفسك.

ثم لم يلبث أن نهض عازماً على البحث عنك. فبدأ الرحلة مجدداً ولا يدري إلى أين يسير ولا الوجهة التي سيقصدها. لكنه كان متأكداً أنَّه لن يتوقف حتى يجدك. كان متأكداً أنك على قيد الحياة. جدّك يتشبث بهذا الأمل ويبدأ السير دون تفكير. ينزل منحدراً من ذلك التل الذي بنيت فوقه زاوية سِيدِي «محمّد». يعبر ساحة اللعب في أسفل التل. يرى خيالك في الساحة حين كنت تلعبين مع الصغار والأقران. يتجاوز الدور. يخوض مجرى الماء الصغير وينتبه أنَّه يمشي حافياً. يحث الخطى شرقاً. يمر عبر المقابر. يتجاوزها.





القرية أصبحت خلفه تماماً. السكون يخيم على المكان إلا من أصوات الغربان فوق الشجر وصوت أقدامه الحافية فوق الرمال، وظله ممتد أمامه طويلاً وكأنَّه ينافسه في السباق نحو الشرق. يستمر في المشي. لهاث أنفاسه الحرَّى لا يهدأ ولا يتوقف، والبخار يخرج مع كل زفرة من أنفه وفمه. والنسيم البارد المتقطع القادم من البحر يضرب رأسه الأصلع من الخلف. يتوقف وينظر نحو القرية فلا يراها. لقد اختفت خلفه وحالت التلال الرملية بينه وبينها. يعاود السير نحو الشرق فيمشي ويمشي ويمشي نحو المجهول.

في الطريق يجد بعض مضارب الخيام. يخبرونه أنَّه بعد عام الوباء الذي يشبه الطاعون وقعت المجاعات وانتشر الفقر في البلاد. والمزارعون لم يعودوا يذهبون لمزارعهم فقد مات كثيرون وقل الطعام. النّاس كانوا يهربون من المدن والقرى إلى الصحارى والأرياف. قوافل النازحين استمرت في الهجرة إلى الشمال والشرق هرباً من الداء والقرى أصبحت خالية من النّاس. كثيرون واجهوا الموت عطشاً في الصحراء. أما في المدن فبيوت الأغنياء بقيت خاوية، وأبواب البيوت مغلقة، ومن لم يأكله وحش الجوع جلس ينتظر حتفه في بيته. أوهرب يبحث عن طعام. في (فاس) و(مكناس)، أصبحت رائحة الموت تزكم الأنوف، النّاس كانوا يموتون في بيوتهم ولا أحد يهتم لدفنهم وروائحتهم ملأت المدينة. ثلثا بيوت المدينتين أصبحت خاوية على عروشها والبقية الباقية هاجروا بحثًا عن بضعة أيام أخرى في الحياة، فشدوا الرحال إلى

بلاد الشرق حيث بلاد (النوبة) والنيلين، التي أصبحت تستقبل هؤلاء المتجهين إلى أرض (الحجاز) للحج أو العائدين منه، من الذين كان لابد أن يعبروا عبر تلك البلاد. والبعض كانوا يقابلون وفود الحجاج فيبرمون معهم صفقات. يزودونهم ببضائع لبيعها في بلاد (الحجاز)، ومع الوقت وجد بعض المغاربة أنَّهم أصبحوا تجاراً بين بلاد (النوبة) وأرض (الحجاز) والمكسب فيها أكثر بكثير مما يمكن أن يتحقق في المغرب.

وكان السلطان في المغرب يأخذ أموال الأثرياء قسراً بعد الوباء وانتشار المجاعة، ويمنع الأثرياء من مغادرة مدنهم حتى جاء وقت لو أن أحد الأثرياء خرج من مدينته يقتله السلطان، ويستولي على ثروته، فهاجرت معظم القبائل نحو الشرق. واستوطنوا مع نسائهم وأطفالهم بين البحرين الأبيض والأخضر في بلاد (النوبة) وفي بادية (البُطَانَة) الشرقية، خاصة بعد غروب شمس دولة (عَلَوَة). ولحقوا بالهاربين من الموت بفعل المجاعة والجفاف والحكام الظلمة. وقليلون منهم هاجروا إلى (مصر).

جدّك يستمر في السير شرقاً. الشمس مالت نحو المغيب لقد كبر على مثل هذا وما عاد جسده يحتمل. لكنه لا يستسلم ولا يتوقف أبداً. طيور القطا تفر من أمامه. يتجاهلها ويواصل طريقه. يسير عبر الأشجار الشوكية المتناثرة. ويصعد فوق التلال. يعثر على طريق ترابي نحتته أقدام الرواحل والإبل. يتبعه شرقاً. يسير عبر أشجار التين الشوكي. ينظر إلى السماء. القمر صار كرة مستديرة





بيضاء متربعة في السماء والرؤية باتت ممكنة إلا من بعض السحب التي تعبر تحت القمر فتحجبه قليلاً لكنه سرعان ما ينزع الغطاء مسفراً عن وجهه الضاحك المنير.

وَطُّ الخفافيش ورفيف أجنحتها فوق رأسه يقطع الصمت بين الآونة والأخرى. يستمر في السير فيسير الليل بأكمله. أصوات نباح الكلاب تأتي من بعيد فتجاوبها أصوات كلاب أخرى. يعلم أنَّه قد اقترب من مضارب إحدى القبائل ويستمر في المشي المتعثر شرقاً. ينظر إلى القمر أمامه عالياً ويبتسم. هاهو وجه «صُلَيْحَة» في ذلك القمر بِطَلَّتِهَا البريئة وابتسامتها المشرقة. جدّك يزداد عزماً على المضي قدماً. يتحدث إليك. يخبرك بأنَّه لن يتخلى عنك أبداً. يخبرك بأنَّه سوف يلحق بك حتى لو صعدت إلى القمر جدّك الحاج يفتح ذراعيه إليك. ويسقط. يمكث الليل بأكمله على الأرض لكن لا أحد هناك ليرفعه ولا يد تمتد إليه. ينهض فجراً. يصلي ثم يجلس ويرفع يديه بالدعاء حتى تشرق الشمس ثم ينهض. ويواصل السير بعزم جديد.

وفي نهار ذلك اليوم يصل مضارب قبيلة (الحسَّانية) فيستقبلونه. «حَسِينَة» تتعرف عليه وتخبره بقصتك كلها. يستبشر حين يعلم أنك مررت من هنا يا «صُلَيْحَة». تخبره أن أحد رجال الحسَّانية هو الذي أعاد "مطيع" إلى مضارب القبيلة وأنَّه كان هناك حين هبت العاصفة في الصحراء وشاهد إغارة بعض قطاع الطرق على قافلة الملح فنهبوا الملح وتفرقت القافلة وأنَّه رأى "مطيع" فعرف أنَّه أحد

جمال الحسَّانية وذلك حين رأى الوسم الذي يميزه. لكنه"حين رأى «صُلَيْحَة» ظنها غنيمة كانت مع قطاع الطرق فاختطفها ليبيعها ولما حملها إلى بيته وذهب ليأتي بـ"مطيع" تعرف الجمل على «صُلَيْحَة» فأيقن أنَّها حسَّانية ولذلك أعاد إليها متاعها وأوصلها إلى (تِيمْبُكْتُو) لكنه أعاد الجمل إلى مضارب القبيلة خوفاً من اعتداء القبائل الأخرى عليها لو علموا أنَّها حسانية. جدّك الحاج يطمئن أنك مررت من هنا وأنَّه على الطريق الصحيح. وتمنحه «حَسِينَة» جملك "مطيع" ليكمل رحلته على متنه إلى (تِيمْبُكْتُو). فيكمل الرحلة شرقاً.

عند وصوله (تِيمْبُكْتُو) يتوجه فوراً نحو بائع المخطوطات لكن لا أثر له. سأل عنه جيرانه فقالوا إنَّهم لا يعلمون أين اختفى. لكن امرأة عجوز قالت إن هذا البائع يظهر في أحيان قليلة جداً ثم يختفي، ولا أحد يرغب في مخطوطاته ولا أحد يشتري منه فهي لا قيمة لها. وأنَّه اختفى منذ ستة أشهر أو أكثر وهو قبل ذلك لم يكن يخالط النّاس ولا يعرفون عنه شيئاً. كل الذي يعرفونه أنَّه يغيب خارج (تِيمْبُكْتُو) بضعة أشهر ثم يظهر فجأة، ثم لا يلبث أن يذهب. وهو رجل مريب، ولا يعرفون أين يسكن.

لا ييأس جدّك ولا يستسلم فيبقى في (تِيمْبُكْتُو) شهراً كاملاً يبحث عن هذا البائع فالمخطوطة تعني له الكثير. هو لا يعرف كيف يستردها حتى لو وجدها مع بائع المخطوطات، ذلك أنَّه لا يملك نقوداً، وليس معه شيء يقايض به، لكنه مستعد أن يفعل





أي شيء من أجل أن يستردها. إنَّه يبحث عنها كمن يبحث عن ذاته وكرامته. هذه المخطوطة كانت هي كل ما بقي له في الحياة بعد أن غبت عنه يا «صُلَيْحَة». والآن ضاعت المخطوطة ولا أثر لها. لا بد أن يجدها ولابد أن يجدك. لكن المخطوطة مهما كانت قيمتها في نظره ففقدها لا يساوي شيئاً بالمقارنة مع فقدك. وفتاة تدله على مكان بائع المخطوطات فيفرح ويذهب سريعاً حيث وصفت، لكنه يجد المكان خاوياً ولا أثر لأحد فيه.

في (تِيمْبُكْتُو) يبقى وفيها يكتسب صداقات جديدة. كانوا بضعة رجال تعرف عليهم في المسجد. كانوا يمكثون بعد الصلوات يصلون النوافل ثم يسمرون. وحين رأوه يطيل البقاء في المسجد حولهم عرفوا أنَّه غريب فدعوه مرَّة لوجبة طعام، ثم بقوا يطعمونه بعد ذلك كل يوم، ولا يسألونه عن وجهته، لكنه حين بقي معهم شهراً أخبرهم بقصته وحدثهم بوجهته فجمعوا له مبلغاً من المال، واكتروا له راحلة وجهزوها بالزاد والماء. لكنهم نصحوه أن يصحب قافلة متوجهة إلى الشرق، وذلك ليتفادى قطاع الطريق وعصابات الصحراء. جدّك أسف لمفارقة (تِيمْبُكْتُو) لأنَّه فقد الأمل في العثور على المخطوطة، ولم يبق له إلا العثور عليك أنت. يستعيد ذكراه حين كنت معه. يلوم نفسه أنَّه فرط فيك فتركك خلفه في القرية في زاوية سِيدِي «محمَّد المختار»، وها هو سِيدِي «محمَّد المختار» قد اختفى و«بُرْهَامِي» وجميع أهل القرية بعد الوباء. لكنه مسرور أنك تركت القرية فلم يصبك الوباء.

وفي الطريق حين تقابله قافلة قادمة من (سُوبَا) يخبرونه أن (سُوبَا) محاصرة لكنه حين يسألهم عنك يحدثونه أن فتاة بذات هذه الأوصاف كانت تعترض القوافل وتسأل عن جدها فلا بد أن تكون هي. يوقن أنك في (سُوبَا) فيشد العزم على المضي قدماً. وبعد ثلاثة أشهر يعبر البحر الأخضر شرقاً من جهة (بُتْرِي) ويصل إلى (سُوبَا) قبل مغيب الشمس. لكنه حين يعبر لا يرى سوى الأطلال والخرائب التي يسكنها البوم. (سُوبَا) أصبحت كومة من الطوب والحجارة. ورغم أنَّه لا يفقد الأمل إلا أنَّه أصبح محتاراً فقد تقطعت به السبل فلا أحد في الجوار. و يقرر أن يقضي تلك الليلة حيث هو فلا يبرح المكان إلا صباح الغد. يتذكر أنَّه فارق «عبد السميع» في هذه الأماكن، فيقرر أن يجده عله يعينه في البحث عنك يا «صُلَيْحَة». يصلي العشاء ثم يتوسد ذراعه لينام. لكنه يسمع رغاء الإبل فيستيقظ وينظر جنوباً فيرى شبحاً قد أناخ راحلته وجاء يمشي نحوه..

وبالرغم من حلول الظلام إلا أن مشية هذا القادم تشبه مشية ذلك الفتى «عبد السميع».. ويذكر أنَّه قد تركه في هذا المكان قبل ستة أشهر حين عودتهما من الحج. فيتحول الشك عنده إلى يقين. ويطل «عبد السميع» بضحكته المجلجلة ويهرع نحو جدّك الحاج ويعانقه. ثم يقرر أن يستضيفه عنده هناك ليقضي الليلة عنده في مشارف بادية (البُطَانَة). فيقودان جمليهما ويتحدثان وهما في الطريق و«عبد السميع» يسأل جدّك الحاج:





– ماذا تفعل هنا يا عمِّي ألم تفارقني منذ ستة أشهر عائداً إلى المغرب؟ لابد أنك قد أجهدت نفسك وراحلتك كثيراً..

– نعم يا ولدي لكنِّي جئت راجعاً كرة أخرى أبحث عن حفيدتي. ألم أحدثك عنها من قبل يا «عبد السميع». لا أكتمك فأنا أخشى أنَّها قد قتلت في (سُوبَا) يوم الخراب فقد أخبرتني قافلة أنَّهم شاهدوا فتاة بنفس أوصافها في هذا المكان تسأل عني لكن يبدو أن كثيراً من النّاس قتلوا في هذا المكان وأنت ماذا تفعل هنا يا «عبد السميع»؟

– يرحمها الله. ويرحم من قتلوا في ذلك اليوم لو كانت معهم. أنا لست وحدي هنا يا عمي. هذه الأرض أصبحت مأوى للقبائل القادمة من المغرب. فكثيرون ممن نزحوا من الأندلس أو هربوا من الوباء أو من جور السلطان في بلاد المغرب جاءوا واستوطنوا هنا.

– كم بقيت هنا يا ولدي؟

– أكملت نصف عام هنا يا عمي.. أهل هذه المنطقة مضيافون وأجواء (البُطَانَة) تشبه أجواء المغرب. بل وأهلها معظمهم من القبائل النازحة من المغرب. لماذا لا تبقى معنا هنا يا عمِّي؟

ويصمت جدّك الحاج فلا يجيب.. كنت أنت يا «صُلَيْحَة» كُلَّ هَمِّهِ.. لكنه لا يعلم أحيةٌ أنتِ أم ميتة. فواضح أن (سُوبَا) قد أصبحت خراباً الآن وجميع سكانها قد رحلوا أو قتلوا. وتَرَحُّمُ «عبد السميع» عليك أوجعه وأسال دمعه لكنه كتمه وأخفاه عنه

فتظاهر بالتجلد. يبدو أن «عبد السميع» لا يعرف مقدار حب جدّك لك وإلا لما أظهر عدم الاهتمام وعدم المبالاة في كلامه مع جدّك. لكن رغم هذا كله ينازعه حبه لـ«عبد السميع» للبقاء معه إلا أنَّه يطرد هذه الفكرة فهو لن يتخلى عن البحث عنك أبداً حتى يعلم أين أنت أو يجد جثتك على الأقل. ويقطع عليه «عبد السميع» حزنه وتفكيره.

– هل أخبرتك يا عمي أنّني تزوجت؟

– معقول؟ لا لم تخبرني. ماشاء الله. بارك الله لكما وفيكما.

– ألم أقل لك إن أهل هذه البلاد جِدُّ مضيافين؟ حين كنت في (بُتْرِي الشرقية) منذ عدة أشهر شهدت أحد الأعراس ورأيت صبية كالقمر جمالاً وضياء. فأعجبتني فخطبتها فأخبرتني أن شيخ (القَوَاسْمَةْ) هو وليها وحين خطبتها قام هو بنفسه بتزويجي منها. أنا الآن عريس منذ شهرين فقط يا عمِّي. ها قد وصلنا. هذا هو بيتي. وسوف أعرفك على عروسي الجميلة:

– «صُلَيْحَة» يا «صُلَيْحَة» هذا هو جدّك الحاج.. اعتبريه هدية زواجي لك..

جدّك «صُلَيْحَة» اعتاد على المزح السمج من «عبد السميع». لكنه قبل أن يزجره في هذه المرَّة مثل كل مرَّة سابقة إذا بك تخرجين حقاً من الخباء يا «صُلَيْحَة»! فيراك أمامه، فيفاجأ بك وتفاجئين به منتصباً أمامك بقامته الفارعة، وثوبه الأبيض المخطط الجميل.



كلاكما أصابته صاعقة الدهشة. جدّك حين رآك ترنح وكاد يسقط. ثم بقي هناك لحظات يحرك يديه محاولاً أن يتماسك فيبقى واقفاً. وبقي ينظر إليك بعينين ممتلئتين دهشة. وامتدت يداه تفركان عينيه وهو غير مصدق. وأنت لا تصدقين، لكنك تركضين في جنون صوب ذراعيه المشرعتين لاحتضانك. فردة السُّبَّاط تطير منفلتة من قدمك اليمنى وتتقلب في الهواء قبل أن تسقط على رمل (البُطَانَة)، بينما تبقى اليسرى متشبثة برجلك تأبى أن تفارقها، لتجعلك تتعثرين فتكادين تسقطين.

ويتلقفك جدّك بين يديه، فيضمك إليه بقوة. و«عبد السميع» يقف منتشياً وراضياً عن هذه المفاجأة التي فجرها بينكما، فيبقي واقفاً ينظر إليك تارة، وإلى جدّك تارة أخرى، متابعاً هذا الذي يجري أمامه، في تلك الليلة من ليالي الصيف الجميلة، في بادية (البُطَانَة) الشرقية.

جدّك لا يفهم هذا الذي يجري أمامه. ما يزال غير مصدق. يظن نفسه في حلم. لكن يجد أنَّه مستيقظ فيسأل متحيراً:

–ولكن كيف هذا؟ وكيف تزوجت «صُلَيْحَة» دون غيرها من النساء يا «عبد السميع»؟ ما هذه المصادفات الغريبة؟

– لم يكن الأمر مصادفة يا عمي! لقد بقيت أبحث عنها طويلاً مثلك تماماً. أنت حدثتني عنها دون أن تدري. لقد كنت تذكر اسمها وأنت نائم. وتناجيها حين تكون مستيقظاً. وكنت أسمع

دعاءك في عرفات وفي المناسك وأنت لا تدعو لنفسك أبداً، بل تدعو أن يجمعك الله بها، وأن هذه هي أمنيتك الوحيدة في الحياة. أحببتها قبل أن أراها وقبل أن أعرفها، وتعلقت روحي بها مثلك تماماً. ولهذا فحين تخلفتُ عنك هنا بقيتُ أعمل من أجل هدف واحد، هو أن أجمع المال لأتمكن من البحث عنها حتى أجمعكما معاً. سألت كل من قابلته. كنت أخرج صباحاً أطوف بالقرى والأحياء. لكن هذه المنطقة شهدت نزوحاً كبيراً بعد الخراب الذي حدث في (سُوبَا). النّاس أصبحوا لا يعرفون جيرانهم ولا يكترثون. كثيرون نزحوا جنوباً وآخرون انتقلوا إلى البادية. والعجيب هو أنَّه بعد الوباء الذي ضرب بلاد المغرب نزحت عشائر مغربية كثيرة إلى هذه المنطقة فاستقروا فيها وضربوا خيامهم، أو بنوا بيوتهم وظهرت قرى جديدة في (البُطَانَة). ولهذا فقد أصبح البحث عن «صُلَيْحَة» أمراً عسيراً. لكنِّي لم أيأس ولم أتوقف عن البحث.

وأخيراً وجدتها حين وجدتها في (بُتْرِي) الشرقية جنوب (سُوبَا) فقد سمعت أن «عبد الله القرِين» الذي أطلقوا عليه اسم«عبد الله جَمَّاع» وأصبح حاكم المنطقة بعد خراب سوبا سوف يأتي بنفسه ليزور (بُتري) الشرقية ويشهد زواج أحد أقربائه، فعزمت على رؤيته. وعلمت أن النّاس سيأتون للمناسبة. ولم يخب ظني فحين رأيتُ «صُلَيْحَة» عرفتُها. وكانت قد جاءت لحضور تلك المناسبة. كانت حزينة رغم أنَّها جاءت تشهد فرحاً. وكانت متميزة عن بقية البنات بلونها القمحي الناصع. وتأكدت أنَّها هي «صُلَيْحَة» لأنّني





رأيتها تلبس الجلابة والشَرْبِيل ورأيت السُبَّاط في قدميها، والنّاس هنا لا يعرفون هذه الملابس ولا يلبسونها. وحين اقتربت منها وسألتها عن اسمها أخبرتني.

حينها أخذتني العُرَوَاء فاشتعل جسمي من الحماس، وكدت أصيح بأعلى صوتي فقد عثرت على ضالتي. لا أكتمك يا عماه فقد أخبرتها بكل شيء. في البداية ظنت بأنّني أمزح، أو أنّني أحد الشبان العابثين، أراد أن يحتال عليها ليوقعها في حبائله، لكنها لما سمعت قصتي وحديثي عنك صدقتني على الفور. رأيت اللهفة في عينيها، ودموعها كانت تسابقها حين ذكرتك لها ومصاحبتي إياك أشهراً طويلة، فأيقنتْ أنك حي وأنَّها لابد ستقابلك. كان حبها لك لا يوصف، وشوقها إليك لا يدانيه شوق، ولهذا فقد قبلتْ على الفور أن تتزوجني ودون تردد بعد أن سمعت قصتي كلها. وأخبرتها أننا عازمون على العودة للبحث عن جدّك.

كنا نجلس كل ليلة نتحدث عنك. كنت أنت شغلها الشاغل لدرجة أنّني أصبحت أغار حين تذكرك، لكنِّي عذرتها فهي مشتاقة إليك. وفي ليلة من الليالي حين جلسنا نسمر كعادتنا كل ليلة حدث ما لم نتوقعه ولم نكن نفكر فيه أبداً. كانت تحكي عنك. أخبرتني أنَّها تستعرض قصة حياتكما معاً كل ليلة. قالت لي يوماً لو كنت أقدر أن أريك حياتنا الماضية مع جدي لفعلت ولأريتك كيف كنا. قلت لها تقدرين. قالت كيف. قلت لها تعالي نتخيل أننا رجعنا إلى الماضي معاً واحكي لي. كنا ساعتها نتناجى مثل عروسين، و كانت

قد وضعت رأسها على كتفي، وكنت أسمع أنفاسها تتردد في أذني، لكنِّي في تلك اللحظة سموت بروحي معها فانتقلنا معاً إلى ماضيها ورأيتك. وعلمت أن روح «صُلَيْحَة» قد أصبحت شفافة بحيث أنَّها تنظر في الماضي فترى كل شيء، وكأنَّه يحدث أمامها الآن. وحين حدثتها بأنّني أرى نفس ما تراه صدقتني. وقالت لي لو رأيتَ ما أراه الآن فأريدك أن تصفه لي.

فبدأت أصف لها كل شيء أراه. كنت أرى الماضي معها. انتقلت روحي وروحها إلى الماضي فرأيناك وأصبحنا نراك كل يوم، حتى علمنا أنك قد وصلت سوبا وأنك قريب من هذا المكان. ولهذا فحين وجدتك عند مشارف (سُوبَا) تتهيأ للنوم لم يكن ذلك مصادفة، لأننا رأيناك قبلها بليلة وأنت تبحث في تلك الأطلال والخرائب، فعلمنا أنك قريب. كانت صليحة تتوقع أن تراك لكنها لم تكن مستيقنة حتى رأتك بأم عينيها.

وتتدخل «صُلَيْحَة» فتقاطع «عبد السميع»:

- نعم يا جدي. روحي رأتك فعلمتُ أنّني سوف ألقاك. وبحمد الله فإن رؤيتي قد تحققت فرأيتك على الحقيقة. لكن عندي لك مفاجأة أكبر.

- لا توجد مفاجأة أكبر من هذا الذي يحدث يا «صُلَيْحَة»، بعد أن فقدت الأمل في لقائك والعثور عليك. ولم أسعد في حياتي بمثل ما سعدتُ اليوم. ولم أكن سأصدق أنك ستكونين زوجة «عبد



السميع» الذي صحبني في رحلة الحج كلها، وأنقذني من الحريق، وخدمني شهوراً طويلة بل أعواماً. بصراحة قلبي لا يحتمل كل هذه المفاجآت التي جاءت كلها دفعة واحدة.

– تأكد يا جدي لك عندي مفاجأة أكبر! ولكن أريدك أن تمسك أعصابك وتتجلد. هل أنت مستعد؟

كانت صليحة تقف أمام جدها وتنظر في عينيه مثلما كانت تفعل وهي صغيرة. وفي تلك اللحظة استدعت كل ذكرياتها معه في بيتهم القديم في تلك القرية النائية في المغرب. وحين نظر في عينيها انتقل معها إلى نفس الذكريات. كان الثلاثة يرون بعين الروحِ في الماضي. الثلاثة رأوا نفس الشيء. جدّك رأى ما كانت «صُلَيْحَة» تريده أن يرى. فرأى هذا الذي تحمله وتخبئه. رآه في الماضي وليس في يديها المخبأتين خلف ظهرها. نعم رأى المفاجأة. اتسعت حدقتاه. توهجت عيناه. قفز للأعلى. صاح بأعلى صوته مثل طفل صغير:

– المخطوطة، المخطوطة!

كانت إحدى يديها تأخذ المخطوطة المخبأة وراء ظهرها فتمدها له والأخرى تحنو عليه فتمسح دمعته التي تحدرت فوق خده. وكانت يداه مشغولتين بلمس المخطوطة ذات الجلد الأحمر وتقليب صفحاتها وهو يغيب عن «صُلَيْحَة» و«عبد السميع» في عالم آخر بعيد. عالم غامر بالفرح، مترع بالمحبة.

***

الفهرس

